حالة أهل الحقيقة مع الله تعالى

تأليف

قطب الشريعة والحقيقة سيدي أحمد بن علي الرفاعي الكبير المتوفى ٥٧٨ هـ

ويليه

مفتاح البركات

ويليه

روح الإشارة بأرواح من العبارة

ويليه

روح النجاة من الروح الشيطاني والشك السفلي

ويليه

رسالة الستر والتجلي

ويليه

رسالة الموازين السبعة

كلها تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحماني العلواني المتوفى ١٠١٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

حالة أهل الحقيقة مع الله تعالى

تأليف

قطب الشريعة والحقيقة سيدي أحمد بن علي الرفاعي الكبير المتوفى ٥٧٨ هـ سنة

ويليه

مفتاح البركات

ويليه

الأفلاك الإرشادية بالأرواح الإسعادية

ويليه

روح الإشارة بأرواح من العبارة

ويليه

روح النجاة من الروح الشيطاني والفلك السفلاني

ويليه

رسالة الستر والتجلي

ويليه

رسالة الموازين السبعة

كلها تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني المتوفى ١٠١٢ هـ سنة

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Rami Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Rami Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4446-4



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة مختصرة للإمام الرفاعي

هو الشيخ الحافظ القدوة حجة الله على خلقه غوث زمانه وقطب وقته. شيخ الطريقة وعَلَم الحقيقة شمس الهداية للمحبين، والكنز الذي ينفق منه السائرين، وفرد السادة الواصلين، وحيد عصره وفريد دهره سندنا ومولانا أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الشيخ الكبير الرفاعي البطائحي الأنصاري المغربي الشافعي قدّس الله سره العظيم ونفعنا بمحبته، آمين.

وذكره ابن قاضي شهبة في طبقاته قائلاً: هو مغربي الأصل ولد في المحرم سنة خمسمائة. وقال بروكلمان نفس قوله، وقال صاحب معجم المؤلفين إنه ولد عام اثنتي عشرة وخمسمائة.

وتوفي بأم عبيدة التي ولد فيها بالعراق في النصف الأول من رجب سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وقيل في جمادى الأولى.

قال عنه ابن خلكان: كان رجلاً صالحاً شافعياً فقيهاً انضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا فيه الاعتقاد وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم الأحمدية والبطائحية.

وقال ابن العماد الحنفي في شذرات الذهب الشيخ الزاهد القدوة وكان فقيهاً شافعياً قرأ التنبيه وله شعر حسن.

وقال سبط ابن الجوزي: حضرت عنده ليلة نصف شعبان وعنده نحو مائة ألف إنسان فقلت له هذا جمع عظيم فقال: حشرت محشر هامان إن خطر ببالي أني مُقَدَّمُ هذا الجمع.

وكان متواضعاً سليم الصدر مجرداً من الدنيا ما ادخر شيئاً قط.

له من التصانيف: حالة أهل الحقيقة مع الله، الحكم، البرهان، تفسير سورة القدر، الطريق إلى الله، النظام الخاص لأهل الاختصاص، شرح التنبيه في فروع الفقه الشافعي.

انظر ترجمته في: معجم المؤلفين (١/ ٢١٣)، شذرات الذهب (٤/ ٢٥٩)، تنوير الأبصار للشيخ أبي الهدى الصيادي الرفاعي (٣ ـ ٢٥).



مقدمة المصنف

الحمد لله حمداً نصل به إلى كشف الحجاب، ونُعَدُّ به من الأحباب.

ونشهد أنْ لا إلَه إلاَّ اللّهُ وحده لا شريك له.

ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وصفيه، وخيرته من خلقه، بعثه الله بالنور الساطع، والبيان اللامع، والسيف القاطع، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأوضح السُّنَّة، وأسّس الشريعة، ونصح الأمَّة، وعَبَدَ اللّهَ حتى أتاه اليقين.

فصلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه جمل نذكر فيها «حالة أهل الحقيقة مع الله» - ولا حول ولا قوة إلا بالله - وذلك لترتاضَ النفوس، ولتتروح القلوب، بنسبة ما ألفت إليه؛ وإلاَّ فمنبعنا وقتي، وثريدنا طري، من مائدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بالتنزل الإلهي، ما فيه قديد!

* * *



الحديث الأول:

السبيل إلى الإيمان

حدثنا الشيخ الإمام المقري القاضي الثقة، علي أبو الفضل الواسطي ـ بمدرسته في واسط ـ قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن علي بن المهذب، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر القطيعي، قال: أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد بن الليث بن سعد، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم بن الحرث، عن عامر بن سعد، عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وبِالإِسْلامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا»[1].

وهذا الذوق المنبعث عن هذا الرضا، هو: المعرفة بالله تعالى، والمعرفة نور أسكنه الله تعالى قلبَ من أحبَّه من عباده، ولا شيء أجلّ وأعظم من ذلك النور، وحقيقة المعرفة حياة القلب بالمحيي: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] وقال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وقال سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فمَنْ ماتَتْ نفسُه، بعُدتْ عنه دنياه؛ ومن مات قلبُه بَعُدَ عنه مولاه.

وسُئل ابن السماك: متى يعرف العبد أنه على حقيقة المعرفة؟

قال: إذا شاهد الحقَّ بعين اعتباره، فانياً عن كل من سواه.

(١) رواه مسلم (١/ ٦٢)، والترمذي (٥/ ١٤)، وابن حبان (٤/ ٥٩٢)، والبزار في مسنده (٤/ ١٤٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٨)، وأبو يعلى (١٢/ ٥٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٥١)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢١٨)، (٧/ ٢٠)، والخلال في السنة (٣/ ٥٨٤)، وابن مندة في الإيمان (١/ ٢٤٩، ٢٥٩)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٥٢)، والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٤٣)، جميعهم من طرق من العباس، وابن عباس، به، فذكره.

وقيل: المعرفة فِقدانُ رؤية ما سواه، بحيث يصير ما دون الله تعالى عنده أصغر من خردلة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

من نظر إلى الله تعالى، لم ينظر لا إلى الدنيا، ولا إلى العُقبى، وشمسُ قلب العارف أضوأُ من شمس النهار، وأبهج منها في مطلع الأنوار.

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أحبُّكَ لَيلاً ... فَاستَنارَتْ فَما لَدَيها غُرُوبُ
إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغرُبُ لَيلاً ... وَشُمُوسُ ٱلقُلُوبِ لَيسَتْ تَغيبُ

قال ذو النون رحمه الله تعالى: اطِّلاع الحق سبحانه على الأسرار بمواصلة المدد، كاطِّلاع الشمس على الأرض بإشراق الأنوار، فعليكم بتصفية القلوب، فإنها مواضع نظره، ومواطن سره، فإنَّ مَنْ عرف الله، لا يختار غيره حبيباً سواه.

وفي الخبر: «**إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَة، فَألقَىٰ عَلَيهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أخطَأهُ ضَلَّ**». وهو نور يخرج من سرادق المِنَّة، فيقع في القلب، فيستنير به الفؤاد، ويبلغ شعاعه إلى حجب الجبروت، ولا يحجبه عن الحق الجبروت، ولا الملكوت، فيصير العبد في جميع أفعاله وأقواله، وحركاته وإرادته، في حياته ومماته، صائراً إلى النور: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

إنْ كُنتَ لَسْت مَعِي فَالذِّكْرُ مِنكَ مَعِي ... قَلْبي يَرَاكَ وَإنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي

معرفة الله تعالى:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: المعرفة: قرب القلب إلى القريب، ومراقبة الروح للحبيب، والانفراد عن الكل بالملك المجيب.

وقال ذو النون: هي تخلية السر عن كل إرادة، وترك ما عليه العادة، وسكون القلب إلى الله بلا علاقة.

وقال بعضهم: هيئتها جنون، وصورتها جهل، ومعناها حيرة.

فإن العارف يشغله علم الله تعالى عن جميع الأسباب، فإذا نظر إليه الخلق استجهلوه، ويكون أبداً في ميدان العظمة، وَلِهاً بين الخلق، فإذا رأوه استجنُّوه، ويكون بكليته فانياً بحب جلال عظمته تعالى، مشغولاً عن من سواه، فإذا أبصروه استدهشوه!.

ولا يقدر أحد أن يخبر عن المعرفة بالله تعالى، فإنها منه بدَتْ، وإليه تعود، فالعارف فَانٍ تحت اطِّلاع الحق تعالى، باقٍ على بساط الحق بلا نَفْسٍ ولا سبب، فهو

مَيِّتٌ حيٌّ، وحي ميت، ومحجوبٌ مكشوفٌ، ومكشوف محجوب: تراه وَالِهاً على باب أمره، هائماً في ميدان بِرِّه، متدللاً تحت جميل ستره، فانياً تحت سلطان حكمه، باقياً على بساط لطفه.

العارفون صارت أنفسهم فانية تحت بقائه وسلطانه عن كل حول وقوة، تراهم باقين بحوله وقوته، متلاشين عن كونهم وأسبابهم تحت جلال ألوهيته، ملوكاً به دون مملكته، فقرهم به، وغناهم به، وعزُّهم به، وذُلُّهم به.

يروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! اعرفني واعرف نفسك.

فتفكر داود فقال: إلَهي! عرفتك: بالفردانية، والقدرة، والبقاء؛ وعرفت نفسي: بالعجز والفناء.

فقال: الآن عرفتني.

وروي في الخبر: لو عرفتم الله تعالى حق معرفته لَعُلِّمْتُمْ العلم الذي ليس بعده جهل، ولزالت الجبال بدعائكم.

مع أنه لا ينتهي أحد ولا يبلغ منتهى معرفته، إن الله تعالى أعظم من أن ينتهي أحد إلى منتهى معرفته.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه الرضوان والسلام: لا يعرف الله حق معرفته من التفت منه إلى غيره، المعرفة هي: طيران القلب في سرادق الأُنس والألفة، جَوْلاً في حجب الجلال والقدرة.

وهذه حالة من صُمَّتْ أذناه عن البطالات، وعميتْ عيناه عن النظر إلى الشهوات، وخرس لسانه عن التكلم بالتُّرَّهات.

وقيل لأبي يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ: ترى الخلق؟ قال: به أراهم.

وسُئل محمد بن واسع رحمه الله تعالى: هل عرفت ربك؟ فسكتَ ساعة ثم قال: من عرف الله تعالى قَلَّ كلامه، ودام تحيُّره، فني عن صور الأعمال، وتحيَّر مع الاتصال، متقرباً في جميع الأحوال، منقطعاً عن الحال إلى وليّ الحال، فإن الأمور بحقائقها، لا بالحس وصورها.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى: ليس على تحقيق بالمعرفة، من رَضِيَ بالحال دون وليّ الحال، فإنَّ من عرف الله كَلَّ لسانُه، ودهش عقله، العارفُ: إن تكلم بحاله هلك، وإن سكت احترق!.

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: المعرفة على وجهين: معرفة الإيقان، ومعرفة الإيمان.

فمعرفة الإيمان: شهادة اللسان بتوحيد الملك الديّان، والإقرار بصدق ما في القرآن.

وأما معرفة الإيقان: فهي دوام مشاهدة الفرد الديّان بالجَنان.

وقال بعضهم: هي على ضربين:

الأول: هو أن يعرف أن النعمة من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فيقوم بشكره، فيستزيد به النعمة من الله، بدليل قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والثاني: رؤية المُنعِم من غير أن يلتفت إلى النعمة، فيزيد شوقه إلى المُنعِم، ويقوم بحق معرفته ومحبته، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: هي على ثلاثة أوجه:

أولها: معرفة التوحيد، وهي لعامة المؤمنين.

والثاني: معرفة الحجة والبيان، وهي للعلماء، والبلغاء، والحكماء.

والثالث: معرفة صفات الفردانية، وهي لأهل ولاية الله تعالى وأصفيائه، الذين أظهر الله لهم ما لم يُظهر لمن دونهم، وأعطاهم من الكرامات ما لم يجز أن يوصف ذلك بين يدي من لا يكون أهلاً له.

خصهم الله من بين الخلائق، واصطفاهم لنفسه، واختارهم له، فحياتهم رحمة، ومماتهم غبطة، طوبى لهم.

وقال غيره: هي على وجهين:

معرفة التوحيد: وهو إثبات وحدانية الواحد القهار.

ومعرفة المزيد: وهي التي لا سبيل لأحد إليها.

التوحيد والتجريد والتفريد:

أقول: هي كشجرة لها ثلاثة أغصان: توحيد، وتجريد، وتفريد.

فالتوحيد: بمعنى الإقرار.

والتجريد: بمعنى الإخلاص.

والتفريد: بمعنى الانقطاع إليه بالكلية في كل حال.

وأول مدارج المعرفة: التوحيد، وهو قطع الأنداد؛ والتجريد: وهو قطع الأسباب؛ والتفريد: وهو بمعنى الاتصال بلا سير، ولا عين، ولا دون.

ولها خمسة طرائق:

أولها: الخشية في السر والعلانية.

والثانية: الانقياد له في العبودية.

والثالثة: الانقطاع إليه بالكلية.

والرابعة: الإخلاص له بالقول، والفعل، والنية.

والخامسة: المراقبة في كل خطرة ولحظة.

حال الحبيب:

وحكي عن عبد الباري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: خرجت مع أخي ذي النون ـ رحمه الله تعالى ـ فإذا نحن بصبيان يرمون واحداً بالحجارة فقال لهم أخي: ما تريدون منه؟

قالوا: هذا رجل مجنون! ومع ذلك يزعم أنه يرى الله تعالى!.

قال: فدنونا منه؛ فإذا هو شاب وسيم؛ ظهر عليه سيما العارفين؛ فسلّمنا عليه، وقلنا: إنهم يزعمون أنك تدّعي رؤية الله تعالى! فقال: إليك عني يا بطال! لو فقدتُه أقل من طرفة عين لمت من ساعتي، وأنشأ يقول:

طَلَبُ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ رِضَاهُ ... وَمُنَى الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ لِقَاهُ

أبداً يُلاحِظُهُ بِعَيْنَيْ قَلْبِهِ ... وَالْقَلْبُ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيَرَاهُ

يَرْضَىٰ الْحَبِيبُ مِنَ الْحَبِيبِ بِقُرْبِهِ ... دُونَ الْعِبَادِ فَمَا يُرِيدُ سِوَاهُ

فقلت له: أمجنون أنت؟ فقال: أمّا عند أهل الأرض فنعم؛ وأما عند أهل السماء فلا.

قلت: فكيف حالك مع المولى؟ فقال: منذ عرفته ما جفوته.

فقلت: منذ كم عرفته؟ قال: منذ جعل اسمي في المجانين[1]!.

* * *

---

(١) انظر في شرح الحديث: شرح مسلم للنووي (١/ ٢١٧)، (٢/ ٢، ١٣)، والديباج للسيوطي (١/ ١٥)، وفيض القدير للمناوي (٣/ ٥٥٧)، وتحفة الأحوذي (٧/ ٣١١، ٣١٢).

الحديث الثاني:

الكيِّس والعاجز

أخبرنا شيخنا الشيخ الإمام المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي - بمدرسته بواسط - قال: أنبأنا الشريف النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي - قراءة عليه، ونحن نسمع - قال: أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد، قال: أنبأنا أبو علي الحسين بن صفوان، قال: أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا؛ قال: أنبأنا الهيثم بن خارجة، قال: أنبأنا ثقبة بن الوليد، عن أبي بكر بن أبي مريم، قال: حدثني حمزة بن جندب، عن أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهُ وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ»[1].

فالعمل بسرِّ هذا الحديث، هو المعرفة؛ نعم إن المعرفة من العبد، والتعريف من الرب تعالى، وهي أشرف وأعظم الهدايا، التي يهديها إلى عباده، فإن الله تعالى إذا أراد أن يختار عبداً من عبيده، ويفضله على من سواه من خلقه، ويُطْلع في سره شمسَ المعرفة، ينظر إليه بعين الفضل والرحمة، ويفتح له أبواب الهداية، ثم يكرمه بالانتباه، ويوقظه من نومة الغافلين، وينعم ويمن عليه بشرح القلب، ويذهب عنه موت القلب بالفهم، ويذهب عنه الوهم، ويكرمه بالحياء، والخوف، واليقين، ويذهب عنه الشك، وجراءة الأمن.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٨)، وابن ماجة (٢/ ١٤٢٣)، والحاكم (١/ ١٢٥)، (٤/ ٢٨٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٩)، والشعب (٧/ ٣٥٠)، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٤)، والطيالسي (١/ ١٥٣)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨١، ٢٨٤)، وفي الصغير (٢/ ١٠٧)، ومسند الشاميين (١/ ٢٦٦)، (٢/ ٣٥٤)، والبزار في مسنده (٨/ ٤١٧)، والقضاعي في الشهاب (١/ ١٤٠)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٥٦)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ٣٨، ٣٩٥)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٣١٠).

فإذا اجتمعتْ في العبد هذه الخصال: أشرق فؤاده بنور، فيرى ما دون حجب الجبروت، وتشتاق إليه الجنان، ويخمد منه لهبات النيران، ولو أن المعرفة نقشت على شيء، ما نظر إليها أحد إلاّ مات من حسنها وجمالها! لكل أحد رأس مال، وهي رأس مال المؤمن.

وقال رجل لذي النون رحمه الله تعالى: إني لأُحِبُّك، فقال: إن كنتَ عرفت الله فحسبك الله، وإن لم تعرفه فاطلب من يعرفه، حتى يدلك عليه.

المعرفة شجرة طيبة:

وعندي أن المعرفة كشجرة يغرسها مَلِكٌ في بستانه، ثمينة جواهرها، مثمرة أغصانها، حلوة ثمارها، طريفة أوراقها، رفيعة فروعها، نقية أرضها، عذب ماؤها، طيب ريحها، صاحبها مشفق عليها لعزتها، مسرور بحُسن زهرتها، يدفع عنها الآفات، ويمنع عنها البليات.

وكذلك شجرة المعرفة، التي يغرسها الله تعالى في بستان قلب عبده المؤمن، فإنه يتعهدها بكرمه، ويرسل إليها كل ساعة سحائب المِنّة من خزائن الرحمة، فيمطر عليها قطرات الكرامة، برعد القدرة، وبرق المشيئة، ليطهرها من غبار رؤية العبودية، ثم يرسل عليها نسيم لطائف الرأفة، من حجب العناية، ليتم لها شرف الولاية، بالصيانة والوقاية.

فالعارف أبداً يطوف بسره تحت ظلالها، ويشم من رياحينها، ويقطع منها بمنجل الأدب، ما فسد من ثمارها وحلّ فيها من الخبث والآفة.

فإذا طال مقام سر العارف تحتها، ودام جولانه حولها، هاج أن يتلذذ بثمارها، فيمد إليها يد الصفاء، ويجتني ثمارها بأنامل الحرمة، ثم يأكلها بفم الاشتياق، حتى تغلبه نار الاستغراق، فيضرب يد الانبساط إلى بحر الوداد، ويشرب منه شربة يسكر بها عن كل ما سوى الحق، سكرة لا يفيق منها إلا عند المعاينة، ثم يطير بجناح الهمة، إلى ما لا تدركه أوهام الخلائق.

وقيل للواسطي رحمه الله تعالى: أي الطعام أشهى؟ قال: لقمة من ذكر الله تعالى، تُرفع بيد اليقين، من مائدة الخلد، عند حسن الظن بالله تعالى.

قال النساج رحمه الله تعالى: يخرج أكثر أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا طيباتها المقصودة؛ قيل: وما هي؟.

قال: سرور المعرفة، وحلاوة المِنَّة، ولذائذ القربة، وأنس المحبة.

وقال محمد بن واسع رحمه الله تعالى: حقٌّ لمن أعزّه الله بمعرفته، أن لا يذل نفسه لغيره، وحق لمن والاه الله بولايته، أن يقوم بحقه، وحق لمن أكرمه الله بصحبته، أن لا يميل إلى غيره، ولا يعمل بهوى نفسه.

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى: إن في الليل شراباً لقلوب العارفين، تطير به قلوبهم حباً لله وشوقاً إليه، إلا أن الناظرين إليه لا إلى غيره، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة.

أقول: وهذا الشراب هو التحيُّر، وهو على ضربين: تحير وحشة، وتحير دهشة؛ فتحير الوحشة للمطرودين، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين. يا دليل المتحيرين! زدني تحيراً.

* * *

الحديث الثالث:

الإيمان في القلب

أخبرنا العبد الصالح الثقة، الشيخ أبو محمد أحمد بن عبد الله، بن الحسين، بن أحمد، بن جعفر الآمدي الواسطي، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد، بن علي ابن كاتب الوقف بواسط، قال: أنبأنا أبو الحسن محمد بن علي الرواسي - إملاء بجامع واسط - قال: أنبأنا أبو القاسم عبيد الله بن تميم، قال: أنبأنا أحمد بن إبراهيم الإمام، قال: أنبأنا علي بن حرب، بن زيد، بن الحباب، قال: أنبأنا علي بن مسعدة الباهلي، قال: أنبأنا قتادة، أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ:

«الإِسْلامُ عَلانِيَةٌ، والإِيمَانُ في القَلْبِ، والتَّقوى هَاهُنا»[1] - يقولها ثلاثاً - ويشير بيده إلى صدره ﷺ.

والتقوى التي تقر في القلب، فتُحْكِمُ فيه الإيمانَ، هي روح المعرفة. أي سادة! إن الله تعالى جعل لكلِّ شيء قدراً، ولكلِّ قدر حداً، ولكلِّ حدٍّ سبباً، ولكلِّ سبب أجلاً، ولكلِّ أجل كتاباً، ولكلِّ كتاب أمراً، ولكل أمر معنى، ولكلِّ معنىً صدقاً، ولكلِّ صدق حقًّا، ولكلِّ حقٍّ حقيقة، ولكلِّ حقيقة أهلاً، ولكلِّ أهل علامة.

فبالعلامة يُعرف المُحِقُّ من المبطل، وكل قلب أقعده على بساط تحقيق المعرفة، وقع بسيماء المعرفة على وجهه، ويظهر أثرها في حركاته، وأفعاله، وأقواله، كما قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] وقال ﷺ: **«من أسَرَّ سريرة ألبسه الله رداءها، إنْ خيراً فخير، وإن شرًّا فشر»**[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٩)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٣٠١)، والديلمي في الفردوس (١/ ١١٥) جميعهم من طريق علي بن مسعدة به فذكره.

(٢) ورواه أحمد في المسند (٣/ ٤٩١)، وابن هناد في الزهد (٢/ ٤٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٤)، (١٨٣)، عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً، بنحوه جزء منه.

الصالحون أحسن الخلق وجوهاً:

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: ما بال العارفين أحسن وجوهاً، وأكثر هيبة من غيرهم؟.

فقال: لأنهم خَلَوا بالله مستأنسين، وَقَرُبُوا إلى الله متوجهين، وفَزِعوا إليه متوالهين؛ فكساهم الله بنور معرفته؛ فبه ينطقون، وله يعملون، ومنه يطلبون، وإليه يرغبون، أولئك خواصُّ الله السابقون، سعيهم في طاعة الله من غير علاقة، وينصحون العامة من غير طمع، مشتاقون منيبون إلى الله تعالى، قلوبهم له وَجِلة، نفوسهم وحشية، وقلوبهم عرشية، وعقولهم مغشية، وأرواحهم ياسينية، كلهم معصوم بقلبه عن فتنة الناس؛ وذِكْرُ الله يحميه من شر الوسواس، صدره مشروح، وجسمه مطروح، وقلبه مجروح، وباب الملكوت له مفتوح.

قلبه مثل القنديل، وجوارحه خاضعة كالمنديل، لسانه مشغول بتلاوة القرآن، ولونه مصفرٌ من خوف الهجران، ونفسه ذائبة في خدمة الرحمٰن، وقلبه زاهر بنور الإيمان، نفسه مشغولة بالطلب، وروحه مشغولة بقرب الربّ، على لسانه وصف الربوبية، وعلى أركانه خدمة الديمومية، وعلى نفسه أثر العبودية، وفي قلبه هيبة الفردانية، وفي سره الطرب بالألوهية، وفي روحه شغف الوحدانية.

تعلق العارفين بالحق سبحانه:

أفواههم إليه ضاحكة، وأعينهم نحوه طامحة، وقلوبهم به متعلقة، وهمومهم إليه واصلة، وأسرارهم إليه ناظرة، رَمَوْا ذنوبهم في بحر التوبة، وطرحوا طاعاتهم في بحر المِنَّة، وضمائرهم في بحر العظمة، ومرادهم في بحر الصفوة، وهممهم في بحر المحبة.

في ميدان خدمته يتقلبون، وتحت ظلال كرمه يتنفسون، وفي رياض رحمته يرتعون، ومن رياحين امتنانه يشمون.

ينظرون إلى الدنيا بعين الاعتبار، وإلى الآخرة بعين الانتظار، وإلى أنفسهم بعين الاحتقار، وإلى طاعتهم بعين الاعتذار، لا الاستكثار، وإلى الغفران بعين الافتقار، وإلى المعرفة بعين الاستبشار، وإلى المعروف سبحانه بعين الافتخار، يرمون أنفسهم إلى البلوى، وأرواحهم إلى العقبى، وقلوبهم إلى النجوى، وأسرارهم إلى المولى.

أنفسهم تاركة للدنيا، وأرواحهم للعقبى، وقلوبهم مستأنسة بالذكرى، وأسرارهم بحب المولى، قلوبهم معدن التعظيم والهيبة، وألسنتهم معادن الحمد والمدحة، وأرواحهم مواطن الشوق والمحبة، وأنفسهم مقهورة تحت سلطان العقل والفِطنة.

أكثر همتهم التفكير والعبرة، وأكثر كلامهم الثناء والمدحة، عملهم الطاعة والخدمة، ونظرهم إلى لطائف صنع ربِّ العزة.

أحدهم تراه مصفراً من خوف فراقه، ذائب الأطراف من هيبة جلاله، طويل الانتظار شوقاً إلى لقائه، سلك طريق المصطفى، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، وقام على قدم صدق الوفا.

حال الحبيب مع سيده:

حاله في الدنيا غريب، وقلبه في صدره غريب، وسره في نفسه غريب، فلا يستريح من غم الغربة ووحشتها، ما لم يصل إلى الحبيب، فأمره عجيب، والمولى له طبيب؛ كلامه وجداني، وقلبه فرداني، وعقله رباني، وهَمُّهُ صمداني، وعيشه روحاني، وعمله نوراني، وحديثه سماوي.

جعل الله قلبه موضع سره، وموطن نظره، وزيَّنه بحليِّ ربوبيته، وأدخله دار الإمارة من سلطانه، يدور بالفؤاد حول عزته، ويرتفع في روضات قدسه، ويطير بجناح المعرفة في سرادقات غيبه، ويجول في ميادين قدرته، وحجب جبروته، لو رآه الجاهل بشأنه مات فزعاً بعد معرفته له من ساعته، علامته في الدنيا أن يكون البلاء عنده عسلاً، والأحزان رُطَباً، وفي الآخرة كل واحد يقول: نفسي، نفسي! وهو يقول: ربي، ربي، مرادي، مرادي.

من علامات العارف:

العارف علامته أربعة: حبه الجليل، وتركه الكثير والقليل، واتباعه التنزيل، وخوفه من التحويل.

العابد ذو نصب، والخائف ذو هرب، والمحب ذو شغب، والعارف ذو طرب[١].

* * *

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ٥٢)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢١١)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٩)، وفيض القدير للمناوي (٣/ ١٧٨).

الحديث الرابع:

صاحب الوجهين

أخبرنا شيخنا الولي التقي الثقة، المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي القرشي بمدرسته في واسط، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد، قال: أنبأنا علي أبو طاهر الحسن ابن الوزير أبي القاسم علي بن صدقة بن علي، قال: أنبأنا أبو المطهر سعد بن عبد الله الأصبهاني، قال: أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن فارس، قال: أنبأنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، قال: أنبأنا أبو داود الحضري، قال: أنبأنا ابن الربيع، عن نعيم بن حنظلة، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ذُو الوَجْهَينِ في الدُّنيا، ذُو لِسَانَينِ في النَّار»[1].

ولهذا صرف العارفون وجوههم إلى الله تعالى، فلن ترى للعارف وجهتين أصلاً، ومن هذا السر أمروا بعدم الجمع بين أُستاذين، وقالوا: إذا وُجد الأكمل الأفضلُ في طريق الله تعالى، الأصح اتباعاً لرسول الله ﷺ، فعلى المريد أن يتمسك به؛ بل على ما كان يزعم المشيخة، أن يلتحق به هو وأولاده في الطريق.

وهذا ضرب من أعظم أضراب المعرفة بالله.

جملة من أحوال العارفين:

أيْ سادة! اعلموا أن العارفين على أصناف مختلفة، ومناهج متفاوتة، ومراتب متلونة، وأنواع متفرقة، ومنازل متنوعة.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٣٤)، (٦٢٧٨)، والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٤٦).
وانظر: مجمع الزوائد (٨/ ٩٥)، والتخويف من النار (ص١٢٨)، والترغيب والترهيب (٣/ ٣٧١)، وفيض القدير (٣/ ٥٦٨)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٨٣).

فمنهم من عرف الله بالقدرة، فخافَهُ.

ومنهم من عرفه بالفضل، فأحسن الظن به.

ومنهم من عرفه بالمراقبة، فاعتقد الصدق.

ومنهم من عرفه بالعظمة، فاعتقد الخشية.

ومنهم من عرفه بالكفاية، فاعتقد الافتقار إليه.

ومنهم من عرفه بالفردانية، واعتقد الصفوة.

ومنهم من عرفه به فاعتقد الوصلة، فَوِجْدَان (أي معرفة) الخوف على قَدْرِ عرفان القدرة، وَوِجْدَان حسن الظن على قَدْر عرفان الفضل؛ وَوِجْدَانُ الصدق على قدْر عرفان المراقبة، وَوجدان الخشية على قَدْر عرفان العظمة وَوِجدانُ الافتقار على قَدْرِ عرفان الكفاية، وَوِجْدَان الصفوة على قَدْر عرفان الفردانية، ووِجْدان الوصلة على قَدْر عرفان الرّب تعالى.

وكذلك أهل السمٰوات في العبادة على مقامات، فمقام بعضهم الحياء، والحرمة؛ ومقام بعضهم القربة، والمؤانسة، ومقام بعضهم رؤية المِنَّة، ومقام بعضهم: المراقبة؛ ومقام بعضهم: الهيبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصّافات: ١٦٤].

فأهل المعرفة عامتهم يعرفونه على سبيل الخبر في التوحيد، عن الصادق الأمين، سيدنا وسيد العالمين محمد ﷺ، فصدَّقوه بقلوبهم، وعملوا بأبدانهم، إلاّ أنهم دنسوا أنفسهم بالذنوب والمعاصي؛ فعاشوا في الدنيا على الجهل والتقصير، فهم على خطر عظيم؛ إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين.

وأناس فوقهم يعرفونه بالدلائل، وهم أهل النظر والعقل والفكر، أيقنوا بالتوحيد، من قِبَلِ الدلائل والآيات وآثار الربوبية، استدلوا بالشاهد على الغائب، واستيقنوا صحة الدلالة، فهم على طريق حسن، إلاّ أنهم عاشوا محجوبين عن الله تعالى برؤية دلائلهم.

وخواص أهل المعرفة من أولى اليقين، عرفوه به سبحانه، فوقفوا متمكنين مع معرفتهم، لا تخطفهم الأدلة، ولا تصرفهم العلة، دليلهم رسول الله ﷺ، وإمامهم القرآن، ونورهم يسعى بين أيديهم.

فمن عرفه تعالى بالخبر، كمثل إخوة يوسف، إذ عرفوا لونه، وغفلوا عنه حتى افتضحوا بين يديه، حيث ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧].

ومن عرفه بالدلائل، كمثل يعقوب، إذ عرف أن يوسف يُعد في الأحياء، فازداد حزناً وبكاءً، واحتمل ما احتمل من أنواع البلاء، حتى ابيضّتْ عيناه من الحزن، علماً منه بحياته، وشوقاً إلى لقائه، حتى قال: اذهبوا فتحسسوا من يوسف، وقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٩٤] حتى قال من غفل عنه: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يُوسُف: ٩٥] وقالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يُوسُف: ٨٥].

ومثل من عرفه به، كبنيامين حين أخذه يوسف لنفسه، فقال: يا أخي أمشاهدتي تريد، أم الرجوع إلى أبيك؟ قال: بلى مشاهدتك أريد، قال: فإن أردتني فاصبر على محنتي، قال: نعم، أحتمل لأجلك كل بلوى، أليس أني أبقى معك ولا أُفارقك؟ ثم أخرج الصاع من وعائه، ونسبه إلى السرقة! حتى عابه أهل مصر على ذلك ولاموه، وشتمه إخوته، وهو في ذلك كله مسرور ضاحك في سره، ولم يَخَفْ من لومة اللائمين! فهذا مثل من عرفه من أهل اليقين.

أصناف الرجال:

وقال شيخ الطائفة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه أهل المعرفة في الدنيا على ثلاثة منازل:

١ ـ رجل لقي العبادة فعانقها وخلط بها لحمه ودمه، وفزع إليها قلبُه، وعلم أن الله تعالى رازقه وكافيه، فوثق بوعده، فلم يشغل نفسه بشيء من أمور الدنيا، جعل السماء سقفه، والأرض بساطه، ولا يبالي على يُسْرٍ أصبح، أم على عُسْرٍ، أمسى يعبد الله تعالى حتى يأتيَه اليقين؛ فهذا الضرب في الدنيا أعز من الكِبْريت الأحمر.

٢ ـ ورجل آخر لم يصبر كما صبر الأول، فطلب كِسرةً من حِلِّها، يقيم بها صلبه، وخِرقة يواري بها عورته، وبيتاً يسكنه، وزوجة يستعف بها، وهو مع ذلك شديد الخوف، عظيم الرجاء، فهو على طريق حسن.

٣ ـ وأما الثالث: فإنه لا يصدق الله بقوله! فيبني القصر المشيد، ويركب المركب الفَرِه (المركب الحسن)، ويستخدم الخدم؛ فليس له في الآخرة من خلاق! إلا أن يرحمه أرحم الراحمين.

أصناف العابدين:

رأيت في بعض الأخبار أن عيسى ابن مريم عليه السلام مرَّ بنفر من الناس، قد نَحِلَتْ أبدانُهم، وتغيَّرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوف من النار، فقال: حقٌّ على الله أن يُؤَمِّنَ الخائف.

ثم بلغ إلى نفر آخر، فإذا أبدانهم أشد نحولاً، وألوانهم أشد تغيراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنان؛ فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون.

ثم مرَّ حتى بلغ نفراً ثالثاً، فإذا أبدانهم أشد نحولاً، وألوانهم أشد تغيراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الحب لله والشوق إليه، فقال لهم عيسى عليه السلام: أنت المقربون ـ ثلاث مرات ـ.

فأهل المعرفة ثلاثة أصناف: صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار، وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار، وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

والناس في مشهد المعرفة على مرتبتين: إما في يقظة المعرفة، فهم في تربية الولاية، فينظرون الكرامة؛ وإما في نوم الغفلة، فهم في تربية العداوة، فهم ينظرون الإماتة، إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين.

فسبحان من خَصَّ من عبيده من شاء وأعطاهم، ثم دعاهم إلى نفسه بفضله حيث قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزُمَر: ٥٤]، فأجابوه وأنابوا إليه، فهم على أصناف شتى:

فالتائبون يمشون برجل الندامة على قَدَم الحياء.

والزاهدون يمشون برجل التوكل على قَدَم الرضاء.

والخائفون يمشون برجل الهيبة على قَدَم الوفاء.

والمحبون يمشون برجل الشوق على قَدَم الصفاء.

والعارفون يمشون برجل المشاهدة على قَدَم الفناء.

فالمعرفة طعام أطعمه الله من شاء من عباده، فمنهم: من يذوقه ذوقاً، ومنهم: من يأكل منه بلاغاً، ومنهم: من يأكل منه كفافاً، ومنهم: من يأكل منه شِبَعاً.

والناس في المعرفة على منازل: فمنهم من يكون منزله منها كشِعْب، ومنهم من يكون كقرية، ومنهم من يكون كمِصْر، ومنهم من يكون منزله منها كالدنيا والآخرة.

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أخرجوا من النار من قال: لا إلّه إلا الله، وفي قلبه مثقال حبة من خردل من الإحسان**»[1]، وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «... **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

وما ذلك إلا حقيقة المعرفة، فيقول لهم الرب تعالى: أنتم عبيدي حقاً، فقد طال شوقكم إليَّ، وشوقي إليكم، السلام عليكم عبيدي، فها أنا حبيبكم، فبعزتي ما خلقت الجنة إلا من أجلكم فلكم اليوم ما شئتم.

تعبد الله حباً في الله:

وحكي أن مالك بن دينار وثابتاً البناني رحمهما الله، دخلا على رابعة البصرية، فقالت لمالك: أخبرني لِمَ تعبدُ ربك؟ قال: شوقاً إلى الجنان. فقالت لثابت: وأنت يا غلام؟ فقال: خوفاً من النيران.

فقالت: أنت يا مالك! مثل أجير السوء، لا يعمل إلا طمعاً! وأنت يا ثابت! مثل عبد السوء، تعمل خوفاً من الضرب! فقالا: وأنت يا رابعة! فقالت: حباً لله تعالى، وشوقاً إليه.

وحُكيَ أنَّ ذا النون المصري رضي الله عنه، كان يعظ الناس ذات يوم وهم يبكون، وفيهم شاب يضحك! فقال له: مَا لَكَ يا فتى؟ فقام يُنشد ويقول:

كلُّهمْ يعبُدونَ من خَوْفِ نارٍ ... وَيَروْنَ النَّجاةَ حظًّا جَزِيلا
أو بأنْ يسكُنُوا الجِنانَ فيُضحُوا ... في رياضٍ عُيونُها سَلْسَبِيلا
ليسَ في الخُلْدِ والجِنَان هَوائِي ... أنا لاَ أبْتَغِي بِحبِّي بَدِيلا

* * *

(١) رواه البخاري (١/ ٢٤)، (٦/ ٢٦٩٦)، بنحوه.

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).

الحديث الخامس:

أنصر أخاك دائماً

أخبرنا شيخنا الصالح الثقة العارف بالله، القاضي أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز، قال: أنبأنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن محمد البزار، قال: أنبأنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مُسْلم البصري، قال: أنبأنا أبو عبد الله الأنصاري، قال: حدثنا حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«أُنصرْ أخاكَ ظَالِماً كَانَ أوْ مَظْلوماً»، قَالَ: أَنْصرهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ أنصُرهُ ظَالماً؟ قَالَ: **«تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إيَّاه»**[1].

أقول: هذا بشأن أخيك، فكيف بك بشأنك؟ أخيفوا نفوسكم وامنعوها وازجروها.

أجنحة العارفين:

أيْ سادةُ! للعارف أربع أجنحة: الخوف، والرجاء، والمحبة، والشوق.

فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب، ولا بجناح الشوق يستريح من الشَّغب، واللَّهُ تعالى بَيَّنَ في كتابه نعتهم بقوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النّور: ٣٧].

وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى، وقوله مستأنس بالذكرى، ونفسه

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٨٦٣)، ومسلم (٤/ ١٩٩٨)، والترمذي (٤/ ٥٢٣)، والدارمي (٢/ ٤٠١)، وأحمد في المسند (٣/ ٩٩، ٢٠١)، وعبد بن حميد (١/ ٤١١)، وأبو يعلى (٦/ ٤٤٩)، والبغوي في ابن أبي الجعد (١/ ٣٨٦)، من طريق حميد عن أنس به فذكره، وبنحوه.

صابرة في البلوى، وسره دائم النجوى، وفكره بالأُفق الأعلى، فمرة يتفكر في نعم ربه، ومرة يجول حول سرادقات قدسه.

فحينئذ يصير حرًّا عبداً، وعبداً حرًّا، وغنياً فقيراً، وفقيراً غنياً.

هكذا يُعِدُّ ما أمكنه طرداً وعكساً من الألفاظ، مثل الموجود والمعروف، والعزيز والمسرور، والقريب والمحمود، والناطق والساكت، والمقبول والخائف، والشاهد والغائب، والباكي والضاحك.

وذلك لأنه ضَحِكه وسروره في حزنه، وحزنه في سروره، وعزه مختلط بِذُلِّهِ، وذُلُّهُ مختلط بعزه، وخوفه ممزوج برجائه، ورجاؤه ممزوج بخوفه، لا خوف يذهب برجائه، ولا رجاء يذهب بخوفه؛ وهو بنفسه يعيش مع الناس، وبقلبه مع الله تعالى، لا تغلب معاملةُ نفسه مع الناس معاملةَ قلبه مع الله تعالى، عزيز ذليل، فقير غني، كما قال أبو يزيد رضي الله عنه في مناجاته: إلَهي!.

كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدِي قَيَّدونِي وَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة.

وليس كل من يُرىٰ عليه أثر الزهد فهو زاهد! وكذلك أثر الغربة، والحماقة والجنون، والبطالة والغفلة.

إن الله تعالى، كلما نظر إلى قلب عبد من عبيده، بالفضل والرحمة، كشف عنه حجاب الغفلة، وأظهر له لطائف القدرة، فعند ذلك لا بد له من إحدى ثلاث:

إما أن يصير حكيماً، يتصل به الخلق إلى الله؛ وإما أن يَكلَّ لسانُه، فيصير مدهوشاً مبهوتاً؛ وإما أن يصير مستوراً في حجبه، محفوظاً في قبضته، حتى لا يراه غيره، لشدة غيرته عليه.

فسبحان من حجب أهل معرفته عن جميع خلقه، حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعالى في أرضه، والله مَحْرَمهُم، لا مَحْرَمَ لهم غيره، فهم عند الله مخدورون (من الخدر وهو الستر).

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! أوليائي في قباب لا يعرفهم إلا أوليائي، فطوبى لأوليائي، ثم طوبى لأحبائي.

يقال: لو بدت ذرة من نور النبي عليه الصلاة والسلام لاحترق ما بين العرش إلى الثرى.

علامة العارف:

قيل لرابعة ـ رحمها الله تعالى ـ ما كمال حال العارف؟ قالت: احتراقه بحبه

لربه، وعلامته: أن يكون مستغنياً بالمعطي عن العطاء، وبالمكوِّن عن الكون، مستغرقاً في بحار سرور وجدانه، ساكناً بقلبه معه، مع ترك كل اختيار لنفسه، ولا يجزع عند الشدائد والبلوى لرؤيته، ويعلم أن الله تعالى أقرب إليه من كل شيء، وأرحم عليه من كل أحد، وأعز وأكبر من كل شيء، وأن لكل شيء خلفاً ما خلا الله تعالى.

لِــكُــلِّ شَــيْءٍ عَــدِمْــتَــهُ خَــلَــفُ ... وَمَــا لِــفَــقْــدِ الْــحَــبِــيــبِ مِــنْ خَــلَــفِ

وإنما يَعْرِفُ العارف، إذا ميَّزَ الخواطر النفسية من الخواطر الروحية، والإرادة الدنياوية من الأخروية، والهمم العلوية من السفلية، فمن رُزق التوفيق على حفظ حدود صدق وفاء العبودية، والقيام بشروطها، ووجدان السبيل إلى طريق حفظ تحقيقها، ثم قام بذكره، وذكر ذكره، ثم شكره، وشكر شكره، فيصير مع النفس بلا نفس، ومع الروح بلا روح، ومع الخلق بلا خَلْق.

قلوب معلّقة بالله:

كما قال الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: بلغنا أن عيسى ويحيىٰ عليهما الصلاة والسلام، بينما كانا يسيران في بعض الطرق، فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى: يا ابن خالتي! لقد أصبت اليوم ذنباً عظيماً، قال: وما هو؟ قال: امرأة صدمتها. قال يحيى: والله ما شعرت بها. فقال عيسى: سبحان الله، نفسك معي! فأين قلبك وروحك؟ فقال: عند الله، يا عيسى! لو سكن قلبي إلى جبريل، أو إلى أحد غير الله طرفة عين، لظننتُ أني ما عرفت الله حق معرفته.

معنى المعرفة:

وقيل: المعرفة خمسة أحرف، فمن وجد في نفسه معناها فليعلم أنه من أهلها:

بالميم: مَلَك نفسه؛ **وبالعين**: عَبَدَ الله على صدق الوفاء؛ **وبالرَّاء**: رغب إلى الله بالكلية؛ **وبالفاء**: فوَّض أمره إلى الله؛ **وبالهاء**: هرب من كل ما دون الله إلى الله.

فكل عارف يملك نفسه بقَدْر معرفته بكبريائه تعالى وعظمته، ويعبد ربَّه على قَدْرِ معرفته بربوبيته، ويرغب إليه على قَدْرِ معرفته بفضله وامتنانه، ويُفَوِّضُ أمره إليه على قَدْرِ معرفته بقدرته، ويهرب إليه على قدر معرفته بملكه وسلطانه، فهو عارف[١].

❋ ❋ ❋

(١) انظر في شرح الحديث: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٣٣٣)، وأمثال الحديث للرامهرمزي (ص١٠٤)، والبيان والتعريف (ص٣٠٠)، والفتح (٥/٩٨)، (٦/٥٤٧)، وعون المعبود (٩/٥٩)، وشرح النووي على مسلم (١٦/١٣٧)، وفيض القدير (٦/١٣٦، ٣٢٦).

الحديث السادس:

متى يُستجاب الدعاء

حدثنا الشريف محمد بن عبد السميع العباسي الهاشمي الواسطي، قال: أخبرنا الحاجب أبو شجاع محمد بن الحسين، قال: أنبأنا النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي الهاشمي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الجبار السكري، قال: أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن منصور الرمادي، قال: أنبأنا عبد الرزاق بن همام، قال: أنبأنا معمر عن الزهري عن رجل سماه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[1].

والعجلة هنا من غلبة الاشتغال بالقصد دون خالقه، وهذا من نقصان المعرفة، فإن العارف لا يشغله شيء عن ربه.

وسنذكر من أحوال العارفين أشياء بقصد التبرك بذكرهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣].

وفي الخبر: **«اذكروا الصالحين؛ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»**.

فلولا ذلك لما كان ينبغي لنا أن نشتغل بذكر غير الله تعالى، ومع ذلك فإن الله تعالى معنا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

حكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله قال: قصدت بيت المقدس فأضللت طريقي، فإذا بامرأة أقبلت إلي، فقلت لها: يا غريبة! أنت ضالَّة؟.

قالت: كيف يكون غريباً من يعرفه؟ وكيف يكون ضالاً من يحبه؟.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥)، وأبو داود (٢/ ٧٨)، والترمذي (٥/ ٤٦٤)، وابن ماجة (٢/ ١٢٦٦)، وابن حبان (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٩٦، ٤٨٧)، ومالك في الموطأ (١/ ٢١٣)، ومعمر في جامعه (١٠/ ٤٤١).

ثم قالت: خذ رأس عصاي، تقدم بين يدي مشياً.

فأخذت رأس عصاها ومشيت بين يديها، سبعة أقدام، أقل أو أكثر، فإذا أنا في مسجد بيت المقدس، فدلكتُ عيني، قلت: لعلَّ هذا غلط مني.

فقالت: يا هذا! سيركَ سير الزاهدين، وسيري سير العارفين؛ فالزاهدُ يسير، والعارف يطير، وأنّى يلحق السيّار الطيّار؟ ثم غابت فلم أرها بعدها.

قال أبو عمران الواسطي رحمه الله: كنت راكباً البحر، إذ انكسرت السفينة، وبقيتُ أنا وامرأتي، فَوَلَدَتْ ولداً، فأرادت الماء، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا رجل جالس على الهواء، وفي يده رَكْوَةٌ من ياقوتة حمراء في سلسلة من ذهب، وقال: خذا! فسألته عن ذلك؟ فقال: تركتُ هوايَ، فأجلسني في الهواء.

وحكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى قال: قلت لأبي عاصم الربعي: كيف صنعت حين طلبك الحجاج؟.

قال: كنت في بيتي، فوقفوا على الباب ليدخل عليَّ الرسول، فصرت مدهوشاً، فإذا بيد أخذت بيدي وجرّتني قَدَماً أو أكثر، فنظرت فإذا أنا على جبل أبي قبيس.

من أطاع الله أطاعه كل شيء:

وحكي أن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه قال: مررت براع فقلت له: هل عندك شربة من الماء، أو من اللبن؟.

قال: أيهما أحب إليك؟ قلت: الماء.

قال: فضرب بعصاه حجراً صلداً لا صدع فيه، فانبجس منه الماء، فشربت منه وهو أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وبقيت متعجباً!.

فقال الراعي: لا تتعجب! فإن العبد إذا أطاع الله، أطاعه كلُّ شيء.

وكانت لرابعة البصرية سلة معلقة في بيتها، فكلما أرادت الطعام، ضربتْ بيدها إلى السلة، فوجدت فيها أي الطعام شاءت.

وقال شيخ الطائفة الحسن رضي الله عنه: خرج سلمان الفارسي رضي الله عنه من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء تسير في الصحراء، وطيور تطير في الهواء، فقال سلمان: ليأتني ظبي وطير سمينان، فقد جاءني ضيف أحب إكرامه، فجاء كلاهما.

فقال الرجل: سبحان الذي سخّر لك الطير في الهواء.

قال: أوَ تتعجب من هذا؟ هل رأيتَ عبداً أطاع الله، فعصاه الله؟!.

قال عبد الواحد بن زيد: بينما أنا وأيوب السختياني ـ رحمهما الله تعالى ـ نسير في طريق الشام، فإذا نحن بأسود أقبل إلينا، يحمل كارة حطب، فقلت: يا أسود! من ربُّك؟.

قال: ألمثلي تقول هذا؟! فرفع رأسه إلى السماء، وقال: إلَهي! حوِّلْ هذا الحطب ذهباً، فإذا هو ذهب! ثم قال: أرأيتم هذا؟ قلنا: نعم، قال: اللهم رُدَّه حطباً، فصار كما كان أولاً، ثم قال: سلوا، فإن العارفين لا تفنى عجائبهم.

فقال أيوب: بقيت خجلاً من العبد، واستحييت منه حياءً ما استحييت مثله قبل ذلك من أحد قط، ثم قلت: أمعك شيء من الطعام؟.

قال: فأشار، فإذا بين أيدينا جام فيه عسل، أشد بياضاً من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، قال: كلوا، فوالله الذي لا إلَه إلا هو، ليس هذا من بطن النحل؛ فأكلنا فما رأينا شيئاً أحلى منه، فتعجبنا!.

فقال: ليس بعارف من تعجب من الآيات، ومن تعجب فهو بعيد من الله، ومن عَبَدَهُ على رؤية الآيات فهو جاهل بالله. رحم الله ذلك الأسود، ما أعرَفه بالله؟!.

ـ وقد كنت حاجًا وأردت التلبية، فأخذت منديلاً لي فغسلته، وقطعته نصفين، ثم اتَّزرت بنصف، وارتديت بنصف آخر لحاجة، فإذا بهاتف يهتف:

انظر ما بين يديك! فنظرت فإذا البادية فضة كلها، فغمضتُ عينيَّ ومضيت، وقلت: اللهم إني أعوذ بك من كل إرادة سواك.

ـ وحكي أن رجلاً من العارفين فرغ من أعمال الحج وأركانه، ثم أخذ يحرم مرة أخرى، وقال: لبيك اللهُمَّ لبيك، فقيل له: يا هذا! إن وقت الحج والتلبية قد مضى، فقال: قد أحرمت من الوطن إلى زيارة البيت: والآن أحرمت من البيت إلى صاحب البيت، فقيل: هنيئاً لمن أحرم عن غيره.

ـ وحكي أن هرم بن حيان رحمه الله، قال: كنت أسير على شاطىء الدجلة، فإذا أنا برجل أقبل إليَّ وعليه سيما العارفين، فسلَّمت عليه، فقلت له: كيف حالك وشأنك؟ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] يا هرم بن حيان! اشتغل بما يعنيك، فقلت: رحمك الله! من أين عرفت اسمي واسم أبي؟ وما رأيتك قبل اليوم!.

فقال: أما عرفت أن العارفين يتعارف بعضهم بعضاً بنور المعرفة.

قال: فتعجبت من حسن فصاحته، وتحيرت من هيبته.

وقال ذو النون رضي الله عنه: بينما أنا أسير، فإذا أنا بقرية والناس يصيحون، فدنوت فإذا أسود يسخرون به! فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ذا النون! إعرف قَدْرَ الله، ولا تمنَّ على الله، فإن الحبيب لا يمنُّ على الحبيب.

فسألت عن حاله؟ قيل: إنه مجنون، لا يجالس الناس، ولا يأكل في أربعين يوماً إلاَّ أكلة واحدة، ثم نظر إلى السماء وقال:

يا غاية همم العارفين! إنْ عرفتُك فبمواهبك، وإن شكرتُك فبعصمتك.

الله معهم أينما كانوا:

وقال ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ أيضاً: بينما أنا أسير على شاطىء النيل، فإذا أنا بجارية منطلقة في النيل، وقد اضطربت أمواجه، وتقول: إلٓهي! ترى ما تفعل بي؟.

فقلت: يا جارية! أتشكين منه، وهو صاحب كل بر وفاجر!.

فقالت: يا ذا النون! أنت الذي إذا شكرتَ شكرتَ منه، وإذا سخطت سخطت عليه.

قلت: يا جارية! من أين عرفتِ اسمي وما رأيتني؟.

فقالت: عرفتك بنور معرفة الجبار.

فقلت لها: أتجدين وحشة للوحدة؟.

قالت: لا، والذي نوَّر قلبي بنور معرفته، ما سكن قلبي قط إلى غيره، فإنه مؤنس الأبرار في الخلوات، وصاحب الغرباء في الفلوات.

وقال جد والدتي العارف الواسطي رحمه الله: بينما أنا أمشي في البادية، إذ أعرابيٌّ جالس منفرداً، فدنوت منه وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، وأبى أن أُكلّمه.

فقال: اشتغل بذكر الله، فإن ذكر الله شفاء القلوب.

ثم قال: كيف يتفرغ ابن آدم من ذكره وخدمته، والموت في إثره، والله ناظر إليه؟! ثم بكى، وبكيتُ معه.

فقلت له: ما لي أراك فريداً وحيداً؟!.

قال: ما أنا بوحيد والله معي، وما أنا بفريد والله مؤانسي، ثم قام ومضى مسرعاً، وهو يقول: سيدي! أكثر خلقك مشغولون عنك بغيرك! وأنت عوض عن

جميع ما فات، يا صاحب كل غريب! ويا مؤنس كل وحيد! ويا مأوى كل فريد! وجعل يمر وأنا أتبعه، ثم أقبل إليّ وقال:

إرجع ـ عافاك الله ـ إلى من هو خير لك مني، ولا تشغلني عمن هو خير لي منك؛ ثم غاب عن بصري.

وحكي أن عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ قال: مررت براهب فسألته: منذ كم أنت في هذا المكان؟

فقال: منذ أربع وعشرين سنة. قلت: مَنْ أنيسك؟

قال: الفرد الصمد. قلت: منَ المخلوقين؟ قال: الوحش.

قلت: فما طعامك؟ قال: ذكر الله. قلت: من المأكول؟ قال: ثمار هذه الأشجار، ونبات الأرض.

فقلت: أما تشتاق إلى أحد؟ قال: نعم إلى حبيب قلوب العارفين. قلت: إلى المخلوقين؟

قال: من كان شوقه إلى الله، فكيف يشتاق إلى غيره؟ قلت: فلمَ اعتزلت عن الخلق؟ قال: لأنهم سرّاق العقول، وقطّاع طريق الهدى!

قلت: ومتى يعرف العبد طريق الهدى؟

قال: إذا هرب إلى ربه من كل ما سواه، واشتغل بذكره عن كل من سواه.

قال هرم بن حيان: رأيت أوس بن عامر ـ رحمه الله تعالى ـ فسلّمت عليه، فقال: وعليك السلام يا هرم بن حيان، فقلت: كيف عرفت اسمي واسم أبي؟

قال: عرفتْ روحي روحك بنور معرفة ربي، قلت: إني أحبك في الله.

قال: ما أظن أن أحداً يحب غير الله، فكيف يحب غير الله لله؟

قلت: أريد الصحبة معك، والأُنس بك.

قال: ما ظننت عارفاً يستوحش عن الله حتى يستأنس بغيره.

قلت: أوصني. قال: أوصيك بالله سبحانه، فإنه عِوَضٌ عن كل ما فاتك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: كنت أسير في بعض المفاوز فإذا أنا برجل متزر بحشيش، مرتد بحشيش، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، ثم قال: من أين الفتى؟ قلت: من مِصْرَ. قال: إلى أين؟ قلت: أطلب الأُنس بالمولى.

قال: اترك الدنيا والعقبى، يصح لك الطلب.

قلت: هذا كلام صحيح، صَحِّحْهُ لي. قال: أتتهمنا فيما نقول؟ وقد أُعطينا خيراً مما نقول، وهو: المعرفة.

قلت: ما أتهمك، ولكني أريد أن تزيدني نوراً على نور.

فقال: يا ذا النون! أُنظر فوقك [فنظرتُ] فإذا السماء والأرض كأنهما ذهب يتوقد ويتلألأ.

قال: أُغضض بصرك. [فغضضتُ] فصارتا كما كانتا!

فقلت: كيف السبيل إلى هذا؟ قال: تفرَّد بالفرد إن كنتَ له عبداً.

وقال محمد المقدسي رحمه الله: دخلت دار المجانين يوماً بالشام، فرأيت فيها شاباً على رقبته غل، وعلى رجليه قيد، مشدود بالسلسلة، فلما وقع بصره عليَّ، قال لي: يا محمد! أترى ما فعل بي؟ وأشار بطرفه نحو السماء؛ ثم قال:

جعلتك رسولاً إليه، أن تقول له: لو جعلت السموات غلاً على عنقي، والأرضين قيداً على رجلي، ما التفتُّ منك إلى غيرك طرفة عين، ثم أنشأ يقول:

عَلَى بُعْدِكَ لاَ يَصْبِرُ ... مَنْ عَادَتُهُ الْقُرْبُ
وَلاَ يَقْوَىٰ عَلَى قَطْعِـ ... ـكَ مَنْ تَيَّمَهُ الْحُبُّ
إِذَا لَمْ تَرَكَ الْعَيْنُ ... فَقَدْ أَبْصَرَكَ الْقَلْبُ[1]

* * *

---

(١) انظر في شرح حديث الباب: التمهيد لابن عبد البر (١٠/٢٩٦)، وشرح الزرقاني (٢/٤٨)، وعون المعبود (٤/٢٥٠)، وتحفة الأحوذي (٩/٢٣٣)، وفتح الباري (١١/١٤٠)، ومعتصر المختصر (٢/٢٤٣)، وشرح النووي (١٧/٥١)، وشرح ابن ماجة (١/٢٧٤)، وفيض القدير (٦/٤٦١).

الحديث السابع:

الله يرضى لكم ويكره لكم

حدثنا شيخنا المقري، الإمام الصالح القاضي: أبو الفضل علي الواسطي القرشي رضي الله عنه، قال: قرأت أنا وسديد الدولة محمد بن عبد الكريم، بن إبراهيم، بن عبد الكريم، بن عبد القاهر، بن زيد، بن رفاعة الشيباني، ويعرف بابن الأنباري علي أبي عبد الله، بن أحمد، بن عمر الحافظ، قلنا: أنبأك أبو الحسين أحمد بن محمد؟ فأقرَّ به، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الله الدقاق، عن يحيى بن محمد إسحاق بن شاهين، عن خالد بن عبد الله، عن سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله تَعَالَىٰ يرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاثاً، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثاً، فيرضىٰ لَكُمْ أنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ أمْرَكُمْ؛ وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المالِ»[1].

في هذا الحديث الشريف، من رقائق أحكام المعرفة بالله، ما يكفي العارف عن غيره، فإن الأسرار المطوية فيه، هي سُلَّمُ المصطفَيْن الأخيار إلى الله تعالى.

أي سادة! إن لله تعالى عباداً اصطفاهم لمعرفته، وخصهم بمحبته، واختارهم لصحبته، واجتباهم لمؤانسته، وقرَّبهم لمناجاته، وحرَّضهم على ذكره، وأنطقهم بحكمته، وأذاقهم من كأس محبته، وفضَّلهم على جميع خلقه، حتى لم يريدوا به بدلاً، ولا سواه كفيلاً، ولا دونه ناصراً ومعيناً ووكيلاً.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٣٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٠)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٠٤)، وابن حبان (٨/ ١٨٢)، (١٢/ ٣٦٦)، (١٣/ ٢٧)، وأبو عوانة (٤/ ١٦٥)، والبيهقي (٦/ ٦٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٢٧)، والروياني (٢/ ٩٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٧٦)، (٢٠/ ٢٢٦، ٣٨٤، ٣٨٩)، والقضاعي في الشهاب (٢/ ١٥٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١١٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٥٨).

ولقد سبقوا مَنْ دونهم سبقاً، لا بكثرة الأعمال، ولكن بصحة الإرادات، وحسن اليقين، مع دقائق الورع، والانقطاع بالقلب إليه، وتصفية السر عن كل ما دون الحق.

فأذاقهم الله طعم لباب معرفته، وأنزلهم في حظيرة قدسه، لا يصبرون عن ذكره، ولا يشبعون من برِّه، ولا يستريحون لغيره.

فيا طوبى لهم! هم الأقلون عدداً، والأعظمون خطراً، بهم يحفظ الله محبته، حتى يؤدوها إلى نظرائهم.

فيا طوبى لهم! هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون، والمشتاقون إلى ما هرب عنه الساهون، هم الذين نظروا بأعين القلوب، إلى حجب الغيوب، وجالت أرواحهم في الملكوت، فهمتهم في سرهم، وسرهم عند ربهم، به يستمعون، وبه ينظرون، وبه يريدون، وبه يتحركون، قلوبهم بحبها مستأنسة بأنسها.

قال أبو يزيد رحمه الله: الناس يصيحون من إبليس، وهو يصيح مِنّي!

قيل له: كيف هذا؟ والمصطفى عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالصياح منه، في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝﴾ [المؤمنون: ٩٧]؟

قال: لأن الله تعالى أمره في هذه الآية بالاعتصام به، وتفويض الأمر إليه؛ وفرقٌ بين الصياح من إبليس، وبين الاعتصام بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

قال ذو النون رحمه الله تعالى: للعارف نارٌ، ونورٌ؛ نار الخشية، ونور المعرفة؛ فظاهره محترق بنار الخشية، وباطنه منوّرٌ بنور المعرفة.

فالدنيا تبكي بعين الفناء عليه.

والآخرة تضحك بسنّ البقاء إليه!.

فكيف يقدر الشيطان أن يدنو منه ظاهراً وباطناً إلا كالبرق الخاطف؟ أو كالريح العاصف.

أتاه عارض مِنْ قِبَلِ العين أحرقته نار العَبْرة.

وإن أتاه من قِبَل النفس أحرقته نار الخدمة.

وإن أتاه من قِبَل العقل أحرقته نار الفكرة.

وإن أتاه من قِبَل القلب أحرقته نار الشوق والمحبة.

وإن أتاه من قِبَل السر أحرقته نار القرب والمشاهدة.

فتارة يحرق قلبه بنار الخشية، وتارة يتشفى بنور المعرفة؛ فإذا امتزجت نار الخشية ونور المعرفة، هاجت ريح اللطف من سرادقات الأُنس والقربة، فيظهر صفاء الحق للعبد، فتراها تلاشت الأنانية وبقيت الألوهية كما هو في الأزل.

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى: يفتح للعارف وهو نائم على فراشه، ما لا يفتح لغيره وهو في صلاته.

قال أبو يزيد رحمه الله: أدنى مقامات العارف أن يمر على الماء، ويطير في الهواء.

وأعلاها: أن يمر على الدارين، من غير أن يلتفت إلى من سواه.

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: دوران العارف مع محبوبه على أربعة أوجه:

١ ـ **سرور المعرفة**: وهو ممزوج برؤية حسن العناية.

٢ ـ **وحلاوة الخدمة**: وهو ممزوج بذكر المِنّة.

٣ ـ **وأنس الصحبة**: وهو ممزوج بلذائذ القربة.

٤ ـ **وخوف المفارقة**: وهو ممزوج بتحقيق كمال القدرة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: العارف بين البر والذكر، لا اللَّهُ يَمَلُّ من بِرِّه، ولا العارفُ يشبع من ذكره.

سُئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣]؟.

فقال: أضحك العارفين بسرور معرفته، ثم أبكاهم من خوف مفارقته؛ وأمات من شاء بسيف قطيعته، وأحيا من شاء بروح وصلته؛ ليعلم الخلائق: أنه فَعَّالٌ لِمَا يُريد.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: كيف يُحَاسَبُ المؤمنون العارفون؟

فقالت: ليس مع العارفين حساب، ولكن معهم عتاب.

وروي أن سليمان عليه الصلاة والسلام، نظر إلى مملكته يوماً، فأمر الله تعالى الريح حتى كشف عورته، فقال للريح: ردّي عليَّ ثوبي! فقال الريح: ردَّ قلبك إلى مكانه!.

فطوبى لأهل المعرفة، عرّفهم أنفسهم قبل أن يعرفوه، وأكرمهم قبل أن يعرفوا الكرامة.

أولئك أقوام أنفسهم روحانية، وقلوبهم سماوية، وهمومهم مرضية، وصدورهم جزعة، وقلوبهم خائفة، وأعينهم دامعة.

عقلوا فعلموا، ووجدوا فرحلوا، وانفتح لهم نور القلب.

لِلّهِ قَوْمٌ مُصْطَفَوْنَ لِنَفْسِهِ　　اخْتَارَهُمْ مِنْ سَالِفِ ٱلأَزْمَانِ

اخْتَارَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِطْرَةِ خَلْقِهِمْ　　فِيهِمْ وَدَائِعُ حِكْمَةٍ وَبَيَانِ[1]

* * *

(١) انظر في شرح الحديث: جامع العلوم والحكم (١/ ٧٨)، وفتح الباري (١/ ١٣٨)، والتمهيد (١٠/ ٢٩٥)، (٢١/ ٢٦٩، ٢٧٠)، وشرح الزرقاني (٤/ ٥٢٧)، والنووي على مسلم (١٢/ ١٠)، وتنوير الحوالك (١/ ٢٥٥)، والديباج للسيوطي (٤/ ٣١٨)، وفيض القدير (٢/ ٢٥٠، ٣٠١)، وتعليق التعليق (٢/ ٥٧).

الحديث الثامن:

حياء الوجه والقلب

أخبرنا الشيخ الصالح الثقة: أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، بن أحمد بن سلمان، قال: أنبأنا أبو عبد الله مالك، بن أحمد بن علي المالكي، قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي، قال: أنبأنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: أنبأنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، عن مالك، عن ابن شهاب الزُّهري، عن سالم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، مرَّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ مِنَ الإيمانِ»[1].

والحياء الذي يشمل الوجه من الناس أُنموذج عن الحياء الذي يشمل القلب من الله تعالى.

والحياء الشامل للوجه وللقلب: هو من الإيمان بالله، وهو طور العارفين بالله سبحانه وتعالى، الذين جعل قلوبهم عَيْبَةَ أسراره.

وكذلك فإن قلوب العارفين، خزائن الله في أرضه، وضع فيها ودائع سره، ولطائف حكمته، ودقائق محبته، وأنوار علمه، وأمانة معرفته.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٧)، ومسلم (١/ ٦٣)، والترمذي (٤/ ٣٦٥)، (٥/ ١١)، وأبو داود (٤/ ٢٥٢)، والنسائي (٨/ ١٢١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١٤٧، ٥٠١).

وانظر في شرحه: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٠، ٢٠١)، والفتح (١/ ٣٥، ٥٢، ٧٤، ٧٥)، (١٠/ ٣٣٨)، والتمهيد (٩/ ٢٣٢، ٢٣٤)، (٢١/ ١٤٢، ١٤٣)، وشرح الزرقاني (٤/ ٣٢٢، ٣٢٤)، وعون المعبود (١٣/ ١٠٥)، وتحفة الأحوذي (٤/ ١٦٧)، (٦/ ١٢٥)، (٧/ ٣٠٢)، وشرح النووي (٢/ ٥، ٦)، وتنوير الحوالك (١/ ٢١٢)، وشرح ابن ماجة (١/ ٧٣، ١٣٩)، والديباج للسيوطي (١/ ٥٣)، وفيض القدير (١/ ٤٥٩).

فكلامهم هو الكشف عما يشاهده القلب، وإظهار علوم السر، وبيان معاملة الضمير، من تمييز الانفصال عن الاتصال، وبيان الأسباب الشاغلة عن الحق، من الأسباب الداعية إلى الحق.

أما الداعي إلى الخَلْقِ: فالدنيا، والنفس، والخلق.

وأما الداعي إلى الحقِّ: فالعقل، واليقين، والمعرفة، كما ورد: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**»[1]. يعني من عرف ما لنفسه، عرف ما لربه.

وكلامهم يدور على خمسة أوجه: بِهِ، وله، ومنه، وإليه، وعليه.

وليس في كلامهم: أنا، وإني، ونحن، ولي، وبي.

لأن ألفاظهم فردانية، وحركاتهم صمدانية، وأخلاقهم ربانية، وإرادتهم وحدانية؛ لا يعرف إشارتهم إلا من له قلب حريق، فيه خزائن الأسرار، وجواهر القُدُس، وسرادقات الأنوار، وبحار الوداد، ومفاتيح الغيب، وأودية الشوق، ورياض الأُنس، فكلما أبرز العارف لسان الحكمة، من ينبوع المعرفة بإشارات: استأنس بها قلوب المريدين والمشتاقين.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: القلوب كالقدور، ومغارفها الألسن، فكل لسان يغرف لك ما في قلبه.

وقيل لأبي بكر الواسطي ـ رحمه الله تعالى ـ ما تقول في كلام أهل المعرفة؟.

فقال: إنَّ مثل المعرفة، كمثل سراج في قنديل، والقنديل معلّق في بيت، فما دام السراج في البيت، يكون البيت مضيئاً، وربما يفتح الباب فيقع ضوء السراج خارج البيت ويضيء.

كلام أهل المعرفة يقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فتصير أعينهم دامعة، وألسنتهم ذاكرة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المَائدة: ٨٣].

مَثَلُ نفس العارف كمثل البيت، ومثل قلبه كمثل القنديل، دهنه من اليقين،

(١) انظره في المصنوع للقاري (ص١٨٩)، وكشف الخفاء (٢/٣٤٣، ٣٤٤).

وماؤه من الصدق، وفتيله من الإخلاص، والزجاجة من الصفاء والرضاء، وعلائقه من العقل.

فالخوف: نار في نور، والرجاء: نور في نار، والمعرفة: نور في نور.

فالقنديل معلّق بباب الكَوَّة، إذا فتح العارف فاه بالحكمة التي في قلبه، هاج في كوَّة فمه نور من الأنوار التي في قلبه، فيقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فيتعلق النور بالنور.

وإن بعض القول أشد ضوءاً من النهار، وبعضها أشد ظلمة من الليل.

وكلام أهل المعرفة: كنز من كنوز الرب سبحانه، معادنه قلوب أهل المعرفة، أمرهم الله تعالى بالإنفاق منه على أهله في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

قيل لبعض العارفين: أي شيء أضوأ من الشمس؟ قال: المعرفة.

قيل: أي شيء أنفع من الماء؟ قال: كلام أهل المعرفة.

قيل: وأي شيء أطيب من المسك؟ قال: وقت العارف.

قيل: وما حرفة العارف؟ قال: النظر إلى صنع الربوبية، وأعلام لطائف القدرة.

مُراد الصالحين:

قيل لأبي سعيد البلخي رحمه الله تعالى: لِمَ كان كلام السلف، أنفع من كلام الخلف؟

قال: لأن مرادهم كان: عزُّ الإسلام، ونجاة النفوس، والشفقة على الإخوان، ورضا الرحمٰن.

ومرادنا: عز النفس، وثناء الناس وطلب التنعم في الدنيا!.

فالعبد إذا أطاع ربه، رزقه نهلة ـ أي شربة ـ من عين المعرفة، وأنطق بها لسانه؛ وإذا ترك طاعته لم يسلبها، ولكن أبقاها في قلبه، ولم ينطق بها لسانه، ليكون ذلك حسرة عليه، وابتلاء بأنواع المحن.

وما من مؤمِنَيْنِ يلتقيان، فيذكران الله، إلاَّ ويزيد الله تعالى في قلوبهما نورَ المعرفة، قبل أن يتفرقا.

إن الله تعالى أطلع أهل المعرفة، على تلاطم أمواج بحار خواطر القلوب، وأشْرَفَهُمْ على خزائن الأسرار، وبواطن العلوم التي لا يُحصىٰ عددها، ولا ينقطع مددها، ولا يُدْرَكُ قعرها، ولا يفنى عجائبها، حتى يغوصوا بنور المعرفة، في قعر بواطن إشاراتها المكنونة، في معانيها المخزونة فيستخرجوا عجائب فوائد ولطائف زوائد، وحقائق إشارات، يحترق منها قلوب المحبين، ويستأنس بها أرواح المريدين، وهي نور من أنوار الهداية، يهتدي به العبد إلى طريق حسن الرعاية، إذا أدركه من الحق: التوفيق والعناية.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: لقيت الحكماء فوجدت أكثرهم مفاليس! يفتحون من كيس غيرهم.

وكان لليث المصري ـ رحمه الله تعالى ـ أخ، وكان بالإسكندرية، فلما قدم إليه قال: إني كنت مقبلاً على ربي.

قال: فأين فوائد إقبالك على ربك؟ فسكت.

فقال الليث: العبد إذا أقبل على الله بصدق الوفاء، يمدُّهُ الله بفوائد لم تخطر على قلب بشر.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يتكلم ذات يوم، فصاح رجل في مجلسه، ومزق ثوبه، فقيل له: ما تقول فيه؟

قال: كلام أهل المعرفة، كلما نبع من عين سر الوحدانية، قرع قلب المحترق بنيران الشوق والمحبة، فتلاشت عن صاحبه صفات الإنسانية.

كلام المتقين بمنزلة الوحي.

وجرت كلمة على لسان بعضهم؛ فقيل له: من حدَّثك بهذا؟

قال: حدثني قلبي، عن فكري، عن سرِّي، عن ربِّي.

فإسناد الحكمة: وجودها، وهي ضالة المريد، حيث ما وجدها أخذها، فلا يبالي من أي وعاء خرجت، وبأي لسان نطقت، ومن أي قلب نُقلت، أو على أي حائط كُتبت، أو من أي كافر سُمعت.

قيمة الحكمة:

وقد ورد: «**من أراد أن يؤتيه الله علماً من غير تعلم، وهدى من غير هداية، فليزهد في الدنيا**»[١].

وإن للحكمة أهلاً وزماناً، وقد مضى زمنها والأكثرون من أهلها، وليس علينا إلا أثر المصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أُطلبوا مصابيح كلام العارفين قبل وفاتهم؛ نعمة اعرفوا شرفها، وكمال فضلها، وإنما اختار لقمانُ الحكمةَ لشرفها.

هي: برهان الصدِّيقين، ونزهة المتقين، وفردوس العارفين، وميراث النبيين والمرسلين؛ فاطلبوها قبل ذهابها.

مَصَابِيحُ الأنَامِ بِكُلِّ أرْضٍ   هُمُ الْعُلَمَاءُ أبْنَاءُ الْكِرَامِ
تَلألأ عِلْمُهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ   كَنُورِ الْبَدْرِ لاحَ بِلا غَمَامِ

* * *

(١) انظره في المصنوع (ص١٧٧)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٨٧).

الحديث التاسع:

عفو الله تعالى

أخبرنا العبد الصالح الثقة: أبو غالب عبد الله بن منصور - بجامع واسط - أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي، بن الحسين السلمي، قال: أنبأنا أبو الحسن بن أبي الفتح، الضرير العثماني، قال: أنبأنا عمر بن محمد المقري، قال: أنبأنا عبد الرحمٰن بن أحمد، بن الحجاج، قال: أنبأنا أحمد بن محمد، بن أبي الرجاء، قال: أنبأنا وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذرٍّ، رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنِّي لأعْلَمُ آخِرَ أهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَيُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، وعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِن كِبَارِ ذُنُوبِهِ أنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فإنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أشْيَاءَ لاَ أرَاهَا هاهُنَا! قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»[1].

ثُمَّ تلا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

هذا الإشفاق هو: شيء من أسرار اليقين بالله، وحال من سلطانه، يفرغه في قلوب أهل المعرفة به، ولهذا الحديث الشريف شأن جليل، ينبيء عن كرم إلٰهي فوق تعبير اللسان، يعرفه العارفون، ويزلق به الغافلون، ويزداد خوفاً من الله به الموفقون.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٠٥، ٢٧٢٨)، ومسلم (١/ ١٦٥، ١٧٣، ١٧٧)، وأحمد في المسند (١/ ٤٦٠) (٢/ ٢٧٥).

وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١١٨)، وفتح الباري (١١/ ٣١٤)، (١٣/ ٤٧٦)، والديباج (١/ ٢٣٢).

ألسنة العارفين:

أي سادة! من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة، فينبغي أن يحفظ أدب كلامه، فلا يكشف دقائقه إلا عند أهله، وأن لا يُحَمِّل المريد فوق طاقته، ولا يمنع كلامه من كان من أهله، ويكون كلامه مع أهل المعرفة: بلسان أهل المعرفة.

ومع أهل الصفا: بلسان الصفا.

ومع أهل المحبة: بلسان المحبة.

ومع أهل الزهد: بلسانهم.

ومع كل صنف: على قَدْرِ مراتبهم ومنازلهم، وقدْرِ عقولهم؛ فإن الله تعالى جعل للعارف هذه الألسن.

نعم؛ كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق، وينبغي أن لا يُحدِّث بحديث لا يبلغ عقل المستمع إليه، فيكون ذلك فتنة، فإن أكثر الناس جاهلون! اشتَغلوا بعلوم الظواهر، وتركوا علم تصحيح الضمائر، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين.

لأن كلماتهم لاهوتية، وإشاراتهم قدسية، وعباراتهم أزلية، فلذلك ينبغي للمستمع أن يكون معه السراج الأزلي، والنور الديمومي.

ويقال: لسان الحال، أفصح من لسان المقال؛ فمن رضي بالحال، دون وليِّ الحال، صار مخذولاً عن الحال ومحجوباً عن ذي الجلال!.

وأي دهشة أشد من دهشة العارف؟ إن تكلم عن حاله هلك! وإن سكتَ احترق، فمن ورد قلبه الحضرة كلَّ لسانه، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه.

قال ذو النون رحمه الله: ما رأيت محدِّثاً في قوم، يحدثهم بغفلة، إلاَّ كان ذلك قسوة.

وقال بعضهم: سكوت العارف حكمة، وكلامه نعمة.

ويقال: ليس على تحقيق في المعرفة، من يُحدِّثُ بحديث المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف أبناء الدنيا؟

ما تكلمتُ مع أحد من الناس، إلاَّ ودعوته إلى الله، ثم كلمته.

من لم يكن له حلاوة المعرفة، ورؤية المِنَّة، وشكر النعمة، ولذائذ القربة، وخوف المفارقة، وأُنس الصحبة، وإخلاص العبادة، وسرور الهداية، فليس له أن يتكلم بكلام أهل المعرفة، وإن تكلم فلا يحمِّل فوق الطاقة، ولا يمنع أهل الحاجة، ولا يضيِّع أهل الغفلة.

وحكي أن رجلاً جاء إلى عارف، قال: حدثني!.

فقال: إن مثلي معك، كرجل وقع في القاذورات، فذهب إلى العطار، وقال: أين الطيِّب؟.

فقال العطار: اذهب اشترِ الأشنان (ما يغسل به)، واغسل نفسك ولباسك، ثم تعال فتطيَّبْ!.

وكذلك أنتَ، لطَّخْتَ نفسك بأنجاس الذنوب؛ فخذ أشنان الحسرة، وطين الندامة، وماء التوبة والإنابة، وطهر ظواهرك في إجَّانة (أي إناء) الخوف والرجاء، من أنجاس الجُرم والجفاء، ثم اذهب إلى حمام الزهد والتقى، واغسل نفسك بماء الصدق والصفاء؛ ثم ائتني حتى أطيِّبَك بعطر معرفتي!.

قال بعض الناس لعارف: إني لا أعرف كلامكم! قال: كلام الأخرس لا يعرف إلاَّ أمه.

ومن كلام عيسى عليه الصلاة والسلام: «يا صاحب الحكمة! كن كالطبيب الناصح، يضع الدواء حيث ينفع، ويمنع الدواء حيث يضر.

لا تضع الحكمة في غير أهلها فتكون جاهلاً، ولا تمنعها من أهلها فتكون ظالماً، ولا تكشف سرك عند كلِّ أحد، فتصير مفتضحاً.

وقال ذو النون رحمه الله: رأيت رجلاً أسود يطوف حول البيت، ويقول: أنت، أنت، أنت! ولا يزيد على ذلك اللفظ شيئاً.

فقلت: يا عبد الله! أي شيء عنيتَ به؟ فأنشأ يقول:

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ ... خَطٌّ وَلاَ قَلَمٌ عَنْهُ فَيَحْكِيهِ

نَارٌ تُقَابِلُهُ أُنْسٌ يُمَازِجُهُ ... نُورٌ يُخَبِّرُهُ عَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ

شَوْقِي إِلَيْهِ وَلاَ أَبْغِي بِهِ بَدَلاً ... هٰذِي سَرَائِرُ كِتْمَانٍ تُنَاجِيهِ

* * *

الحديث العاشر:

رسول الله أول من يدخل الجنة

أخبرنا الشيخ: أبو طالب محمد بن علي، عن أبي القاسم علي بن أحمد الرزاز، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن مخلد - في سنة ثماني عشرة وأربعمائة - قال: أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا الحسن بن عرفة العبدي، قال: أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«آتِي يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ بَابَ ٱلجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لاَ أَفْتَحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»[1].

قد علم أهل العلم بالله، أن الجنة التي هي باب الخير الإلّهي الأبدي، لا تُفتح إلاّ بفتح محمد ﷺ لها، فهو الفاتح لكل خير دنيوي وأخروي، والعِلم بشأنه هو سر العلم بالله تعالى، فمن أراد أن يفتح له أبواب الخير الدنيوي والأخروي، فعليه أن يتعالق بأذياله، فإن في نفحاتها: علم المعرفة.

حقيقة علم المعرفة:

أي سادة! علم المعرفة، هو العلم بالله تعالى، وهو نور من أنوار ذي الجلال، وخصلة من أشرف الخصال، أكرم الله به قلوب العقلاء، فزيّنها بحسن جماله، وعظيم شأنه، وخصّ به أهل ولايته ومحبته، وفضّله على سائر العلوم، وأكثر الناس عن

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٨٨)، وأبو نعيم في مستخرجه على مسلم (١/ ٢٧١)، وأبو عوانة كذلك (١/ ١٣٨)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٦)، والبغوي في مسند الحب بن الحب (ص١٣١)، وعبد بن حميد (١/ ٣٧٩)، وابن مندة في الإيمان (٢/ ٨٣١)، وابن المبارك في الزهد (١/ ١٢٠) بروايات متقاربة عن أنس، وأسامة مرفوعاً.

شرفه غافلون، وبلطائفه جاهلون، وعن عظيم خطره ساهون، وعن غوامض معانيه لاهون، فلا يدركه إلاَّ أرباب القلوب الموفقون.

وهذا العلم: أساس، بنيت عليه سائر العلوم؛ به ينال خير الدارين، وعز المنزلين.

وبه يعرف العبد عيوب نفسه، ومنن ربه، وجلال ربوبيته، وكمال قدرته.

به يطير سر العبد بجناح المعرفة، في سرادقات لطائف القدرة، ويجول حول منتهى العزة، ويرتع في روضات القدس، فلا تتم العلوم كلها دون امتزاج شيء منه بها، ولا تفسد الأعمال إلا بفقده، ولم تسكن إليه إلاَّ قلوبٌ نظر الله إليها: بالرأفة والرحمة، وأمطر عليها أمطار الفهم والبلاغة، وطيبها برياحين اليقين والفطنة، وجعلها موضع العقل والفراسة، وطهّرها من أدناس الجهالة والغفلة، ونوَّرها بمصابيح العلم والحكمة، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجَادلة: ١١].

وكل عارف يخشى الله تعالى ويتقيه، على مقدار علمه بالله عزّ وجل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

بنوره يعرف وساوس الشيطان، الدافعة إلى المعاصي والزلأت، ويحذر به آفات الإرادات.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُمَر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠].

وفي الخبر: إن من العلم كهيئة المكنون المخزون، لا يعرفها إلا أهل العلم بالله، ولا ينكرها إلا أهل الغِرّة (الغفلة).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العلم بالله».

أفضل العباد:

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: «يا رب! أي العباد أكثر حسنة، وأرفع درجة عندك؟ قال: أعلمهم بي».

وقال الإمام الجليل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرّم الله وجهه: «أعلم الناس بالله، أشدهم تعظيماً لحرمة: لا إلَه إلاَّ الله».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «من ازداد بالله علماً، ازداد وَجَلاً».

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: «أن يا داود! تعلم العلمَ النافع. قال: إلٰهي! وما العلم النافع؟ قال: أن تعرف جلالي، وعظمتي، وكبريائي، وكمال قدرتي على كل شيء، فإن هذا الذي يقربك إليَّ، وإني لا أعذر بالجهالة من لقيني».

وقيل لمحمد بن الفضل السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ ما العلم بالله؟.

قال: أن ترى قضاءه في الخلق مُبْرَماً، والضرَّ والنفعَ والعزَّ والذلَّ منه.

وترى نفسك لله؛ والأشياء كلها في قبضته؛ وأن لا تختار لنفسك غير اختياره؛ وتعمل لله خالصاً.

يا بني! اجتهد في تعلم علم السر، فإن بركته كثيرة، أكثر مما تظن.

يا بني! من تعلم علم العلانية دون علم السر (وهو ملاحظة الخالق تعالى)، هلك وهو لا يشعر.

يا بني! إن أردت أن يكرمك الله بعلم السر! فعليك ببغض الدنيا، واعرف حرمة الصالحين، وأحكم أمرك للموت.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طٰه: ١١٤] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] إلا أنه قال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فرُبَّ رجل كثير الروايات جاهل بالله.

إن علم المعرفة: فضل من الله، يؤتيه من اصطفاه من خلقه، واجْتباه لصحبته.

جاء في الخبر: العلم علمان: علم باللسان، وهو حجة الله على العباد، وعلم القلب، وهو العلم الأعلى، لا يخشى العبد من الله إلاَّ به.

وقال ﷺ: «أشدكم لله خشية أعلمكم بالله».

درجات العلماء:

وقال سفيان الثوري رحمه الله: العلماء ثلاثة:

١ ـ عالم بأمر الله، غير عالم بالله؛ فذلك العالم الفاجر، الذي لا يصلح إلاَّ للنار!.

٢ ـ وعالم بالله، غير عالم بأمره؛ فذلك ناقص!.

٣ ـ وعالم بالله، وبأمره به؛ فهو العالم الكامل.

قيل لبعض العارفين: ما سبيل معرفة الله؟ قال: ليس يُعرف بالأشياء؛ بل تُعرف الأشياء به، كما قال ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله.

وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: إلهي! لولا أنت، كيف كنتُ أعرف من أنت.

ومثله عن رابعة العدوية، قالت لذي النون ـ رحمهما الله تعالى ـ كيف عرفتَ الله؟

قال: رزقني الحياء، وكساني المراقبة، فكلما هممت بمعصية ذكرتُ جلال الله، فاستحييت منه.

مثل المعرفة:

مَثَلُ المعرفة، كشجرة لها ستة أغصان، أصلها ثابت في أرض اليقين والتصديق، وفرعها قائم بالإيمان والتوحيد.

فأول أغصانها: الخوف، والرجاء، مقرونان بغصن الفكرة.

والثاني: الصدق، والوفاء، مقرونان بغصن الإخلاص.

والثالث: الخشية، والبكاء، مقرونان بغصن التقوى.

والرابع: القناعة، والرضا، مقرونان بغصن التوكل.

والخامس: التعظيم، والحياء، مقرونان بغصن السكينة.

والسادس: الاستقامة، والوفاء، مقرونان بغصن الود والمحبة.

ويتشعب من كل غصن ما لا نهاية له في العدد من أنواع الخير، والصدق في المعاملة، وأنس الصحبة، وفرائد القربة، وصفاء الوقت، وغير ذلك مما لا يصفه الواصفون.

وعلى كل شعبة من ثمار شتى، لا يشبه لون أحدها الآخر، ولا طعمها، تحتها أنوار التوفيق، جارية من ينبوع الفضل والعناية، والناس في ذلك على تفاوت الدرجات، وتباين الحالات.

فمنهم: من أخذ بفرعها، غافل عن أصلها، محروم من أغصانها، محجوب عن حلاوة ثمارها.

ومنهم: من تمسك بفروعها.

ومنهم: من أخذ بأصلها، وأخذ كلها من غير أن يلتفت إلى كلها، لانفراده بوليِّه خالقها؛ ومن لم يكن له نور من سراج التوفيق، ولو جمع الكتب والأخبار، والأحاديث كلها، لا يزداد إلا بُعداً ونفوراً، كمثل الحمار يحمل أسفاراً!

يقال: إن رجلاً جاء إلى الإمام عليٍّ عليه السلام فقال: علِّمني من غرائب العلم!

قال: ما فعلتَ في رأس العلم؟ قال: وما رأس العلم؟ قال: أعرفتَ ربك؟ قال: نعم. قال: ما فعلتَ في حقه؟ قال: ما شاء الله.

قال: انطلق فأحكم هذا، فإذا أحكمته فأْتني أعلمك غرائب العلم.

قيل: الفرق بين علم المعرفة وغيرها، كالفرق بين الحيِّ والميت[1].

* * *

(١) انظر: البيان والتعريف للحسيني (١/ ٥)، وفيض القدير (١/ ٣٧).

الحديث الحادي عشر:

المرء في ظل صدقته

أخبرنا شيخنا الإمام المقري الجليل الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي قدّس الله روحه، قال: أنبأنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد الواعظ، قال: أنبأنا أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمٰن الجمحي، قال: أنبأنا علي بن عبد العزيز، عن ابن المبارك، عن حرملة بن عمران، عن يزيد بن أبي جندب، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْمَرْءُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ـ أَوْ قَالَ: ـ يُحْكَمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»[1].

هذا لكونه ترك شيئاً قليلاً من ما تحبه نفسه لربه، فكيف إذا خرج عن نفسه بالكلية؟.

روي أن الله تبارك وتعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: «بشر المذنبين بأني غفور، وأنذر الصِّدِّيقين بأني غيور».

وروي أن يوسف عليه الصلاة والسلام: لما أُلقي في الجب، كان يقول: من لعب في خدمة مولاه، فغيابة الجب مأواه!.

من أقوال العارفين:

وهنا كلمات من طرائف مختصرات القوم، تنشط بها همم الموفقين، يقول قائلهم رضي الله تعالى عنهم:

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٥٧٦)، وابن حبان (٨/ ١٠٤)، وابن خزيمة (٤/ ٩٤)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٧٧)، وأحمد في المسند (٤/ ١٤٧)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٢٢٧)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٠، ٢٨٦)، والقضاعي (١/ ٩٤، ١١٣)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨١).
وانظر: التمهيد (٢٣/ ١٧٥)، وشرح الزرقاني (٤/ ٤٣٦)، وفيض القدير (٢/ ٣٦٣)، (٥/ ١٢)، وكشف الخفاء (١/ ٥١٠)، وتحفة المحتاج (٢/ ٣٤٧)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٣٩).

حق لمن عرف المولى، أن لا يشكو من البلوى، إذا لم يعرف العبد المولى، فكل لسان له دعوى، ليس للعارف دعوى، ولا للمحب شكوى.

إذا سبقت من الربِّ العناية، هُزمت من العبد الجناية.

إذا سبقت العناية، وجبت الولاية، بالعناية تحصل الولاية، والولاية تهدم الجناية.

ليس الشأن في الولاية، لكن الشأن في العناية، لم يدرك الولاية من فاتته العناية؛ المصِرُ من أسر السر؛ طرح الخلق وجودُ الحق؛ اطرح الدعوىٰ تجد المعنى.

من كان له باطن صحيح، فجميع كلامه مليح.

لا تغتر بصفاء الأوقات، فإن تحتها فنون الآفات.

لا تغتر بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية.

خلِّ الدارَيْنِ للطالبين؛ واستأنس برب العالمين.

استهد بالله، فنعم الدليل؛ وتوكل عليه، فنعم الوكيل.

ما دام قلب العبد بغير الله معلقاً، كان باب الصفاء عنه مغلقاً.

الأُنس بالله نور ساطع، والأُنس بالمخلوق هَمٌّ واقع.

معدن الأسرار، قلوب الأبرار؛ قلوب الأبرار حصون الأسرار.

القلب إذا ابتلي بالمربوب؛ عزل عن ولاية المحبوب.

خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي.

توكل تكف، وسل تعط؛ ليس باللبيب من اختار على الحبيب؛ بقدر ما تتعنَّىٰ، تنال ما تتمنى.

العبد إذا سخط عليه مولاه، سخط عليه ما سواه.

وإذا رضي عنه مولاه، رضي عنه ما سواه.

عذر الحبيب عند الحبيب مبرور، وذنب الحبيب عند الحبيب مغفور.

من أراد المولى، فليتهيأ للبلوى:

هَـوِّنْ ٱلـدُّنْـيَـا وَمَـا فِـيـهَـا عَـلَـيْـكَ   وَٱجْـعَـلِ ٱلـحُـزْنَ لِـمَـا بَـيْـنَ يَـدَيْـكَ

الموت جسر مهيب، يوصل الحبيب إلى الحبيب، ينبغي أن يكون العبد مشغولاً، بما يكون غداً عنه مسؤولاً، اجعل التقيَّ جليسك، والدعاء أنيسك.

أَلاَ كُـلُّ شَـيْءٍ مَـا خَـلاَ الـلَّـهَ بَـاطِـلُ   وَكُـلُّ نَـعِـيـمٍ لاَ مَـحَـالَـةَ زَائِـلُ

الحب يُحْرِق، والشوق يُقلق، هذا سرور الخبر، فكيف سرور النظر؟

كل نعمة دون الجنة فانية، وكل بلاء دون النار عافية.

التوبة تطهر الحوبة؛ الاعتراف يهدم الاقتراف.

هَبْ أنَّ الله قد عفا عن المسيئين، أليس قد فاتهم ثواب المحسنين؟.

أعِدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً.

أُطلب ما يعنيك، بترك ما لا يعنيك.

الرزق مقسوم، والحريص محروم؛ العبد حر إذا قَنِع، والحر عبد إذا طَمع؛ أخرج الطمع من قلبك، تحل القيد من رجلك، قدم إلى الحشر زادك، فإن إلى الله معادك.

الدنيا دنية، وحبها خطية؛ الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة.

الدنيا كلها غرور، والعقبى كلها سرور؛ الدنيا معدن الخطأ، والعقبى معدن العطاء.

الدنيا معدن الجفاء، والعقبى معدن الوفاء.

أساس التقوى ترك الدنيا؛ أخوف الناس آمنهم.

ما أغفلك عما خُلقتَ له؟ وما أعجزك عما أمرت له؟ منعك طول الأمل، عن ذكر الأجل! لا تعص مولاك بطاعة هواك.

رأس الوفاء: ترك الجفاء، إن أردت المكارم: فاجتنب المحارم؛ قليل يكفيك، خير من كثير يُطغيك.

المؤمن: كثير الفعال، قليل المقال.

والمنافق: قليل الفعال، كثير المقال.

اتَّقِ الله إذا خلوت، يستجبْ لك إذا دعوت.

غضَبُ الله أشد من ناره، ورضوانه أكبر من جنته، دع التدبير إلى الملك الخبير.

طلب الحلال، أشد من نقل الجبال.

كل همّ وذكر لغير الله، فهو حجاب بينك وبين الله؛ لا تقع المؤانسة بين العبد وبين ربه، حتى تقع الوحشة بينه وبين خلقه.

لا يصل العبد إلى الحق، حتى يعتزل عن صحبة الخلق؛ حسبي من سؤالي، علمه بحالي.

كُلُّ مَحْبُوبٍ سِوَىٰ ٱللَّهِ سَرَفْ وَعَنَاءٌ وَبَلاَءٌ وَتَلَفْ
وَهُمُومٌ وَغُمُومٌ وَأَسَفْ مَا خَلاَ ٱلرَّحْمٰنَ مَا عَنْهُ خَلَفْ

ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها!

دُرْتُ حَوْلَ الْمَشْرِقَيْنِ ثُمَّ دُرْتُ الْمَغْرِبَيْنِ
فَوَجَدْتُ الأَمْرَ كُلاً لِمَلِيكِ ٱلثَّقَلَيْنِ
حُبُّهُ مُنْيَةُ قَلْبِي ذِكْرُهُ قُرَّةُ عَيْنِي

* * *

الحديث الثاني عشر:

العارفون مظاهر رحمة رب العالمين

أخبرنا الشيخ الجليل المقري العارف بالله، خالي: أبو بكر الأنصاري الواسطي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: أنبأنا أبو القاسم منصور بن النعمي، قال: أنبأنا أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي، قال: أنبأنا أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي، قال: أنبأنا أبو حامد أحمد بن محمد بن بلال البزاز، قال: أنبأنا عبد الرحمٰن بن بشر بن الحكم، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمر بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إرْحَمُوا مَنْ فِي الأرضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

هذا الحديث الشريف، فيه من أسرار العلم بالله العجائب، أمَرَ به المصطفى ﷺ بالرحمة لمن في الأرض من المخلوقين، لتحصل بذلك الرحمة للعبد من كل من في السماء من العُلْويين، فإن السماء طريقُ تنزلِ الرحماتِ الربانية، ومحل أُنبوب الإفاضات الرحموتية، ومقر الملائكة الذين جعلهم الله وسائط أسراره بينه وبين خلقه.

فإذا ألقى الرحمة في سر ملك الرزق [أعان] طالب الرزق.

وإذا ألقاها في سر كاتب الأعمال، أنساه السيئات.

وإذا ألقاها في سر الرقيب، أعان ورفق.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٨٥)، والترمذي (٤/ ٣٢٣)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحميدي (٢/ ٢٦٩)، والحاكم (٤/ ١٧٥)، والبيهقي (٩/ ٤١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٩٤)، والكنى (ص٦٤).

والرحمة حال العارف، ومعراج قلبه إلى ربه، وإن عباد الله العارفين، مظاهر لرحمة رب العالمين في المخلوقين، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

أي بني! إذا تحققتَ بالرحمة للمخلوقين رُحمتَ، وإذا جالست العارفين نجحت، وإذا سألت الحكماء الربانيين تعلمت.

أي بني! اعلم أن لكل شيء مفتاحاً، ومفتاح العلم السؤال، فإن قدر المريد على أن يجالس أهل المعرفة، فيقتبس من علمهم، وتحقيق رمزهم، ولطائف إشاراتهم، فبخ، بخ، فإن شرف العلماء الربانيِّين، أكبر من أن يدركه أحد غير الله، لأنهم أحبَّاءُ الله، وأمناء سره.

فليغتنم حرمتهم، وليحرك خواطرهم بحسن السؤال، فإن أمواج خواطر العارفين لا تفنى عجائبها؛ وكفى للمرء جهلاً إمساكه عن التعلم، واستكفاؤه بما عنده! وقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال النبي ﷺ: «**جَالِسُوا الْكُبَرَاءَ، وَسَائِلُوا الْعُلَمَاءَ، وَخَالِطُوا الْحُكَمَاءَ**».

أدب طلب العلم:

قال ذو النون رحمه الله تعالى: وُصف لي رجل بالمغرب، فارتحلتُ إليه، فوقفت عنده أربعين صباحاً، فلم أجد وقتاً أقتبس به من علمه شيئاً، لكمال شغله بربه؛ ولم أترك الحرمة، فيوماً من الأيام نظر إليّ فقال:

من أين المرتحل؟ فأخبرته ببعض حالي، قال: بأي شيء جئت؟ قلت: لأقتبس من علمك.

قال: اتَّقِ الله، واستعن به، وتوكل عليه، فإنه وليٌّ حميد؛ وسكت.

فقلت: زدني، رحمك الله! فإني رجل غريب، جئتك من بلد بعيد، لأسألك عن أشياء اختلجت في ضميري.

فقال: أمتعلم، أم عالم، أم مناظر؟

فقلت: بل متعلم محتاج.

قال: قف في درجة المتعلمين، واحفظ الأدب، ولا تتعد! فإنك إن تعدَّيْتَ فسد عليك النفع.

العقلاء من العلماء، والعارفون من الأصفياء، الذين سلكوا سبيل الصدق، وقطعوا أودية الحزن، ذهبوا بخير الدارين.

فقلت: رحمك الله! متى يبلغ العبد إلى ما وصفت؟

قال: إذا كان خارجاً من الأسباب.

قلت: ومتى يكون العبد كذلك؟

قال: إذا خرج من الحول والقوة.

قلت: وما نهاية العارف؟

قال: أن يصير بالكلية كالمعدوم عند وجوده.

قلت: ومتى يبلغ إلى مرتبة الصدِّيقين؟

قال: إذا عرف نفسه.

قلت: متى يعرف نفسه؟

قال: إذا صار مستغرقاً في أبحر المِنَّة، وخرج من أودية الأنانية، وقام على قدم ياسينية.

قلت: ومتى يبلغ العبد إلى ما وصفته؟

قال: إذا جلس على مركب الفردانية.

قلت: وما مركب الفردانية؟

قال: القيام بصدق العبودية.

قلت: وما صدق العبودية؟

قال: العمل لله تعالى، والرضا بالقضاء.

قلت: أوصني.

قال: أوصيك بالله.

قلت: زدني.

قال: حسبك!.

قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله: رأيت رجلاً في بعض أسفاري، وعليه ثوب من الشعر، فسلَّمت عليه، قلت: رحمك الله! أسألك مسألة؟

قال: أوجز! فإن الأيام تمضي، والأنفاس تُعد وتحصى، والربُّ مطَّلع يسمع ويرى.

قلت: ما رأس التقوى؟ قال: الصبر مع الله تعالى.

قلت: ما رأس الصبر؟ قال: التوكل على الله.

قلت: وما رأس التوكل؟ قال: الانقطاع إلى الله.

قلت: وما رأس الانقطاع؟ قال: الانفراد لله.

قلت: وما رأس الانفراد؟ قال: التجريد عما دون الله.

قلت: ما ألذ الأشياء؟ قال: الأنس بذكر الله.

قلت: ما أطيب الأشياء؟ قال: العيش مع الله.

قلت: ما أقرب الأشياء؟ قال: اللحوق بالله.

قلت: أي شيء أوجع للقلب؟ قال: فراق الله.

قلت: ما همة العارف؟ قال: لقاء الله.

قلت: ما علامة المحب؟ قال: حبُّ ذكر الله.

قلت: ما الأنس بالله؟ قال: استقامة السر مع الله.

قلت: ما رأس التفويض؟ قال: التسليم لأمر الله.

قلت: وما رأس التسليم؟ قال: ذكر السؤال عند الله.

قلت: ما أعظم السرور؟ قال: حسن الظن بالله.

قلت: مَنْ أعظم الناس؟ قال: من استغنى بالله.

قلت: مَنْ أقوى الناس؟ قال: من استقوى بالله.

قلت: مَنْ المغبون؟ قال: من رضي بغير الله.

قلت: ما المروءة؟ قال: ترك النزول بدون الله.

قلت: متى يكون العبد مبعداً من الله؟ قال: إذا صار محجوباً عن الله.

قلت: متى يكون محجوباً عن الله؟ قال: إذا كان في قلبه هَمٌّ غير الله.

قلت: ومَنْ الغُمْرُ ـ أي الغافل ـ؟ قال: من أنفق عمره في غير طاعة الله.

قلت: ما الزهد في الدنيا؟ قال: ترك كل شيء يشغل عن الله.

قلت: مَنِ الْمُقْبِلُ؟ قال: من أقبل على الله.

قلت: ومَنْ المُدْبِر؟ قال: من أدبر عن الله.

قلت: ما القلب السليم؟ قال: الذي لم يكن فيه سوى الله.

قلت: أخبرني من أين تأكل؟ قال: من خزائن الله.

قلت: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

قلت: أوصني! قال: اعمل بطاعة الله، وارض بقضاء الله، واستأنس بذكر الله، تكن من أصفياء الله.

لا يعصي الله من يعرفه:

* قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: كنت في بعض سياحتي، فإذا بشيخ، وفي وجهه سيما العارفين.

قلت: رحمك الله! ما الطريق إليه؟ قال: لو عرفتَه لوجدت الطريق إليه.

قلت: أوَ هل يعبده من لا يعرفه؟! قال: أوَ هل يعصيه من يعرفه؟!.

قلت: أليس آدم عصاه مع كمال معرفته؟! قال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ثم قال: يا هذا! دع الاختلاف والخلاف.

قلت: أليس في اختلاف العلماء رحمة؟ قال: نعم، إلاّ في تجريد التوحيد.

قلت: وما تجريد التوحيد؟ قال: فقدان رؤية ما سواه لوحدانيته.

قلت: وهل يكون العارف مسروراً؟ قال: وهل يكون العارف محزوناً؟.

قلت: أليس من عرف الله طال همُّه؟ قال: بل من عرف الله زال همُّه.

قلت: وهل تُغيِّر الدنيا قلوب العارفين؟ قال: وهل تغيِّر العقبى قلوبهم؟

قلت: أليس من عرف الله، صار مستوحشاً من الخلق؟ قال: معاذ الله أن يكون العارف مستوحشاً، ولكن يكون مهاجراً ومتجرداً.

قلت: وهل عرفه أحد؟ قال: وهل جهله أحد؟

قلت: وهل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ قال: أوَ هل يعرف غير الله، [حتى] يتأسف عليه؟.

قلت: وهل يشتاق العارف إلى ربه؟ قال: أوَ هل يكون غائباً عن العارف حتى يشتاق إليه؟

قلت: وما اسم الله الأعظم؟ قال: أن تقول: الله.

قلت: كثيراً ما قلت، ولم يداخلني الهيبة! قال: لأنك تقول من حيث أنتَ، لا من حيث هو!

قلت: عظني، قال: حسبك من المواعظ، علمك بأنه يراك. فقمت من عنده.
وقلت: ما تأمر؟ قال: كفى باطلاعه عليك في جميع أحوالك!.

لذة العيش مع الله:

* سُئل يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ ما علامة القلب الصحيح؟

قال: الذي هو من هموم الدنيا مستريح.

قيل: وما القوت؟ قال: ذكر حيٍّ لا يموت.

قيل: وما صدق الإرادة؟ قال: ترك ما عليه العادة.

قيل: وما الشوق؟ قال: ملاحظة ما فوق.

قيل: متى يتم أمر العبد؟ قال: إذا سكن مع الله بِلاَ هَمٍّ.

قيل: وما علامة المريد؟ قال: أن لا يشتغل بالعبيد.

قيل: وما رأس الهدى؟ قال: صدق التقى.

قيل: وما اللذة؟ قال: الموافقة.

قيل: ومَنِ الغريب؟ قال: الذي ليس له من حبه نصيب.

قيل: ومتى يبلغ العبد إلى ولاية مولاه؟ قال: إذا عزل عن قلبه كل من سواه.

قيل: وما الراحة الكبرى؟ قال: التسليم للمولى.

قيل: وما أفضل الأعمال؟ قال: ذكر الله على كل حال.

قيل: وما الفاقة العظمى؟ قال: دوام الأنس بالمولى.

قيل: وما حجاب القلوب؟ قال: الاستكفاء بالمربوب.

قيل: وما العيش الجميل؟ قال: العيش مع الجليل.

قيل: وما حقيقة الوفاء؟ قال: الصدق والصفاء.

قيل: ومَنِ المحبُّون؟ قال: العارفون.

قيل: ومَنِ العزيز؟ قال: من تعزَّز بالعزيز.

قيل: ومَنِ الشريف؟ قال: من أنس باللطيف.

قيل: ومَنِ الغُمْرُ؟ قال: من ضيّع العمر.

قيل: ما الدنيا؟ قال: ما شغلك عن المولى!.

* نعم معدن المعرفة القلب، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومعدن المشاهدة الفؤاد، لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١].

ومعدن النور الصدر، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما ازداد حباً لله تعالى، إلاَّ ازداد حباً لرسوله ﷺ، ولأوليائه[١].

* * *

(١) انظر في شرح الحديث: فتح الباري (٣/ ١٥٨)، (١٣/ ٣٥٩)، وفيض القدير (٣/ ٨).

الحديث الثالث عشر:

المرء مع من أحب

أخبرنا الشيخ الجليل، الوليُّ الأصيل، فرد الوقت: أبو المكارم، الباز الأشهب خالي وسيدي منصور، الرباني، الأنصاري، البطايحي، رضي الله عنه، برواقه في نهر دقلى، قال: حدثنا أبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني، قال: أنبأنا أبو عمرو عثمان بن محمد العلاف، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن سليمان ـ إملاء ـ قال: قرأ عليَّ يحيىٰ بن جعفر بن أبي طالب، وأنا أسمع، قال: حدثنا محمد بن عبيد بن الأعمش، عن شقيق، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرَّجلُ يحبُّ القومَ ولا يلحقُ بهِمْ. قالَ: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1].

هذا الحديث الشريف، ملزم بمحبة العارفين، مبشر بالإلحاق بهم، إذا صحت المحبة؛ وهل الدينُ إلاَّ الحبُّ في الله، والبغض في الله؟ وإنَّ من سر الحب الخالص: أن يُرفع العارفُ إلى مقام السر والنجوى، في المحاضرة عند سواه.

أي بني! اعلم أن العارف بأسرار المريدين، المطلع على همم العارفين، كلَّف العبادَ وفاء صدق العبودية، ثم بيَّن لهم تحقيق شرائطها، كيلا يتجاوزوا حدَّ العبودية، إلى حد الربوبية؛ وحدَّ الفقر، إلى حدِّ الغنىٰ، قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وجعل لكل شيء سبباً، فجعل سبب المخرج من عبودية المخلوقين: القيام بصدق العبودية، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطّلَاق: ٢] من عبودية

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢)، وأحمد في المسند (١/ ٣٩٢)، (٣/ ١٠٤، ١١٠).
وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٥، ٥٥٩)، وشرح الزرقاني (٤/ ٢٨٢)، وعون المعبود (١٤/ ٢٤، ٢٥)، وتحفة الأحوذي (١/ ٢٦٨)، (٧/ ٥١، ٥٣)، (٩/ ٣٦٤)، (١٠/ ١٦٣)، وشرح النووي (١٦/ ١٨٦)، والديباج (٥/ ٥٥٥).

من سواه، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطَّلَاق: ٣] المؤانسة، والمحبة، والشوق إليه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٣].

ومعنى آخر: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطَّلَاق: ٢] بحفظ السر عن آفات الالتفات إلى ما سواه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطَّلَاق: ٢] من حجب الإبعاد ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ [الطَّلَاق: ٣] المشاهدة والوصلة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٣].

وكذلك جعل سبب معرفة العبد ربه: معرفة العبد نفسه، بشاهد: «مَنْ عرف نفسه» أي: بالعبودية «عرف ربه» بالربوبية؛ ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء؛ ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه بالافتقار، قام للهِ على قدم الاضطرار؛ ومن عرف نفسه لمولاه، قَلَّتْ حوائجه إلى من سواه.

روي أن النبي ﷺ قال: **«من عرف الله، قام بحقه»**.

أي: من عرف الله بالهداية، سلَّمَ نفسَه إليه؛ ومن عرف الله بالربوبية، قام له بأشراط العبودية؛ ومن عرف الله بالجزاء، أوقع نفسه في العناء؛ ومن عرف الله بالكفاية، اكتفى به عن كل ما سواه.

روي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: «ألا من عرفني أرادني وطلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني لم يختر عليَّ حبيباً سواي».

* قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه قطع عن قلبه كل ما دونه.

ومن حُرِمَ المعرفة، حُرِمَ حلاوة الطاعة، ومن حُرِمَ حلاوة الطاعة، حُرِمَ المؤانسة في الخلوة، فلا يجد في المعاملة رؤية المنَّة، ولا يعرف قدر الله على الحقيقة، ويُغلب في الأحوال، فيسقط عن استقامة السر مع الحق.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله:

مَن عرف الله، وفي قلبه هم سوى الله، لم يسجد سجدة خالصة لله.

ومَن عرف الله، ولم يستغنِ بالله، فلا أغناه الله.

ومَن قال: الله، وفي قلبه شيء سوى الله، فلم يقل: الله.

نعم، من خاف الله في كل شيء، آمنه الله من كل شيء.

ومَن أنس بمولاه، استوحش عن كل ما سواه.

ومَن اعتزّ بذي العز، عَزّ.

ومَن اعتزّ بغيره، فلا فخر له ولا عِزّ.

ومَن انقطع عن الأسباب الشاغلة عن الله، اتّصل بالأسباب الشاغلة بالله.

ومَن ترك عروة العلاقات، صار مستأنساً به في جميع الأوقات.

ومَن ذاق حلاوة ذكر مولاه، يجد الملالة عن ذكر ما سواه.

ومَن كتم أسرار القلوب، ظهرت له أسرار الغيوب.

ومَن جعل الهموم همًّا واحداً، كفاه الله الهموم.

ومَن طلب رضاء مولاه، لا يبالي بِسُخْطِ ما سواه.

ومَن اكتفى بمقامه، حُجب عن أمامه.

ومَن كان لله قريباً، كان مع غيره غريباً.

ومَن أراد عزّ الدارين، فلينقطع إلى من له ملك الدارين.

ومَن ترك حسن الرعاية، زلّ عن سبيل الهداية.

ومَن أراد أن يشرب من محبة الله شربة، فليشرب من بغض غير الله جرعة.

ومَن استأنس بكل شيء، استوحش من كل شيء.

ومَن سكن قلبه إلى شيء، فليس من الله في شيء.

قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أصبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ اللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ**».

من أحبنا أحببناه:

قال الله تعالى في بعض الكتب: مَن أرادنا أردناه، ومَن أراد منا أعطيناه، ومَن أحبّنا أحببناه، ومَن اكتفى بنا عمّا لنا، كنّا له وما لنا، ألا من طلبني وجدني، ومَن طلب غيري لم يجدني.

قيل: ألا مَن طلبني بالتوبة، وجدني بالمغفرة؛ ومَن طلبني بشكر النعمة، وجدني بالزيادة؛ ومَن طلبني بالدعاء، وجدني بالإجابة؛ ومَن طلبني بالتوكل، وجدني بالكفاية؛ ومَن طلبني بالقربة، وجدني بالمؤانسة؛ ومَن طلبني بالمحبة، وجدني بالوصلة؛ ومَن طلبني بالاشتياق، وجدني باللقاء والرؤية.

وقال بعضهم: مَن كان لله، كان الله له؛ أي: مَن كان في أمر الله، كان الله في أمره؛ ومَن كان في ذكر الله، كان الله في ذكره؛ ومَن كان في حبّ الله، كان الله في حبّه؛ ومَن كان في مرضاة الله، يكن الله في مرضاته: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمرَان: ١٠١].

قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ اللّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ اللّهُ لِقَاءَهُ**».

من حكم العارفين:

ومن حكم العارفين قول قائلهم: مَن ابتلي بمعاملة العبيد، فليلبس لهم لباساً من حديد.

ومَن رضي من الدنيا باليسير، فقد استراح من شغل كثير.

ومَن أصبح على الدنيا حريصاً، أصبح من الله بعيداً.

ومَن هتك ستر التُّقىٰ، لم تستره السمٰوات العلى.

ومَن نظر في عواقب الأمور، سلم من نوائب الدهور.

ومَن لم يقنع بالقليل، وقع في غمٍّ طويل.

ومَن سلَّ سيف التقى، ضرب به عنق الردى.

ومَن كان مسروراً، لم يزل مغروراً.

ومَن لم يحفظ لسانه، فسد عليه شأنه.

ومَن لم يعرف موضع ضره، لم يعرف موضع نفعه.

ومَن أعرض عن صحبة الفجار، عوَّضه الله صحبة الأبرار.

ومَن أخذ عزاً بغير حق، أورثه الله ذُلاً بحق.

ومَن ضيَّع أيام حرثه، ندم أيام حصاده.

ومَن توكل على غير الله، يعذّبه الله به.

ومَن رضي بالله وكيلاً، صار له لكل خير دليلاً، ووجد إلى كل خير سبيلاً.

ومَن عرف حلاوة النجوى، لا يجد مرارة البلوى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢].

من وصايا العارفين:

وقيل: ثلاث كلمات كان الأخيار من المتقدمين، يوصي بعضهم بعضاً في كتبهم بهن:

١ ـ مَن عمل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه.

٢ ـ ومَن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته.

٣ ـ ومَن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس.

شعر:

إذَا السِّرُّ وَالإِعْلانُ فِي ٱلْمُؤْمِنِ اسْتَوَىٰ ... رَأَىٰ الْعِزَّ في ٱلدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ ٱلثَّنَا

وَإنْ خَالَفَ الإِعْلاَنُ سِرًّا فَمَا لَهُ ... عَلَىٰ فِعْلِهِ فَضْلٌ سِوَىٰ الْكَدِّ وَالْعَنَا

آخر:

مَنْ اَعْتَزَّ بِالْمَوْلَىٰ فَذَاكَ جَلِيلُ ... وَمَنْ رَامَ عِزًّا مِنْ سِوَاهُ ذَلِيلُ

فَلَوْ أنَّ نَفْساً مَنْ بَرَاهَا مَلِيكُهَا ... قَضَتْ وَطَراً فِي سَجْدَةٍ لَقَلِيلُ

* * *

الحديث الرابع عشر:

إنما الأعمال بالنيات

أخبرنا شيخنا الشيخ: أبو الفضل علي ـ المقري القرشي ـ الواسطي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا يحيى بن مزرعة، قال: حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ:

«العَمَلُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لامْرِىءٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1].

ومن هذا الطريق روى هذا الحديث سيدنا عمر الفاروق الجليل، رضي الله عنه، بنصّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنياتِ، وَإِنَّمَا لكلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥)، وانظره في «الأربعون في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين» لأبي الفتوح الطائي (١) بتحقيقنا، طبع العلمية، بيروت.

وانظر في شرحه أيضاً: جامع العلوم والحكم (١/ ٧، ١٠)، وتأويل ابن قتيبة (ص٣٤)، والفتح (١/ ٨، ١١)، وشرح النووي على مسلم (١٠/ ٧٤)، والديباج (٤/ ٥٠٢).

قلوب العارفين، إلى حضرة قدس رب العالمين:

خُذْ طَارِفَ السَّيْرِ بِلاَ عَائِقٍ ... لِلَّهِ لاَ تَقْصِدْ سِوَىٰ ٱللَّهِ
فَكُلُّ مَا أَمَّلْتَهُ قَائِمٌ ... بِهِجْرَةِ الْقَلْبِ إِلَىٰ ٱللَّهِ

أي بني! أهل الحجاب، يتعجبون من كلام أولي الألباب، وربما ينتهي التعجب بهم إلى طرف من الإنكار، لقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝﴾ [النجم: ٥٩] أي: تنكرون، كفعلهم.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت تحت الجدار الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]: لوح من ذهب، والذهب مكتوب فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف يحزن؟! وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! وعجبت لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن إليها؟! لا إِلَٰه إلاَّ اللَّهُ، محمدٌ رسول الله».

عجباً لمن يريد بالله بدلاً:

قال وَهْبٌ رحمه الله: بينما كنت أسير في أرض الروم، إذ سمعت صوتاً من شاهق الجبل يقول:

إلٰهي! عجبت لمن عرفك، كيف يتعرض لسخطك برضاء غيرك؟! إلٰهي! عجبت لمن عرفك، كيف يرجو غيرك؟! فاتَّبعت الصوت، فإذا أنا بشيخ ساجد، يقول:

سبحانك، سبحانك، عجباً للخليقة! كيف يريدون بك بدلاً؟!

سبحانك، عجباً كيف يشتغلون بخدمة غيرك؟!

سبحانك، عجباً للخليقة كيف يشتاقون إلى غيرك؟!

سبحانك، سبحانك، كيف يتلذذون بغيرك، وبشيء دونك؟! فمضيتُ، وما أشغَلْتُه عمّا رأيت.

قال أبو يزيد رحمه الله: عجبت لأهل الجنة، كيف يتلذذون بدونه؟! أم كيف يستأنسون بغيره؟! وعجبت ممن يسكن إلى حال، دون وليّ الأحوال؟! والعجب لمن أقبل إلى الخلق، والحقُّ يقول: إليَّ، إليَّ.

قال أبو عبد الله بن مقاتل رحمه الله: عجبت لابن آدم، اختاره الله لنفسه، مع غناه عنه، وهو يعرض عنه، مع فقره إليه!

وعجبت لمن يشغل نفسه بشيء، وهو يعلم أنه قد فُرغ منه!.

وعجبت ممن يأمر غيره بما لا يفعله، ويغضب على غيره بما يفعله.

وممن يكره أن يُعصىٰ وهو عاص!.

وممن يحب أن يطاع، وهو غير مطيع لربه!.

وممن يلوم غيره على الظن، ولا يذم نفسه على اليقين!!

قال حاتم الاصم رحمه الله:

عجبت ممن يستحي من الخلق، كيف لا يستحي من الخالق؟!.

ولمن يطلب رضاء المربوبين، كيف لا يطلب رضاء الرب؟!.

ولمن يحب أهل الطاعة، وهو مقبل على المعصية؟!.

ولمن يعرف جلال الله، كيف يُعرض عنه؟!.

ولمن يأكل رزق ربه، كيف يشكر غيره؟!.

ولمن يشتري المملوك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه وطيب كلامه؟!.

وقال خُنيس بن عبد الله رحمه الله تعالى: عجبت من رجل ليله قائم، ونهاره صائم، ويجتنب المحارم، ولا تلقاه إلا باكياً حزيناً!.

ورجل، ليله نائم، ونهاره لاعب، ويرتكب المحارم، ولا تلقاه أبداً إلاّ ضاحكاً مستبشراً!.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله:

عجبتُ ممن يتذلل للعبيد، وهو يجد من سيده ما يريد!.

وعجبتُ لمن كان قوته رغيفاً، يعصي ربًا لطيفاً!.

وعجبتُ لمن يخاف على موت نفسه، ولا يخاف على موت قلبه، ولمن يخاف على فوات دنياه، كيف لا يخاف على فوات دينه؟!.

قال قائلهم: إلَهي!

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي

أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: إلَهي! ذِكْرُ الجنة موت، وذِكْرُ النار موت، فيا عجباً لنفس تحيا بين موتين! أما الجنة فلا صبر عنها، وأما النار فلا صبر عليها.

وقيل: ذكر الوصال موت، وذكر الفراق موت، كيف يحيا قلب بين موتين؟ موت العارف عجيب، لأن العارف بين سرور المعرفة، وخوف الفرقة، فكيف الموت مع سرور المعرفة؟ أم كيف الحياة مع خوف الفرقة؟!.

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي ... وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ مَنْ نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا ... وَلَوْلاَ مَاءُ وَصْلِكَ مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوْقاً ... فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوِيتُ

يا عجباً!

تَغَرَّبَ أَمْرِي عِنْدَ كُلِّ غَرِيبِ ... فَصِرْتُ عَجِيباً عِنْدَ كُلِّ عَجِيبِ

* * *

الحديث الخامس عشر:

وصية محمدية

أخبرنا القاضي الإمام المقري الشيخ: علي أبو الفضل القرشي الواسطي - بداره بواسط - قال: أنبأنا أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري، قال: أنبأنا أبو يعقوب، قال: أنبأنا زاهد بن أحمد، قال: أنبأنا محمد بن إبراهيم بن نيروز، قال: حدثنا المطلب بن شعيب، بن عبد الله بن صالح، قال: حدثنا الهقل بن زياد، عن بكر بن خنيس، قال: حدثني عاصم بن عبد الله النخعي، عن أبي هارون العبدي، قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري، قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ. إن رسول الله ﷺ قال لنا:

«إِنَّ ٱلنَّاسَ لَكُمْ تبَعٌ، وَإِنَّهُمْ سَيَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي ٱلدِّينِ، فَإِذَا جَاؤُوكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً»[1].

هذا الحديث الشريف، يجذب العارف إلى طلب حديث المصطفى ﷺ وسُنَّته، ليكون محل نظره النبوي، في بحبوحة التوصية السارية في عوالم الله تعالى، وهل لباب المعرفة بالله إلا الأخذ بحديث رسول الله ﷺ، والعمل بسنته السنية؟ وهذا القامع للنفس.

أي بني! اعلم أن معرفة النفس، أحد أصول العبودية، وقلَّ من يعرفها، وعزّ وجود من يتمنى عرفانها، وما خلق الله تعالى في الدارين سجناً أضيق على العارف، ولا أوحش ولا أنتن من النفس.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٠)، وابن ماجة (١/ ٩١)، وابن جميع في المعجم (ص٣٥٨)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٢٦)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٣٠٣)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٧٩).

وانظر: البيان والتعريف (١/ ٢٢٢)، وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٤٢)، وفيض القدير (٢/ ٣٩٩).

فمَن عرفها على التحقيق، وخالف أمرها، فكل أرض له ثغر وطرسوس.

ومَن غفل عن معرفتها، فهو على خطر عظيم، ولا يسلم من شرها، فإن مَن لا يعرفها، كيف يقوم بمخالفتها؟!.

قال أحمد بن حرب رحمه الله تعالى: إني لأشتهي أن أموت ولو ساعة، حتى أعرف نفسي وأخالفها.

قال محمد بن الفضل رحمه الله تعالى: مَن عرف نفسه لا يتنفس نَفَساً إلاَّ بدوام جهدها، وكثرة عبادتها، ولا يغتر بصفاوة أوقاتها، وحسن أحوالها، ولطائف أنفاسها، وصدق معاملتها، لما علم من غوامض آفاتها ومكرها، وسوء طبعها، وكمال شرها.

وإني تفكرت في جميع عمري، ونظرت في شأن نفسي، فما رضيت في عمري عن نفسي طرفة عين.

قال الأنطاكي رحمه الله: مَن لم يعرف نفسه فهو مغرور.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: خالطت الناس سبعين سنة، فما وجدت رجلاً إلاَّ وهو راكب هواه، حتى إنه إن أخطأ أحب أن يُخطىء الناس كلهم، ولأن يُضرب ظهري بالسياط أحب إليَّ من أن يقال: أخطأ فلان المسلم.

وقال إبراهيم التميمي رحمه الله تعالى: ما عرضت قولي على عملي، إلاَّ وجدتُه مكذوباً.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كثيراً ما يقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

قال ذو النون رحمه الله تعالى: من نظر بعين المعرفة إلى سلطان ربه، فنى عنه سلطان نفسه، ومن نظر إلى عظمة ربه، صغرت عنده عظمة نفسه، وقُهرت تحت جلال هيبته.

وقيل لمالك بن دينار، حين ماتت زوجته أم يحيى: لو تزوجت يا أبا يحيى!.

قال: لو استطعت لطلقت نفسي! ولو أن منادياً ينادي بباب المسجد: ليخرج شَرُّكم رجلاً، فوالله ما سبقني أحد إلى الباب، إلا رجل له فضل قوة في السعي!.

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى: قلت: يا ربِّ! كيف الوصول إليك؟.

قال: يا أبا يزيدَ دع نفسك وتعال!.

لقي حكيمٌ حكيماً فقال: يا أخي! إني لأحبك في الله.

فقال: يا أخي! والله لو علمت مني ما أعلم من نفسي، لبغضتني الحالة.

وكان بكر بن عبد الله المزني، ومطرف بن عبد الله، بالموقف (عرفات) فقال مطرف: اللهم لا تردَّهُمْ لأجلي!.

وقال بكر: ما أشرف هذه المواضع وأرجاها! لولا أنا فيهم! اللهم لا تحبس المغفرة بشؤمي ولا تردهم لأجلي.

وقال موسى بن القاسم رحمه الله تعالى: وقع عندنا زلزلة وريح حمراء، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل، فقلت: يا أبا عبد الله! ادع الله لنا، فأنت إمامنا.

فقال: ليتني لا أكون سبب هلاككم.

فقال موسى بن القاسم: رأيت النبي ﷺ تلك الليلة في المنام، فقال: إن الله تعالى دفع عنكم بدعاء ابن مقاتل.

وكان عطاء السُلمي رحمه الله تعالى يبكي كلما هبّت ريح شديدة، ويقول: هذه من أجلي، يصيب بها الخلائق، لو مات عطاء لاستراح الخلائق من بلائه!.

وكثيراً ما كان ينوح على نفسه، ويقول: يا عطاء! لعلك أول مسحوب إلى النار، وأنت غافل!.

وكان الفضيل رحمه الله تعالى واقفاً بعرفات، فنظر إلى جميع الناس، وقال: يا له من موقف ما أشرفه، لولا أنا فيهم! ثم بكى، ورفع رأسه، وأخذ لحيته وقبض عليها، وقال: يا سوأتاه على ما كان من نفسي؟ فإنها مغرورة، وبالثناء مسرورة، وإن من غاية بلاء النفس، أن لو مات نصفها، لم يصلح النصف الآخر.

وحكي أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله تعالى قال: نظرت في حال عبادتي فرأيتها مختلطة، ثم نظرت إلى نفسي وتركيبها، فإذا هي منسوبة إلى كل بلاء، ورأيتها لا تخلو من الشرك، وعلمت أن الله تعالى لا يقبل الشرك.

فقلت لها: يا مأوى كل شر! إلى كم يدعوك الله إلى توحيده، ولا تنظرين إليه! فاشتد على قلبي غم هذا الإشراك، فعمدت وأعددت لها كانون الصياغة، ثم سعرت فيه نار الحق، ووضعت فيه كير الدين، ونصبت سَنْدَانَ الوحدانية، وضربتها بمطرقة الأمر والنهي، وطال بِيَ العناء، فلما نظرت إليها وجدتها مشركة!.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنها لا تنظف بالجفاء، فلعلها تنظف بالرفق، واللين، والمداراة.

فرددتها إلى بستان ذكر المِنَّة، ووضعت بين يديها رياحين رؤية اللطف والكرامات، وتروَّحت بمراوح التحنن والبر والإحسان، وطال مني العناء، فلما فتشتها وجدتها مشركة!.

فقلت لها: يا مأول كل شر وبلاء! لا تصلحين بالجفاء ولا بالرفق؟ ثم رددتها إلى قصار الأحدية، ليضربها على حجر الفردانية، ويغسلَها بماء صفوة الصمدانية، فلم يزل يضربها رجاء أن تنظف من الإشراك، وطال مني العناء، فلما نظرت إليها فإذا هي مشركة!.

فقلت: إنا لله، لعل صلاحها من وجه آخر، ثم أنزلتها بمنزلة امرأة مستحاضة، فلم أزل أنظر إليها كالمتحير المضطر، وأنظر إلى بلائها، حتى أيست منها، وعلمت أن لا يتأتى مرادي منها، فطلقتها ثلاث تطليقات، وتركتها، وصرت وحدي إلى ربي، وناديته: يا عزيزي! أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك، بالعتق من عبودية ما سواك.

فلما علم الله تعالى صدق الدعاء مني، واليأس من نفسي، كان أول إجابة الدعاء، أن أنساني نفسي بالكلية.

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى: لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعوني، كإيضاعي عند نفسي، لم يقدروا على ذلك.

طوبى لعبد أطلعه الله على شر النفس، وعرف أصل خلقتها، وأنواع عوارضها، ومقتها ومألفِها وقهرها، وحقَّرها، واتهمها، ووضعها.

* * *

الحديث السادس عشر:

الاقتداء بالصحابة

أخبرنا سيدنا فرد الوقت، أبو المكارم الباز الأشهب الشيخ: منصور، الرباني البطايحي الأنصاري رضي الله عنه، برواقه في بلدة نهر دقلى من واسط، قال: أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد، بن علي الفرا - قراءة عليه - قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد، بن موسى بن الصلت، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: حدثنا عبيد بن أسباط، عن أبيِّ بن سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي: أَبِي بَكْرٍ، وعُمَرَ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعودٍ»[1].

فقد أمر عليه الصلاة والسلام، بتصحيح القدوة بالشيخين العظيمين، سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر الفاروق، رضي الله عنهما، وبالتحقق بالاهتداء بهدي عمار رضي الله عنه، فإنه مات على حبِّ الصهر العظيم، الصنو الكريم، سيدنا علي، رضي الله عنه.

وأكد لزوم التمسك بالعهد، كما كان محافظاً عليه ابن أم عبد، رضي الله عنه.

وفي هذا حكمة الجمع بين حب الصحب والآل، سر يدركه العارفون الموفَّقون، وقد جعل صحة المتابعة له باتباع الشيخين رضي الله عنهما، وحقيقة

(١) رواه الترمذي (٥/٦٠٩، ٦٧٢)، والحاكم (٣/٧٩، ٨٠)، وابن أبي شيبة (٦/٣٥٠)، والبيهقي (٥/٢١٢)، (٨/١٥٣)، وأحمد في المسند (٥/٣٨٢)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٨٠)، والبزار (٧/٢٥٠، ٢٥١)، والطبراني في الكبير (٩/٧٢)، وفي الأوسط (٦/٧٦)، والديلمي (١/٧٠).
وانظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٢/١٢٦)، وتلخيص الحبير (٤/١٩٠).

الاهتداء بهديه بموالاة الأمير رضي الله عنه، وجمع بين النكتتين بلزوم التمسك بالعهد.

ومتى اقتدى العبد اهتدى، ومتى اهتدى تمسك بعهد الله، وهناك وقد عرف، وهل المعرفة بالله تعالى إلا هذا؟ فإن من اهتدى بهدي محمد ﷺ، واقتدى به، وتمسك بعهده، أقبل على الله، وأعرض عن غيره.

جاء في الخبر، أن الله تعالى قال: «يا دنيا! أخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمك».

وليس من معالي الهمة: الاشتغال بما فيه حظ النفس.

وفي نعت النبي ﷺ بعلو همته الشريفة: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧].

ولا يصل العبد إلى الله تعالى، حتى يقطع مفاوز الدنيا وما فيها، من زهراتها ولذاتها، وراحاتها وشهواتها، ويجاوز أودية الخلق، وما منهم، من جميل معاشرتهم وثنائهم ومحمدتهم.

وإن الله تعالى خلق جميع ذلك، ابتلاء لكل من أراد أن يصير مجرداً، حتى إن التفت إلى شيء منها صار مفتضحاً في دعواه، وغرق في أودية الحسبان والخسران، فكم مستدرج بالنعم، محجوب عن الخالق، غافل عن الصدق، جاهل بعرفان النفس، يصبح ويمسي على الحسبان، فيبدو له من ذي العرش ما لم يكن يحتسب.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧].

وإن من معالي الهمة، ما قيل لأبي عبد الله: لو أعطاك الله تعالى الدنيا بجميع ما فيها، ماذا تفعل بها؟

فقال: لو أمكنني أن أجعلها لقمة، وأضعها في فم كافر لفعلت!

قيل: ولِمَ؟ قال: لأن الله تعالى يبغض الكافر والدنيا جميعاً، فأفعل ذلك، ليقع البغيض إلى البغيض.

ثم حكى من صدق ما ادَّعاه، أن سلطان هراة ـ اسم مدينة ـ بعث إليه سبعة أوقار من الحنطة، وكان الشيخ يومئذ بهراة مع أصحابه، فأطعم الخادم منها أولياءه.

فقال له أبو عبد الله: أطعِم الباقي فقراء العامة، فقال: لا يمكن، الأبواب مغلقة.

فقال: اذهب به إلى المجوس الذين هم في جوارنا!.

قال الخادم: فخشيت عقوبة الله تعالى في ترك أمره، فأعطيته المجوس، فجاؤوا بكرة إليه وقالوا: ما الحكمة في إعطائك إيَّانا ونحن مخالفوك؟!

فقال: الدنيا عدوة الله، والكافر عدو الله، ولا يقرب الحبيب من الحبيب، حتى يبعد من عدوه.

قال: فأسلموا جميعاً على يديه.

وحكي أن بعض المريدين كان يمشي في البادية، فحدثته نفسه ببعض حاجتها، فإذا هو على شط بئر، فرمى رَكوته في البئر ليستقي الماء، فخرجت له الرَّكوة مملوءة من الذهب! فرمى بها في البئر، وقال: يا عزيزي! لا أريد غيرك.

قال عمار القرشي رحمه الله تعالى: كنت في البادية، فأردت التلبية وكنتُ حاجًا، فأخذت منديل شيخ لي، فقدته نصفين، واتَّزرت بنصفه، وارتديت بالآخر، فلم تزل نفسي تنازعني ببعض الحاجة، فإذا البادية كلها فضة، فمضيت وقلت: إلّهي إني أعوذ بك من كل إرادة سواك.

قال عيسى عليه الصلاة والسلام: «طوبى لرجل ذكر الله، ولم يذكر إلاَّ الله، وطوبى لرجل خشي الله، ولم يخشَ إلا الله، وطوبى لعبد سأل الله، ولم يسأل إلا الله».

وحكي أن الإمام ابن الإمام، سيدنا زين العابدين، علي بن الحسين، رضي الله عنهما قال: كنت عند أبي عبد الله الحسين عليه السلام، أقرأ في بعض الكتب، وكان في يده سكين، فرأيت حرفاً خطأ، فقلت: ناولني السكين لأصلح هذا الحرف، فناولني، فلما قضيت الحاجة رددته عليه، فقال لي: يا عليّ! لا تعد إلى هذه مرة أخرى، فتقع إلى ذُلِّ السؤال، وخساسة الهِمَّة!.

وروي أن النبي ﷺ قال ذات يوم لثوبان رضي الله عنه: **«يا ثَوْبَان! لا تَسْأَل النَّاس»**[1] فكان ثوبان ربما يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إياه، حتى ينزل ويرفعه.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٧٥، ٢٧٧)، وابن ماجة (١/ ٥٨٨).

وسأل رجل من سفيان ـ رحمه الله ـ كِسرةً، فأعطاه ديناراً! فقيل له في ذلك، فقال: إن كان لا يعرف هو قَدْرَ نفسه، فلا أدع كرم نفسي، وإن كان هذا ترك الهمة، فأنا لا أدع الجود.

همم العارفين:

همم العارفين متصلة بمحبة الرحمٰن، وقلوبهم ناظرة إلى مواضع العز من العزيز، لا راحة لهم في دار الدنيا، دون الخروج منها.

وكان كثيراً ما يُرى حبيب العجمي رضي الله عنه، يوم التروية بالبصرة، ويوم عرفة بعرفات، فقيل له في ذلك، فقال: هو أقل ما أطار إليه الهمة أهل الهمة.

ودخل علي ـ كرّم الله وجهه ـ مسجد رسول الله ﷺ.

فرأى أعرابياً في المسجد يقول: إلٰهي! أريد منك شويهة.

ورأى أبا بكر الصديق في زاوية أخرى يقول: إلٰهي! أريدك.

فشتان ما بين الهمتين، فكل يطير بهمته، فإذا بلغ طيرانه إلى غاية همته، وقف فلم يجاوزها.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي: على نيته وهمته.

وقيل لأبي يزيد رحمه الله تعالى: سمعنا أنك تمر على الماء، وتطير في الهواء!

فقال: المؤمن أعز على الله من السمٰوات السبع، فأي عجب أن يبلغ مقام طير أو حوت؟

قرىء بين يدي ابن المبارك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١].

فقال: ليس أنه يسبق بدنٌ بدناً، ولا عملٌ يسبق عملاً، ولكن همةً تسبق همةً، في جميع الخيرات والإرادات.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الغفلة! يشتغلون بكثرة الأعمال، ويعظمونها ويفتخرون بها، ولو أن أهل المعرفة عملوا أعمال أهل السمٰوات والأرض، من الأزل إلى الأبد، كان ذلك أصغر وأحقر في أعينهم، من خردلة في السماء والأرض.

قال النبي ﷺ: «**لا تستكثروا طاعتكم، ولا تستقلوا ذنوبكم**».

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام، كان يمر على شاطىء البحر، فقال: إلّهي! قد اصطكتْ ركبتاي، وانحنى ظهري، حبيبي! فما أنت صانع بي؟.

فأمر الله تعالى ضفدعاً أن يجيبه.

فقال: يا ابن عمران! أتمنُّ على ربك بعبادتك إياه؟! وقد اصطفاك وكلّمك، وقرَّبَك وناجاك، فوالذي خلقني ويراني، إني على صخرة منذ ثلاثمائة وستين سنة، أُسبِّحه ليلاً ونهاراً، لا أفتر منها لحظة، ومنذ ثلاثة أيام لم آكل، وكل ساعة ترتعد فرائصي من هيبته.

وقال أبو سعيد أبو الخير رحمه الله تعالى: كنت في البادية فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي أن أسأل الله طعاماً، فقلت: ليس هذا من دأب المتوكلين، فطالبتني أن أسأله اصطباراً، فلما هممت به ثانياً، سمعت هاتفاً يقول:

أيَجْهَلُ أنَّنا مِنْهُ قَرِيبٌ ... وَأنَّا لا نُضَيِّعُ مَنْ أتَانَا

يُرِيدُ أبُو سَعِيد سُؤَالَ صَبْرٍ ... كَأنَّا لا نَرَاهُ وَلا يَرَانَا

* * *

الحديث السابع عشر:

أصحاب الجنة

أخبرنا شيخنا القاضي العدل، الثقة المقري، الإمام الشيخ: علي أبو الفضل القرشي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو طالب محمد بن علي بن الفتح العشاري، قال: أنبأنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمٰن المخلص، قال: أنبأنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، قال: أنبأنا مالك بن الخليل أبو غسان، قال: أنبأنا ابن عدي، عن أشعث، عن الحسن، عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ**» قالوا: مَن هم يا رسول الله؟! قال: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[1].

جعل ﷺ عدم التطيُّر المرتبة الثانية، بعد ترك الاسترقاء، وهذه مرتبة الخلَّص، من أهل الانمحاق عنهم وعن كونهم في مراد الله تعالى.

رحمهم الله، ما أقلهم في كل عهد! فإن رتبتهم التحقق بالتوكل على الله تعالى، توكلاً تنطوي فيه الأسباب والمرادات، وأولئك هم العارفون بالله حقاً، رضي الله عنهم.

يا هذا! لو أن العالم فريقان:

١ - فريق يروِّحني بمراوح من نَدٍّ.

٢ - وفريق يقرض جسمي بمقارض من نار، لا زاد هؤلاء عندي، ولا نقص هؤلاء.

أي بني! اعلم أن من عرف الله حق معرفته، تلاشت همته تحت سرور وحدانيته، ولا شيء من العرش إلى الثرى، أعظم من سرور العارف بربه.

---

(١) رواه البخاري (٥/٢١٥٧)، ومسلم (١/١٨٨، ١٨٩).

والجنة بكل ما فيها في جنب سروره بربه، أصغر من خردلة، لما علم أنه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم.

فمن وجده فأي شيء لا يجد؟ وبأي شيء يشتغل بعده؟

وهل رؤية غيره إلا من خساسة النفس، ودناءة الهمّة، وقلة المعرفة به؟

وهل يكون لباس أجمل من لباس الإسلام؟ أو تاج أجل من تاج المعرفة، أو بساط أشرف من بساط الطاعة؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى في بعض مناجاته:

إلَهي! إنك تعلم أن الجنة وما فيها، لا تزن عندي جناح بعوضة، بعدما وهبت لي معرفتك، وآنستني بك، وفرّغتني للتفكر في عظمتك، ووعدتني النظر إلى وجهك.

نعم. إن أدنى منازل العارف، أن الله تعالى لو أدخله النار، وأحاط به العذاب، لم يزدد قلبه إلاّ حبًا، وأنساً به، وشوقاً إليه.

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: لو خُيِّرْتُ بين الجنة وركعتين، تخيرت الركعتين، لأن في الركعتين رضاء الله تعالى، والقرب منه، وفي الجنة هوى النفس، ومحبة الناس.

قيل: لما أُلقي الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار و﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

قال: حسبي ربي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

قال تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وروي أن الله تعالى أوحى إليه: يا إبراهيم! أنت خليلي، وأنا خليلك، فلا تشغل قلبك بدوني، فتنقطع الخُلَّةُ بينك وبيني، لأن الصادق في دعوى خُلتي لو أُحرق بالنار، لم يتحول قلبه عني إلى غيري إجلالاً لحرمتي.

وذكر الله تعالى ذلك في كتابه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

فعرف صدقه في التسليم، حتى ألقي في النار.

قال أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ في مناجاته:

إلٓهي! لا تدخلني في النار، فإنها تصير برداً عليَّ من حبي لك.

قال أبو أيوب السختياني رحمه الله تعالى: إنما يخاف النار، من نسي مولاه، فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [السَّجدَة: ١٤] مع ثواب أعماله.

قال أبو حفص رحمه الله تعالى: إني لأخاف على معرفة قوم، يكون على جباههم مكتوباً: عتقاء الله بعد إخراجهم منها، يسألون الله رفع تلك العلامة عنهم، ولو كنتُ أنا، لسألته أن يكتب ذلك على جميع أعضائي، ويكفيني فخراً: أني من عتقائه!.

وأنا أقول: إنما الحاصل للمريد في الجنة من الجنة هو الربُّ تعالى، وقربه، ونظره، واستماع كلامه.

أما ترى امرأة فرعون إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التَّحريم: ١١] كما يقال: الجار، ثم الدار.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: إني لأستحيي أن يكون غاية همتي مخلوقاً، وقد قال الله تعالى لبعض أنبيائه: «مَنْ أرادنا، لم يُرِدْ سوانا».

قال بعض المشايخ: رأيت شابًا في المسجد الحرام، وقد أثَّر فيه الضر والجوع، فأدركتني الرحمة عليه، وكان معي مائة دينار في صُرَّةٍ، فدنوت منه، وقلت: يا حبيبي! اصرف هذا في بعض حوائجك، فلم يلتفت إليَّ فألححت عليه.

فقال: يا شيخ! هذه حالة لا أبيعها بالجنة وما فيها، وهي دار الجلال، ومعدن القرار والبقاء، فكيف أبيعها بثمن بخس؟!.

قال أبو موسى الدبيلي ـ خادم أبي يزيد ـ رحمهما الله تعالى: سمعت شيخاً ببسطام يقول: رأيت في منامي، كأن الله تعالى يقول: كلكم تطلبون مني، غير أبي يزيد، فإنه يطلبني ويريدني، وأنا أريده.

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى: اتخذ الله جليساً وأنيساً، والزَمْ خدمة مولاك، تأتك الدنيا وهي راغمة، وتطلبك الآخرة وهي عاشقة.

وقال: يا طالب الدنيا! دع الدنيا تطلبك.

ويا طالب الآخرة! أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء قدير؟.

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: كنت بالموقف، فهممت أن أسأل الله شيئاً، فهتف بي هاتف: بعد الله، تسأل غير الله.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فاضرب بالدنيا وجه عشاقها، وبالآخرة وجه طلابها، واستأنس برب العالمين، والسلام.

قال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: لا تستكثر الجنة للمؤمن، فإنه قد وافى الله تعالى، بما هو أكثر قدراً من الجنة، وهو المعرفة.

وصلّى رجل من العارفين على جنازة، فكبّر خمساً، فقيل له في ذلك! فقال: كبّرتُ أربعاً على الميت، وواحدة على الدارين.

وحكي أنه قرئ بين يدي أبي يزيد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] قال: فأين مَن يريد المولى؟.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما: يا خليفة رسول الله ﷺ! بماذا بلغت هذه المنزلة حتى سبقتنا؟ فقال: بخمسة أشياء:

أولها: وجدتُ الناس صنفين، طالب دنيا، وطالب عقبى، فكنت أنا طالب المولى.

والثاني: منذ دخلت في الإسلام، ما شبعت من طعام الدنيا.

والثالث: ما رويتُ من شراب الدنيا.

والرابع: إذا استقبلني عملان، عمل للدنيا، والآخر للعقبى، اخترت عمل الآخرة على عمل الدنيا.

والخامس: صحبت النبي ﷺ، فأحسنتُ صحبته.

فقال له عليٌّ: هنيئاً لك يا أبا بكر[1]!.

* * *

(١) انظر: التمهيد (٢/٢٧٠)، (٥/٢٦٦)، والفتح (١٠/١٥٧)، (١١/٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠).

الحديث الثامن عشر:

التربية الإلهية

أخبرنا ابن العم، الولي الصالح، السيد سيف الدين عثمان، قال: حدثني أبوك السيد علي بن يحيى الرفاعي - صاحب المشهد المنوّر ببغداد - قال: حدثني ابن عمي السيد حسن بن عسلة، قال: حدثني النقيب الجليل السيد يحيى بن ثابت، قال: حدثني أبي السيد ثابت، عن أبيه السيد علي الحازم أبي الفوارس، عن أبيه السيد أحمد بن علي أبي الفضائل، عن أبيه السيد رفاعة الحسن المكي - نزيل إشبيلية - عن أبيه السيد أبي القاسم محمّد البغدادي - نزيل مكة - عن أبيه السيد الحسن القاسم أبي موسى الرئيس، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمٰن الرضى المحدّث القطيعي، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه الأمير الكبير السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام الأعظم، قبلة أهل الباطن، علي الرضا - صاحب طوس - عن أبيه الإمام الشهيد موسى الكاظم، عن أبيه الإمام السعيد جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين علي السَّجّاد، عن أبيه الإمام المظلوم الشهيد السعيد، الحسين - صاحب كربلاء - عن أبيه أمير المؤمنين، يعسوب نحل الموحدين، الإمام علي، كرّم الله وجهه، عن ابن عمه، سيد المخلوقين، حبيب رب العالمين، نبينا ورسولنا محمد ﷺ أنه قال:

«أدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»[1].

هذا الحديث الشريف ملزم بالتحقق بآدابه ﷺ فإنْ مَن زلّ عنها هوى، ومَن فارقها ضلّ وغوى، وبها تعرج همم المقربين، وتزهر أسرار العارفين، ولا وجه يلتحق به العارف بربه إلا طريق الأدب المحمدي، وسُلَّمُ كلِّ هذا: الذكر المتواصل.

---

(١) الحديث أورده المناوي في فيض القدير (١/ ٢٢٤، ٢٢٥)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٧٢).

أي بني! اذكر الله تعالى، واعلم أن الله تعالى أعلى درجة الذكر، وعظم رتبته، ورفع شأنه، وشرفه وفضله، ثم قسمه على اللسان، والأركان، والجَنان، فينبغي أن يكون الذاكر على حذر أن يلتفت إلى الذكر، ويكون شريف الهمة والإرادة، لطيف الفطنة في الإشارة، صحيح النية والإرادة، لا يريد بذكره غيره، ولا يلتمس منه فراغه عنه إلى ما دونه، لأن الوصول إلى الكل تحت الرضا به عن غيره، والحرمان من الكل تحت الاشتغال بغيره.

ويجب على الذاكر أن يذكره على غاية من التعظيم والحرمة، لا على العادة والغفلة، فيصير بذلك محجوباً عن المذكور، عقوبة لترك التعظيم والحرمة، لأن حفظ الحرمة في الذكر، خير من الذكر.

وما من عبد ذكره على التحقيق إلاَّ نَسِيَ في جنب ذكره ما سواه، وكان الله له عوضاً من كل شيء، وربما يريد العارف أن يذكره، فيهيج في سره أمواج التعظيم والهيبة، فيكل لسانه، ويطير فؤاده من إجلال الوحدانية، ثم يبدو له شعاع الشوق والمحبة، من حجب القلب والألفة، فتنتهي همته إلى سرادقات الألوهية، وميادين الربوبية بإذن الله.

فحينئذ يكشف له عما ستر عن غيره، من عجائب غيبه، ولطائف صنعه، وكمال قدرته، وأنوار قدسه.

فعند ذلك يعرف العبد، أن الله تعالى يفعل ما يشاء، بمن يشاء، لمن يشاء، متى يشاء، كيف يشاء، بيده المَنُّ، والعطاء، والإرادة.

لا رادَّ لفضله، ولا مُعقِّبَ لحكمه، فيُشغَل به، ويصير فانياً تحت بقائه.

وهذا معنى ما روي في بعض الأخبار، أن الله تعالى قال في بعض الكتب: مَن يذكرني ولا ينساني، حركت قلبه لمحبتي، حتى إذا تكلم تكلم لي وإذا سكتَ سكت لي.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: الذكر أكبر من الجنة، لأن الذكر نصيب الله، والجنة نصيب العبد، وفي الذكر رضاء الله، وفي الجنة رضاء العبيد.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «إن الله تعالى يتجلّى للذاكرين عند الذكر، وتلاوة القرآن، ولا يرونه، لأنه أعز من أن يرى، وأظهر من أن يخفى، فتفرّدوا بالله سبحانه، واستأنسوا بذكره، وما نزلت بأحد نازلة إلاَّ وفي كتاب الله لها دليل، من الهدى والبيان».

قال أبو عبد الله النسّاج رحمه الله تعالى: إن لله تعالى في الدنيا جنة، من دخلها كان آمناً، طوبى لهم وحسن مآب، قيل: ما هي؟ قال: الأنس بذكره.

قال الله تعالى في بعض كتبه: أوليائي وأحبائي، تنعموا بذكري، واستأنسوا بي، فإني نعم الرب لكم، في الدنيا والآخرة.

قيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله تعالى: هل تشتهي طعاماً؟ قال: نعم. قيل: أي شيء؟ قال: لقمةً من ذكر الله، بصفاء اليقين، على مائدة المعرفة، بأنامل حسن الظن بالله، من جَفْنَةِ (إناء) الرضا عن الله سبحانه.

وروي أن الله تعالى قال للخليل عليه الصلاة والسلام:

أتدري لِمَ اتخذتك خليلاً؟ قال: لا، قال: لأنك لا تُغفلُ قلبك عني، وعلى كل حال، لا أراك تنساني.

* لولا أنك أمرتنا بذكرك، فمن كان يجترىء أن يذكرك؟ إجلالاً وإعظاماً لك سبحانك.

عجباً للذاكرين! كيف تثبت قلوبهم في أبدانهم عند ذكر عظمتك!.

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى! إني لم أقبل صلاة ولا ذكراً إلا ممن يتواضع لعظمتي، ويلزم قلبه خوفي، ويقطع عمره بذكري.

يا موسى! إن مثله في الناس، كمثل الفردوس في الجنان، لا يتغير طعمها، ولا ييبس ورقها، فأجعلُ له عند الخوف أمناً، وعند الظلمة نوراً، وأجيبه قبل أن يدعوني، وأعطيه قبل أن يسألني.

وروى كعب الأحبار رحمه الله تعالى أن الله تعالى قال: من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل مما أعطي سائلي.

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: طوبى لمن ذكر الله، ولم يذكر إلاّ الله، وطوبى لمن يخشى الله، ولم يخشَ إلا الله.

وروي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما قال: يا أسفىٰ على يوسف، أوحى الله تعالى إليه: إلى متى تذكر يوسف؟ أيوسف خلقك، أو رزقك، أو أعطاك النبوة؟ فبعزتي لو كنت ذكرتني، واشتغلت بي عن ذكر غيري، لفرّجت عنك من ساعتك.

فعلم يعقوب أنه مخطىء في ذكره يوسف، فأمسك لسانه عن ذكره.

وقالت رابعة البصرية رضي الله عنها: ما أوحش الساعة التي لا أذكرك فيها؟!.

وقال موسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم:

إلَهي! أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟.

فقال الله تعالى: أنا جليس لمن ذكرني، وقريب ممن أنس بي، أقرب إليه من حبل الوريد.

قيل لذي النون رحمه الله تعالى: متى يكون ذكر الله للعبد صافياً؟.

قال: إذا كان به عارفاً، وممن دونه متبرئاً.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذكر الله طعام الروح، والثناء عليه شراب الروح، والحياء منه لباس الروح، وما تلذذ المتلذذون بمثل ذكره، وما تنعم المتنعمون بمثل أُنسه.

إن الله تعالى قال في بعض الكتب: مَن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومَن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ، ومَن ذكرني من حيث هو، ذكرته من حيث أنا.

وقال: إن الخلائق صاحوا من إبليس، وإن إبليس صاح من الذاكرين، وتلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من مؤمن إلا وعلى قلبه شيطان، إذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله وسوس.

ذكر الله شفاء لا يضر معه داء، وذكر الناس داء لا ينفع معه دواء!.

فاجعل ذكر الله قِبلة همك، وإضاءة مسجد فكرتك، واعلم أن حقيقة الاستئناس بذكر الحبيب، هو نسيان غيره.

من شغله ذكر الله تعالى، فني عن ذكر ما سواه، وصار مدهوشاً تحت لطائف صنعه، وتلاشت كليته تحت جمال حسن عنايته، واستغرق في بحار ذكر امتنانه.

لِلنَّاسِ عِيدَانِ مَعْدُودَانِ فِي سَنَةٍ ... وَلِلْمُرِيدِ جَمِيعُ الْعُمْرِ أَعْيَادُ
فَالذِّكْرُ عَادَتُهُ وَالْحَمْدُ رَاحَتُهُ ... وَالْقَلْبُ فِي مَلَكُوتِ الرَّبِّ أَوْتَادُ

* * *

الحديث التاسع عشر:

قيام الليل وصيام النهار

أخبرنا الفقيه الصالح: بندار بن بختيار الواسطي، قال: أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد المهدي الهاشمي، قال: أنبأنا أبو عثمان إسماعيل بن محمد، قال: أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الضبي، قال: أنبأنا سليمان بن أحمد، قال: أنبأنا إدريس بن جعفر العطار، قال: أنبأنا يزيد بن هارون بن محمد، عن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن عبد الله بن عمرو، قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ بيتي فقال: **«يا عبدَ الله بنَ عَمرو! ألم أُخبَرْ أنكَ تكَلَّفُ قِيَامَ اللَّيلِ وَصِيَامَ النَّهارِ؟»** قُلْتُ: إنّي أفعل. فقال: **«إنَّ من حسبِكَ أن تصومَ من كل شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ، الحسنةُ بِعشرِ أمثالِها، فكأنك قد صُمتَ الدهر كلهُ»**[1].

ففي هذا الحديث الشريف أسرار:

منها: البشارة بتواصل نور الأعمال، بنور الأعمال، من دون انقطاع، وإن تباعدت الأوقات.

ومنها: مضاعفة ثواب العمل لهذه الأمة، الحسنة بعشر أمثالها، لتنشط قلوبهم لعمل الخير.

ومنها: الأمر بعدم التكلف، الذي يُفضي بالعبد إلى السأم والملل.

ومنها: لزوم التذكر، حتى لا تطم القلبَ الغفلة.

ومنها: الإيمان القطعي بوعد الله وحسن كرمه.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٢٩٧)، ومسلم (٢/ ٨١٣)، وأبو داود (٢/ ٥٤، ٣٢٢)، والترمذي (٣/ ١١٨)، والنسائي (٤/ ٢١١)، وأحمد في المسند (٢/ ١٨٧، ١٩٧).
وانظر: الفتح (٤/ ٢١٩)، وتحفة الأحوذي (٦/ ١٠٢).

وكل هذه الخصال، خصال العارفين، الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والأخروية، وصار همهم ربهم، ومن كان همه ربه، فلا هَمَّ لَهُ.

قال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ في مناجاته: إلّهي! إن عرفتك، فأنت الذي قد هديتني، وإن طلبتك، فأنت الذي أردتني، وإن أجبتك، فأنت الذي اخترتني، وإن أطعتك، فأنت الذي وفقتني، وإن أنبتُ إليك، فأنت الذي آويتني.

وإن الله تعالى لا يكِلُ العارفين إلى أنفسهم ولا إلى طاعاتهم، ولا إلى ذِكْرهم، بفضله ورحمته، بل يكلؤهم بأكاليل شفقته، ويمطر عليهم أمطار رحمته، من سحائب فضله وعنايته.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب! كيف لي أن أؤدي شكر نعمك، ولك عليَّ في كل شعرة نعمتان؟.

فقال له: يا موسى! إذا عرفت أنك عاجز عن شكري، فقد شكرتني.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أُشكر نعمتي عليك.

فقال: إلّهي! وكيف لي أن أشكرك، وشكري لك على النعم أعظمُ نعمةً عليَّ؟.

فأوحى الله تعالى إليه: إذا علمت ذلك، فأنت أشكر العباد لي.

وقال محمد بن السماك رحمه الله تعالى: أُذْكر مَن كان ذكره لك قبل ذكرك، وحبه قبل حبك، وما ذكرته إلاَّ بذكره لك، وما أحببته إلاَّ بحبه لك.

وقال أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: مَن نسي ذكر الله تعالى كان مستدرجاً.

* واعلم أن أدنى أوصاف العارف، عيش القلب مع الله بلا علاقة، وذلك من ذكر الله إياه، وذلك بيِّن في قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقيل في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبإ: ١٣] أي القليل من يرى مِنّتي عليه، عند شكره لي!.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال:

إلّهي! كيف استطاع آدم أن يشكر نعمتك عليه؟ إذ خلقته بيديك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرتَ الملائكة فسجدوا له.

فقال الله: يا موسى! علم آدم أنَّ ذلك مني، فحَمِدَني عليه.

* فمَن أطاعه، فبتوفيقه أطاعه، فله المِنَّةُ، ومَن عصاه، فبمقدوره عصاه، فله الحجة عليه، فقد سبق فضله لمن أطاعه قبل طاعته، وقد سبق عدله لمن عصاه قبل معصيته إياه، لأنه الفعال لما يريد.

وروي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال:

إلَهي! لولا أنت كيف كنت أعرف من أنت؟.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما لنا نحب المدح والثناء؟ فقال: لنسيان امتنان الله عليكم، وحسن عنايته التي سبقت منه لكم، فمن نسي المنّة، وجحد النعمة، قلبت له النعمة نقمة!.

* يا بني! إن الله تعالى أعطاك المعرفة، ووفقك لطاعته من غير إحسان سبق منك، ومن غير شفاعة كانت لأجلك، فينبغي أن تشتغل بذكره وخدمته، من غير طلب عوض ومكافأة منه.

فأهل الذكر أصناف مختلفة، فمنهم من يذكر على جهة منّة الإسلام، ومنهم على جهة السنّة والجماعة، ومنهم مَن يذكره على جهة مِنَّةِ ذكره، حتى يصير قلبه والهاً، ولسانه كليلاً، وعقله هائماً، ويصير في عظمته مبهوتاً، ويتيه في كرمه، ويدهش في محبته، لما علم أن الأعمال لا تقوم إلاّ به.

والذكر على وجهين: ذكر يتولد منه الخوف والخشية، وذكر يتولد منه الشوق والمحبة.

فأما ما ينتج الخوف والخشية، فهو ذكر من يذكر الله مع نفسه، ويرى ذكر الله له، سببَ ذكره لله تعالى، ويعلم أنه بذكر الله يصل إلى ذكره إياه.

وأما الآخر: فهو ذكر الذي يذكر ذكر الله له في الأزل، حيث لم يكن موجوداً، إلى أن يصير في الدنيا مفقوداً، ثم إلى الأبد، فوجد ذكر الله له سابقاً أزلياً، خالداً أبدياً وذكره مكدراً بالشهوات، ممزوجاً بالغفلات، فشتان بين من يدخل على الله برؤية ذكره، وبين من يدخل على الله برؤية فضله ومنّته، واعلم أن ذكر العبد لله تعالى، في إضافة ذكر الله تعالى للعبد، كالغبار تحت الأمطار.

بِذِكْرِكَ تَحْيىٰ مُهْجَتي يَا مُؤَمَّلي ... وَذِكْرُكَ لِي مِنْ قَبْلِ ذِكْرِيَ أَكْبَرُ
مَنَنْتَ بِطَوْلٍ لا أَقُومُ بِشُكْرِهِ ... فَأيَّ أيَادِيكَ الْجَزِيلَةِ أشْكُرُ؟

* * *

الحديث العشرون:

النوافل زاد العارفين إلى الله تعالى

أخبرنا الشيخ الحجة الثقة العارف: أبو بكر بن يحيى النجاري الأنصاري الواسطي، قال: أنبأنا أبو القاسم طلحة الكتاني، قال: أنبأنا أبو الحسين أحمد بن عثمان الآدمي، قال: حدثنا أحمد بن ماهان السمسار، قال: أنبأنا عبد الرحمٰن بن مهدي، عن شعبة، عن النعمان بن سالم، قال: سمعت عمر بن أوس يحدّث عن عتبة بن أبي سفيان، عن أم حبيبة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ تَعَالَىٰ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، إلاَّ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ»[1].

هذا الحديث الشريف، يحث على ملازمة النوافل، فإنها من المقربات إلى الله تعالى، وهي زاد العارفين في طريقهم إليه ـ سبحانه ـ وشأن المتجردين لجنابه جلّت قدرته.

أي بُني! اعلم أن من تجرّد بسره عن الكل، وتفرّد بسر السر الفرد، كُشِفَ له الغطاء، واستبانت له البراهين، عند مشاهدة نور الحق سبحانه، وهنالك يسقيه الله بكأس محبته، حتى يسكره به عن غيره، ويزيل عنه التعب والنصب، ويصير سكوته ذكراً، وأنفاسه تسبيحاً، وكلامه تقديساً، ونومه صلاة.

ولا يزال العبد يركب بسره مركب المعرفة، حتى يتصل بالمعروف، فإذا اتصل بالمعروف، بقي معه إلى الأبد، من غير أن يلتفت منه إلى ما سواه.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٠٢)، والحاكم (١/ ٤٥٦)، وابن خزيمة (٢/ ١٩٤، ٢٠٤، ٢٠٥)، وابن حبان (٦/ ٢٠٤، ٣٧٢)، وأبو نعيم في المسند المستخرج (٢/ ٣٢٣)، وأبو عوانة (٢/ ٣٢٣، ٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٢٠٠، ٢٦٠، ٢٦٢)، ومالك في الموطأ (١/ ١١٥).
وانظر: التمهيد (٨/ ١٢٢)، وشرح النووي على مسلم (٦/ ٦).

واعلم أن مثل القلب كالقصر، والمعرفة فيه كالسلطان، والعقل أمير على الأركان، له تبع وأعوان، واللسان كالترجمان، والسر من خزائن الرحمٰن، ولا بد لكل واحد منها من الاستقامة في مواضعه، ودوران كلها على استقامة السر مع الحق.

فإذا استقام السر استقامت المعرفة، فيستقيم العقل.

وإذا استقام العقل استقام القلب.

وإذا استقام القلب، استقامت النفس.

وإذا استقامت النفس. استقامت الأحوال.

فالسر منوَّر بنور الجمال والجلال.

والعقل منوَّر بنور اليقظة والاعتبار.

والقلب منوَّر بنور الخشية والأفكار.

والنفس منوَّرة بنور الرياضة والانزجار.

فالسر بحر من بحور العطايا، وأمواج الهمّة فيه لا يُحصى عددها، ولا ينقطع مددها.

وإن استقامة السر مع الحق، هي الدوام على بساط المشاهدة، مع فقد رؤية الاستقامة.

واعلم أن صراط الاستقامة: السرادق، من صراط الآخرة؛ والمرور على جسرها، أصعب من المرور على جسر الآخرة؛ وإن عالِمَ الأسرار غيور، لا يحب أن يكون في قلب العبد حب أو ذكر لغيره.

لا يريدون من الله إلا الله:

قال الله تعالى في بعض كتبه: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي، جعلت لذته وهمته في محبتي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه.

ودخل رجل على سري السقطي رضي الله عنه، فقال له:

أي شيء أقرب إلى الله، ليتقرب به العبد إلى الله؟ فبكى السري، فقال: أمثلك يسأل عن هذا؟ إن أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله سبحانه، أن يطّلِع اللّهُ على قلبك، وأنت لا تريد من الدارين غيره!.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: غاية همتي ومرادي من الله تعالى، أن يجعل لي الميل إليه، فلا أرى شيئاً دونه، ولا أشتغل بأحد سواه، ثم لا أبالي إلى التراب صيّرني، أم إلى العدم رَجّعني.

وقيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: بأي شيء وجدتَ الخُلَّة؟.

فقال: بانقطاعي إلى ربي، واختياري إياه على ما سواه، وبأني ما أكلت قط إلاَّ مع الضيف.

وقالت رابعة البصرية رحمها الله تعالى:

إلّهي! همتي ومرادي في الدنيا من الدنيا ذكرك، وفي الآخرة من الآخرة رؤيتك، ثم افعل بينهما ما شئتَ.

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: رفعت السر إلى مواصلة الحق، فطار بأجنحة المعرفة، بنور الفطنة، في هواء الوحدانية، فاستقبلته النفس، وقالت: أين تذهب؟ أنا نفسك لا بُدَّ لك مني! فلم يلتفت السر إليها.

ثم استقبله الخلق، وقالوا: أين تذهب؟ نحن رفقاؤك وندماؤك، ولا بد لك منا، ومن معاونتنا إياك! فلم يلتفت إليهم.

ثم استقبلته الجنة بكل ما فيها، وقالت: أين تذهب؟ فإني لك، ولا بد لك مني! فلم يلتفت إليها.

ثم استقبلته العطايا والمواهب، والكرامات كذلك، حتى جاوز المملكة، وبلغ سرادقات الفردانية، وجاوز الكلية والأنانية، حتى وصل إلى الحق، وهو المطلوب.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال في بعض مناجاته: يا ربِّ! عجبت ممن يجدك ثم يرجع عنك!.

فقال الله تعالى: يا موسى! إنَّ من وجدني لا يرجع عني، وما رجع من رجع إلا عن الطريق!!.

وقال أبو العباس بن عطاء رحمه الله تعالى: متى ظهرت على عبدٍ الآخرة، فنيتْ في جنبها الدنيا، وبقي العبد مع دار البقاء؛ ومتى ظهرت على العبد مشاهدة الحق تعالى، فنيَ عنده ما دون الحق، وبقي العبد مع الحق.

فراغ القلوب إلا من الله:

وقال رجل لأبي يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ بلغني أن عندك اسم الله الأعظم، أحب أن تعلمني ذلك.

فقال أبو يزيد: ليس لاسم الله حد محدود، ولكنه فراغ قلبك لوحدانيته، وترك الالتفات منه إلى غيره؛ فإذا كنت كذلك، فخذ أي اسم شئت، تسير به من المشرق إلى المغرب، في ساعة ثم تجيء.

قال ذو النون رحمه الله تعالى: كنت حاجًا فإذا شاب يقول:

إلٰهي! قد اجتمع وفدك، وأنت أعلم، فما أنت صانع بهم؟.

فسمعت صوتاً يقول: وفدي كثير، وطلابي قليل.

وسُئل بعضهم: كم بين الحق والعبد؟.

قال: أربعة أقدام: يرفع قدماً من الدنيا، وقدماً من الخلق، وقدماً من النفس، وقدماً من الآخرة؛ فإذا هو ثَمَّ (أي فإذا هو عند الله).

قال السري رحمه الله تعالى: مَن قام على طاعة الله بغير علاقة، سقاه الله شربة من عين محبته، وبلغه إلى مقعد صدق.

قال علي رضي الله عنه: العارف إذا خرج من الدنيا لم يجده السائق ولا الشهيد في القيامة؛ ولا رضوان في الجنة؛ ولا مالك النار في النار.

قيل: وأين يوجد؟ قال: في مقعد صدق عند مليك مقتدر، إذا قام من قبره لا يقول: أين أهلي وولدي؟ ولا أين جبريل وميكائيل؟ والجنة والثواب؟ ولكن يقول: أين حبيبي وأنيسي؟.

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَرىٰ مَا لا يَرَاهُ النَّاظِرُونَا
وَأَلْسِنَةٌ بِسِرٍّ قَدْ تُنَاجِي ... تَدِقُّ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... فَتَأْوِي عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَا
فَتَرْعَىٰ فِي رِيَاضِ الْقُدْسِ طَوْراً ... وَتَشْرَبُ مِنْ بِحَارِ الْمُرْسَلِينَا
عِبَادٌ قَاصِدُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ ... دَنَوْا مِنْهُ وَصَارُوا وَاصِلِينَا

* * *

الحديث الحادي والعشرون:

من مكارم الأخلاق

أخبرنا الشيخ العارف بالله تعالى: سيدي عبد الملك بن الحسين، بن ميمون بن الحسين، الحربوني الواسطي قدّس الله سره، قال: أنبأنا الشيخ الثقة عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد.

أقول: وبهذا السند عن عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد، بزيادة لفظة ابن يوسف بعد أحمد، أجازنا كتابة مولانا الخليفة المفترض الطاعة في الأرض، القائم لله بإحياء السُّنَّة والفرض، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي الهاشمي، أعزّ الله به كلمة الدين والمسلمين، وأيّد باقتداره شريعة سيد المرسلين، عليه صلوات رب العالمين، وعبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد بن يوسف المتقدم ذكره.

قال: أنبأنا أبو الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق قراءة، قال: أنبأنا علي بن أحمد بن علي، قال: أنبأنا عمي الحسن بن علي.

قال محمد بن مرزوق: وقرأت على أبي نصر محمد بن سلمان، أخبركم ذو النون بن محمد بن عامر؟ فأقرَّ به، قال: أنبأنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، قال: حدثنا محمد بن هارون، قال: أنبأنا محمد بن العباس النسي، قال: أنبأنا عمرو بن أبي سلمة، قال: حدثنا صدقة، عن الأصبغ، عن ابن حكيم، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال:

«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ ٱلسُّوءِ، وَإِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ ٱلرَّبِّ، وَإِنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ، تَزِيدُ الْعُمُرَ، وَتَنْفِي الْفَقْرَ»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٣٣٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١)، وفي الأوسط (١/ ٢٨٩)، (٦/ ١٦٣)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٩٣، ٩٤).
وانظر: نوادر الأصول (٢/ ١٢٤، ٣٥٨)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٧٥)، وفيض القدير (٢/ ٤٥٧)، (٤/ ٢٠٦)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٩، ٤٢).

في هذا الحديث الشريف، من مكارم الأخلاق، ما يصعد همّة العارف إلى حضرة ربه، فإن أُسَّ المعرفة بالله: مكارم الأخلاق، وأما سوء الأخلاق، فهو والعياذ بالله من انحجاب السر عن الله تعالى.

أي بني! اعلم أن أعظم مصائب السر، حجابه عن الله تعالى، فكل مَن حلّت به هذه المصيبة، فقد تلاشت سائر مصائبه في جنبها، فإنَّ المحب سكران، والسكران لا يجد حالة سكره وجع المصيبة، فإذا أفاق وجد الألم.

ومصيبة المحجوب عن الله لا تنجبر أبداً، إلا بتجريد السر عن كل ما دون الله تعالى.

ولا وعيد في القرآن أصعب من قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطفّفين: ١٤].

فكم من طاعة حجبت صاحبها عن المطاع؟.

وكم من نعمة قطعت صاحبها عن المنعم.

ورُبَّ نائم رُزق الانتباه بعد رقدته، ومنتبه نام بعد طول الانتباه!.

ورُبَّ فاجر رُزق الولاية، وبلغ منازل الأبرار! وزاهد سقط من ولايته، وسلك مسالك الفجار!.

الحجاب عقوبة البُعد عن الله:

وكم من عامل قد حجبته رؤية أعماله، عن رؤية امتنان ربه، حتى عمي بصره، فصار مبعداً، وهو يحسب أنه واصل؟ ولا مصيبة أشد على العارف من الحجاب، ولو طرفة عين، وأعظم عقوبة على العبد من الله: البُعد والحجاب.

وحُكيَ أن رجلاً من العباد قال: إلّهي! إلى كم أعصيك ولا تعاقبني؟!.

فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: قل له: إلى كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! ألم أحجبك عن لطائف أنسي! ألم أُخرج عن قلبك حلاوة مناجاتي!.

وقال أبو موسى ـ خادم أبي يزيد ـ رحمهما الله تعالى: دخل الشيخ مدينة، فتبعه خلق كثير، فلما نظر أبو يزيد إليهم وإلى ازدحامهم نحوه، قال:

اللهم إني أعوذ بك أن تحجبني عنك بهم، وأعوذ بك أن تحجبهم عنك بي.

* رحمه الله ما أكثر إنصافه! ما أصدقه بربه، ما أشفقه على إخوانه المسلمين، أراد لهم الخير وصحة النظر، كما أراد لنفسه.

تنبّه يا من يريد اجتماع الناس عليه، واعتقادهم به! كم طَيَّرَتْ طقطقة النعال حول الرجال من رأس؟ وكم أذهبتْ من دين؟ اللهم سلِّم، اللهم سلِّم.

اعلم أن الناس أربعة أصناف:

١ - رجل جعل الله قلبه بصيراً، ينظر بنور اليقين إلى لطائف صنعه وكمال قدرته.

٢ - ورجل جعل الله عقله بصيراً، ينظر بنور الفطنة إلى الوعد والوعيد.

٣ - ورجل جعل الله سره بصيراً، ينظر في كل الأوقات بنور المعرفة، إلى الله تعالى.

٤ - ورجل جعله الله مكفوفاً، لا يبصر شيئاً! فهو مظهر قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢].

واعلم أن الكفار محجوبون بظلمة الضلالة، عن نور الهدى.

وأهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة، عن أنوار التقوى.

وأهل الطاعة محجوبون بظلمة رؤية الطاعة، عن أنوار رؤية التوفيق، وعناية المولى، فإذا رفع الله عنهم هذه الحجب، نظروا بأعين النور إلى النور، فعند ذلك يحجبون عن غيره به.

فكل مَن نظر إلى حركاته وأفعاله في طاعة الله، صار محجوباً عن وليها مفلساً.

ومَن نظر إلى وليها، صار محجوباً به عن رؤيتها، لأنه إذا رأى عجزه عن تحقيقها وإتمامها، صار مستغرقاً في امتنانه.

وربما يُحجب برؤية العبادة عن وجدان حلاوتها.

وربما يُحجب برؤية وجدان الحلاوة عن صحة الإرادة.

وربما يُحجب برؤية المِنّة عن المنّان سبحانه.

قال النساج رحمه الله تعالى: مَن رأى نفسه عند الطاعة، لم يتخلص من العجب!.

ومَن رأى الخلق، لم يتخلص من الرياء!.

ومَن رأى الطاعة، لم يتخلص من الغرور!.

ومَن رأى الثواب، لم يتخلص من الحجاب!.

ومَن رأى الربَّ تعالى، فذلك في مقعد الصدق، عند مليك مقتدر.

وقال بكر بن عبد الله رحمه الله تعالى: مَن اشتغل بطرائف الحكمة ودقائقها، صار محجوباً عن حقائقها، وما أعرِفُ معصيةً أضرَّ بصاحبها من نسيان الربِّ، وعلاقة القلب بغيره!.

وقال: كل همٍّ وذكر لغير الله تعالى، فهو حجاب بينك وبين الله.

وفي الخبر: «رُبَّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا الرَّجُلُ لاَ يَكُونُ لَهُ سَيِّئَةٌ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْهَا وَرُبَّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا الرَّجُلُ لاَ يَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا».

قيل في معناه: لأن الحسنة محمودة، والسيئة مذمومة، فما دام العبد في الحسنة مع رؤية الحسنة، فهو في ميدان الدلال والافتخار! وما دام العبد في السيئة مع رؤية السيئة، فهو في ميدان الانكسار والافتقار، وحال العبد في وقت الافتقار أحسن.

قال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «اللهم إني أعوذ بك من الشرك الخفي».

قالت رابعة رضي الله عنها: حجبت الدنيا قلوب أهلها عن الله، فلو تركوها لجالت في ملكوته، ثم رجعت بطرائف الفوائد!.

قيل لسيدي منصور الرباني رضي الله عنه: بأي شيء يعرف العبد أنه غير محجوب عن ربه؟.

قال: إذا طلبه، ولم يطلب منه، وأراده، ولم يُرِدْ منه، وأن لا يختار على اختياره شيئاً، وإن اختار له النار.

وكل من ليس في قلبه سلطان الهيبة، ونار المحبة، وأنس الصحبة، فهو محجوب!.

وقال: كفاك من المعرفة أن تعلم أن الله مطلع عليك.

وكفاك من العبادة أن تعلم أن الله مستغنٍ عنك.

وكفاك من المحبة أن تعلم أن حبه سابق على حبك.

وكفاك من الذكر أن تعلم أن ذكره متقدم على ذكرك.

القلوب إذا قعدت على بساط الهيبة، زالت عنها الشهوات.

وإذا قعدت على بساط المعرفة، زالت عنها الغفلات.

وإذا قعدت على صدق الفردانية بالفرد للفرد، فذلك المقعد الصدق.

* * *

الحديث الثاني والعشرون:

كونوا عباد الله إخواناً

أخبرنا الشيخ الثقة العارف بالله تعالى: عبد الملك بن الحسين الحربوني، قدّس الله روحه، قال: أخبرنا أبو مطيع محمد بن عبد الواحد الأديب، قال: أنبأنا أبو بكر عبد الله بن أحمد بن العباس الباطرقاني، قال: أنبأنا سليم بن أحمد الطبراني، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الديري، قال: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمر، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَكُونُوا إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ» [والحديث بنصه هكذا كما رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمْ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَىٰ هاهُنا، التَّقْوى هاهُنا، التَّقْوى هاهُنا - وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ - بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ: أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ، إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»][1].

---

(1) رواه البخاري (٥/ ١٩٧٦، ٢٢٥٣)، (٦/ ٢٤٧٤)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥)، وأبو داود (٤/ ٢٨٠)، وأحمد (٢/ ٣٤٢، ٤٦٥، ٥٣٩)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٧)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٢٣١)، والطيالسي (١/ ٣٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٣٨)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١٧٩).

وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٢)، وشرح الزرقاني (٤/ ٣٣١)، والنووي (١٦/ ١١٩)، والديباج (١/ ٢١٤).

هذا الحديث الشريف، تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب، فإنه أمر بالتخلي عن الصفة الإبليسية، وهي: الحسد، ثم بالتجرد من الصفة النفسانية، وهي: البغض لغير الله تعالى، ثم بالترفع عن الصفة السافلة الهوائية، وهي: التجسس، ثم بعد أن أكمل درجات التنقية، أمر برؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه، وأن هذا من أمر الله تعالى.

وإذا كملت للعبد هذه الخصال، فقد أحكم شأن المعرفة بالله، ومن هذا السر قول سيدنا عليّ كرّم الله وجهه، ورضي الله عنه: «مَن عرف نفسه، فقد عرف ربه».

ليس منا من التفت إلى غيرنا

أي بني! اعلم أن العبد بين الله وخلقه:

إن التفت منه إلى الخلق، تجرّد عن الحق، وصار متروكاً محروماً مخذولاً.

وإن التفت إلى الله عن الخلق، قرّبه الله وأدناه، وأوصله إلى قربه، فإنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً غار عليه على قدر قربه منه، وحبه له، ولم يحتمل منه الالتفات إلى شيء سواه، فإنه إن نظر إلى شيء دونه، عذّبه الله بذلك الشيء، وجعله وبالاً عليه.

أما ترى إن إبليس لعنه الله، نظر إلى نفسه، وقال عن آدم: أنا خير منه! فلعنه وطرده.

وكذلك نظر فرعون إلى ملكه، وقال: أليس لي ملك مصر؟ فغرقه.

وقارون نظر إلى ماله وقال: إنما أُوتيته على علم عندي! فخسف الله به وبداره الأرض!.

وكذلك الملائكة: نظروا إلى تسبيحهم وتقديسهم حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] فابتلاهم الله تعالى بالسجدة لآدم.

وكذلك كل من قال: أنا، يقول الله تعالى: لا ـ بل أنا، ثم يرده إلى أسفل السافلين.

وكل من يقول: أنت الله، يرفعه إلى أعلى عليين.

والالتفات على وجهين، التفات العين، والتفات القلب.

فالتفات العين مثل ما قال الله تعالى لمحمد حبيبه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

ثم منّ عليه لَمَّا عصمه حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

ثم مدحه بترك الالتفات إلى ما سواه، في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

ثم أورثه ذلك الترك الكلي، أن رفع له الحجاب، حتى رأى ما رأى، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣].

وأن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال: انظر إلى الجبل، ولن تراني بعد أن نظرت إلى غيري.

كان بعض العارفين، يطوف حول الكعبة، فناداه واحد، فخطر بباله أن يلتفت إليه، فسمع هاتفاً يقول: ليس منّا من التفت إلى غيرنا!.

وحكي أن آخر، كان يطوف حول الكعبة، فنظر إلى امرأة، فظهرت يد من الهواء وفقأت عينه!.

ثم نودي: نظرتَ بعينك إلى دوننا ففقأناها، ولو نظرتَ بقلبك إلى غيرنا لكويناه!.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من نظر من توحيده إلى نفسه، لم ينجه التوحيد من النار.

ومَن التفت من الصلاة إلى غيرها، فقد سقط عن درجة المصلين.

ومَن التفت من وقته إلى وقته، ذهب عنه الوقت وهو لا يشعر.

وفي الخبر: إذا التفت العبد في الصلاة، يقول الله: عبدي تلتفت إلى من هو خير لك مني؟! أقبِل. ولا تُعرض بوجهك عني، فإني إذاً أُعرضُ عنك!.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أتاني جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا، فلم ألتفت إليها ولم أقبلها**».

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت وقد منع الكونين عني، ومنعني أن أنظر إليهما.

وقال العارف السريُّ السَّقطي رضي الله عنه: كنت في طلب صديق لي ثلاثين سنة، فلم أظفر به، فمررت يوماً في بعض الجبال، فإذا هو قائم على صخرة، فدنوت منه وأخذت ذيله، فقال: خلِّ عني يا سَرِي! فإن الحق غيور، فلا يراك تأنس بغيره، فتسقط من عينيه!.

وحكي أن رابعة ـ رحمها الله تعالى ـ كانت في طريق مكة، فأقبل إليها رجل وقال: يا هذه! كُلِّي بكلِّك مشغول.

فقالت: إن كنتَ صادقاً، فكلِّي لكلِّك مبذول! إلاَّ أنَّ لي أختاً أحسن مني وهي وراءك! فالتفت الرجل، فلطمته رابعة على وجهه! وقالت:

إليك عني يا بطال! ادَّعيت محبتنا، ثم نظرت إلى غيرنا؟ رأيتك من بعيد فقلت: وجدتُ عارفاً، فلما تكلمتَ قلتُ: وجدتُ عاشقاً، فلما جرّبتك وجدتك كذاباً!.

ما رأيت معك صفاوة العارفين ومروءتهم، ولا طريقة العاشقين وصيانتهم.

فصاح الرجل، وجعل التراب على رأسه، وقال: ادَّعيتُ محبة مخلوق فأعرضتُ عنه، جاءت اللطمة على وجهي! فأخاف أن أدعي محبة الخالق، فإذا أعرضت قلبي أن تكون اللطمة على قلبي.

وأما الالتفات بالقلب، فقد حُكي أنه كان لفتح الموصلي صبي، فيوماً من الأيام عانقه وقبله، فنودي من الهواء: يا فتح! ادَّعيتَ محبتنا وفي قلبك حب غيرنا؟ فصاح صيحة، خرَّ مغشياً عليه.

ونظرت رابعة البصرية إلى رباح القيسي، وهو يقبل صبياً من أهله، فقالت: أتحبه؟ قال: نعم، قالت: ما كنت حسبت أنَّ في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره؟.

ففزع القيسي فزعاً شديداً حتى غشي عليه، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه.

قال ﷺ: «**لو كُنتُ مُتَّخذاً خَليلاً غَيرَ رَبِّي لاتَّخذْتُ أبا بَكرٍ خَليلاً، ولٰكِنْ أُخوَّةُ الإِسلامِ وَمَوَدَّتُهُ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (١/١٧٧)، (٣/١٣٣٨)، ومسلم (٤/١٨٥٤، ١٨٥٥، ١٨٥٦).

وحكي أن داود عليه الصلاة والسلام، استقبله رجل في بعض سياحاته، فقال: أين تريدُ؟.

قال: استوحشت عن الناس، واستأنست بالله.

فقال له الرجل: هذا مِنْ قِبَلكَ أو مِن قِبَل الله؟.

قال: فسقط داود مغشياً عليه، ثم أفاق وقال: نبّهك الله كما نبّهتني؟.

وقال بعضهم: إن الله تعالى أمر قوم موسى بقطع رؤوسهم حين سجدوا للعجل، بعد أن سجدوا لله تعالى.

فقال: رأس سجد لي، ثم سجد لغيري، فلا يصلح لي، فكذلك القلب.

وبلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام قال: أوتيت ما أوتي الناس، وما لم يؤتوا، وهممت بما همَّ به الناس، وما لم يهمُّوا، فوجدت الأشياء كلها لله، والأمور كلها بيد الله، والحاصل من الدارين وما فيهما هو: الله.

* فلا ينبغي لمن ادّعى محبته، أن يكون في قلبه حب لغيره. قالت رابعة رحمها الله تعالى:

يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ مَنْ لِي سِوَاكَا ... اِرْحَم الْيَوْمَ مُذْنِباً قَدْ أَتَاكَا
يَا حَبِيبِي وَصَفْوَتِي وَرَجَائِي ... كَذَبَ الْقَلْبُ إِنْ أَحَبَّ سِوَاكَا
يَا أَنِيسِي وَمُنْيَتِي وَمُرَادِي ... طَالَ شَوْقِي مَتَى يَكُونُ لِقَاكَا

* * *

الحديث الثالث والعشرون:

كل الخير من كتاب الله

أخبرنا شيخنا الشيخ الكبير، العارف بالله تعالى، القاضي المقري: أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسين عاصم بن الحسن بن المقري، قال: حدثنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد، قال: أنبأنا مهدي بن إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا محمد بن عبيد الله بن المناوي، قال: أنبأنا شبابة - يعني ابن سوار - قال: أخبرنا شعبة بن علقمة بن مزيد، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمٰن السُّلمي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«خَيرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1].

هذا الحديث الشريف، يفيد أن الخيرية قد صحّت لمن تعلّم القرآن وعلّمه، لما في القرآن العظيم من بالغ الحكم وغامض السر، وخطير الشأن.

وهو حبل الله الأعظم، به يهتدي المهتدون، ويصل الواصلون.

وهو خُلُقُ رسول الله ﷺ، وبابُ الله تعالى، والمعجزة الدائمة، والنور الذي لا ينحجب.

وعنه تأخذُ أرواحُ العارفين أسرار المعرفة، وأما المعرفة التي لم ترجع إليه، فما هي إلاّ زور وضلالة.

ومتى تحقق العبد بالعلم بالقرآن العظيم، فقد صار عارفاً، وانكشفت له الأسرار الربانية، الملكية والملكوتية.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٩١٩)، (١/ ٥٥٨)، وأبو داود (٢/ ٧٠)، (٣/ ٣٢٣)، (٤/ ٣٠٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٧)، وابن ماجة (١/ ٧٦، ٧٧، ٩٢)، وأحمد في المسند (١/ ٥٧، ٥٨، ٦٩).
وانظر: الفتح (٤/ ١٧١)، (٩/ ٤٩، ٦٦)، وشرح النووي (٢/ ٧٧)، (٦/ ٩٧)، والديباج (١/ ٩٨).

ومتى صار عارفاً حنّ وأنّ، وطلب زيادة العلم بالله، من كل طريق، ومن كل فن، وكل الطرق والفنون في القرآن العظيم.

والعارفون هم الراسخون في العلم، يقولون: آمنا به، وإليه منتهى سير هممهم، وعنه يصدرون، وبه يهيمون، ومنه يأخذون.

ولذلك يقال فيهم: ندماء الحق، وبهذا السر يفرّقون بين الباطل والحق.

استدراج الله تعالى ومكره:

أي بني! اعلم أن الله تعالى ربما يزين أعداءه بلباس أوليائه وأصفيائه، حتى إنهم يغترُّون بصفاء الأوقات، ويحسبون أنهم من أهل ولايته! فهذا من الله لهم استدراج.

وربما يزينهم بالعز والجاه والرياسة، والمنزلة عند الناس، حتى يغتروا بثناء الناس ومحمدتهم، ويحسبون أنهم من أهل فضله! فهذا أيضاً من الله استدراج لهم.

وكذلك ربما يزينهم بأنواع لطائف الحكمة، فيغترون بحسن بلاغتهم، وكمال فهمهم وفطنتهم، ويحسبون أنهم أحاطوا بكل حقيقة علماً، فهذا لهم من الله استدراج.

وربما يزينهم بلباس النعمة، ويغرقهم في أنواع النعم، فيغترون بحسن تجملهم، وطيب عيشهم، ويحسبون أنهم على شيء من الله، فهذا لهم من الله استدراج.

ولا يتركهم حتى يردهم إلى حقيقة معلومة، قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٨٢].

فهذا ما كدّر عيش المريدين في دار الدنيا، حتى دام كمدهم، واصفرّت ألوانهم، وذابت نفوسهم، ودهشت عقولهم، وطارت أفئدتهم، وانشقت مراراتهم، وفقدوا من الخلائق، وواجب على كل ذي عقل ومعرفة: أن يحذر مولاه، كما حذر نفسه بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨].

وكما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥].

وقال ﷺ: «**المؤمن لا يسكن اضطرابه، ولا تأمن روعته، حتى يخلف جسر جهنم**».

* ألا إن الله تعالى غيَّبَ مكره في حلمه، وخداعه في لطفه، وعدله في كرمه، وخذلانه في أنواع نعمه، وسخطه في ميل ستره، وقطيعته في إمهاله.

فينبغي للعبد أن لا يعتمد على حسن أوقاته، وكثرة حسناته، فكم من أحد تراه في زي المريدين، وهو في علم الله من المطرودين! ولا يشعر أن الله ـ تعالى ـ ربما يُزيِّن عدوّه بلباس أوليائه، ثم يرده آخر الأمر إلى بُعْدِه.

وربما يكسو وليه لباس الأعداء، ثم يرده آخر الأمر إلى حقائق كرمه، لأنه هو يُبدىء ويُعيد.

يعني: يبدىء على أوليائه صفات أعدائه، وعلى أعدائه صفات أوليائه، ثم يعيدهم إلى حقائق معلومة، وهو الفعّال لما يريد، بإظهار فضله في أهل عدله، وإظهار عدله في أهل فضله.

ألا ترى أن الله تعالى زيّن إبليس بزينة عصمته، وهو في سابق علمه من أهل اللعنة؟ ستر عليه ما سبق منه إليه، حتى أظهر أمره في العاقبة.

وكذلك زين «بلعام» [وهو رجل من بني إسرائيل جحد فضل الله تعالى] بأنوار ولايته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه.

وأغرق قارون في بحار نعمته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه.

لا يغرنك بالله أربعة أشياء:

١ ـ إظهاره لك ما لم تعلم.

٢ ـ وستره عليك بما قد عملت.

٣ ـ وزيادته لك فيما لم تشكره.

٤ ـ وإعطاؤه إياك ما لم تسأله.

فإنه ربما أراد الله تنبيهاً لك أو استدراجاً.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى:

مَن رأى صنع الربوبية، عند إقامة العبودية، انقطع عن نفسه، واعتصم بربه، وفوّض أمره إليه، فحينئذ يسلم من آفات الاستدراج.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

يا معشر المستورين بالنعم والعِصَم! لا تغترُّوا، فإن تحتها آفاتِ النِّقَم.

لا تغترُّوا بعمارة الأوقات، فإن تحتها غوامض الآفات.

ولا تغترُّوا بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية.

والأمر كما قال، فَيا رُبَّ مستدرج بالإحسان إليه، ويَا رُبَّ مغتر بالثناء عليه، ويا رُبَّ مفتون بالنعم عليه، ويَا رُبَّ مستهلك بالستر عليه!.

فمَن لم يكن باطنه في ملازمة الحق تعالى عين ظاهره، كان شكه أغلب من يقينه، وإن كان ظاهره يدل على أوصاف الموقنين، وفقدان أنوار الباطن من رؤية حركات الظاهر، والغفلة عن غوامض آفات الاستدراج من رؤية صفاء العبودية.

فليس للموفق أن يعتمد، ولا للمخذول أن ييئس.

واستدراج أهل الذنوب الركون إليها، والإصرار على الإعراض عن الله سبحانه.

واستدراج أهل العلم: طلب الجاه والمنزلة عند الخلق.

واستدراج أهل الاجتهاد: الاستكثار والإعجاب.

واستدراج المريدين تطلعهم إلى العطايا والكرامات، وسكونهم إليها.

واستدراج العارفين: استغناؤهم بالمعرفة دون المعروف، حتى جعلوا لها حداً وغاية ونهاية، وظنوا أنهم قد أحاطوا بها! فكل من كان منزلته أرفع، كان استدراجه أعظم وأدق.

كم من مذكِّرٍ لله، ناسي الله!.

وكم من مخوف بالله، جريء على الله!.

وكم من داعٍ إلى الله، بعيد من الله!.

وكم من تالٍ كتاب الله، منسلخ من آيات الله؟.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: لو كنت تركت الدنيا وافتخرت بتركها، فالفخر أعظم من إمساكها.

ولو تركت عيوب النفس وأعجبت بتركها، فالعجب عيبه أكبر.

ولو جهدت وتعلقت بجهدك، فتعلقك أعظم الاستراحة.

ولو خفت وأمنت على أنك خفت، فالأمن من الخوف أكبر.

ثم قال: رؤية القرب في القرب، أقرب البُعد.

ورؤية الأُنس في الأُنس أعظم الوحشة.

ورؤية الذكر في الذكر أشد النسيان.

ورؤية المعرفة في المعرفة أكبر النكرة.

وقال بعض أهل المعرفة: كلما ظننت أني وجدت، فحينئذ فقدت، وكلما ظننت أني فقدت فحينئذ وجدت.

إلّهي، إن تركتُك طلبتني، وإن طلبتك طردتني، لا معك قرار، ولا مع غيرك أنس، فالمستغاث منك إليك.

وقال أبو يعقوب رحمه الله تعالى: أجهل ما يكون العبد بالله، إذا ظنّ أنه استغنى عن الدنيا بالمعرفة.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: ذنب افتقرتَ به إليه، خير من طاعة افتخرت بها عليه.

وكان فضيل كثيراً ما يبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُمَر: ٤٧] يقول: عملوا أعمالاً حسبوا أنها حسنات، فإذا هي سيئات! حين يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون!.

* **أي بني!** المعرفة مستقر ومستودع، مستقر في قلوب الأولياء، ومستودع في قلوب الأعداء، ثم يسلب في آخر الأمر، فليس للموفق أن يعتمد على توفيقه، ويأمن من مكره، ولا للمخذول أن ييأس من روح ربه.

وربما يرى الرجل للرجل الرؤيا الصالحة، وهو استدراج من الله تعالى.

كما حكي أن رجلاً من أهل الشام، أتى إلى العلاء بن زياد وقال له: إني رأيتك في المنام، كأنك من أهل الجنة.

فترك مجلسه وأخذ في البكاء، وقال: لعل الله أراد أمراً؟.

أصل الاستدراج نسيان الله:

قيل: أصل الاستدراج نسيان الحق، والاستغناء بمَن دونه، والتعلق بما سواه، والالتفات منه إلى غيره.

وليس على تحقيق في المعرفة مَن يغتر بكثرة العلم والعمل، لأن إبليس كان معلم الملائكة، ثم في آخر الأمر نظر إلى نفسه وعبادته.

وترك أمراً من أوامر الله، فصار من الملعونين المطرودين أبد الآبدين.

وإياك أن تغتر بعمارة الأوقات، وصفاء الأحوال، فإن «برصيصاً» (رجل كفر بالله بعد إيمانه)» و«بلعام» كانا أعْبَدَ الناس في زمانهما وأحسنهم حالاً! وفي آخر الأمر مالا إلى النفس والهوىٰ، فصارا مفتضحين في الدنيا والآخرة!.

ولا تغتر بصحبة الصالحين والزهاد، بغير الحرمة والمتابعة لهم، فالصحبة لو نفعت، لنفعت امرأة نوح، وامرأة لوط، ولأن الاغترار مدرجة من مدارج الاستدراج.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝﴾ [الانفطار: ٦].

وذلك أن الشيطان ربما يأتي الزاهد ليغره، فيقول: يا ولي الله! ويا خيرته من خلقه! أما ترى من ربك هذه الكرامات والعطايا، والقرب والأُنس!.

أما تدري ما ألهمك ربك من كلام أهل المعرفة، وحقائق أنواع الإشارات! فهل يكون مثل هذا إلا لأهل محبته، أما ترى حال قربك معه، وكمال لطفه بك، وأنك لو أقسمت على الله لأبرَّك!.

ولا شك أن الملائكة ينظرون إلى حركاتك وسكناتك، وحسن أحوالك، وقد رجح فضلك على أهل زمانك، فما أغفل الناس عما أنت فيه!.

حتى يغره بأنواع مكره وخديعته، فإن تداركه الله بالفضل والرحمة، وبصره بمكائد عدوه، وعرج ملتجئاً بسره إلى سرادقات قدرته، فعند ذلك يسلم من درجات آفات الاستدراج.

واعلم أن قلوب أهل المحبة، لا تزال تموج من خوف الاستدراج كما تموج البحار، حتى يصير كلُّ ما فيه بالله لله.

ورأيت مكتوباً على عصا واحد.

كُلُّ ذَنْبٍ لَكَ مَغْفُو ... رٌ سِوَىٰ الإِعْرَاضِ عَنِّي

فقلت:

إِنْ كُنْتُ أَعْرَضْتُ فَقَدْ تُبْتُ ... عُدْتُ إِلَىٰ الْوَصْلِ كَمَا كُنْتُ
وَلَيْسَ لِي جُرْمٌ سِوَىٰ أَنَّنِي ... نَظَرْتُ فِي الْحُبِّ فَعُوقِبْتُ

* * *

الحديث الرابع والعشرون:

أحبوا الله

أخبرنا شيخنا الإمام فرد الوقت، الباز الأشهب خالي: أبو المكارم منصور، البطايحي الرباني، رضي الله عنه، قال: أنبأنا القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن المهتدي، قال: أنبأنا أبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، قال: أنبأنا أبو الحسين أحمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد الحربي، قال: أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن علي، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَحِبُّوا ٱللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ ٱللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»[1].

وبهذا الحديث الشريف نظام التصفية، فمن أدركها فقد أدرك الصفاء، والتحق بأهل الاصطفاء.

أي بني! اعلم أن للصفاء ظهراً وبطناً، فأما ظهرها: فأن تصفِّيَ كليتك من أدناس النفس والخلق والدنيا، وأما بطنها: فأن تصفي كليتك من غبار رؤية الأعمال، وطلب الأعواض على الأعمال، والالتفات منه إلى ما سواه.

روي أن النبي ﷺ قال: **«أسرَارَكم أسرَارَكم، فإنها عند الله بَواد»**.

ويقال: جديدك مع الله لا تُخلِقه مع الناس، وصفاؤك مع الله لا تكدره مع الناس.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٦٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٦٢)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤٦)، (١٠/ ٢٨١)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٦٦)، (٢/ ١٣٠)، وفي الاعتقاد (١/ ٣٢٨)، والحكيم الترمذي (١/ ١٤٩).

وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى: دخلت مكة، فاستقبلني عطاء بن أبي رباح، وسلم عليَّ، ثم أقبل على الناس فقال: تسألوني عن العلم، وفيكم يحيىٰ بن أبي كثير!.

قال: فتضرعت إلى الله أربعين يوماً، إلى أن يذهب حلاوة هذه المقالة من قلبي!.

ويروى أن النبي ﷺ قال: «**ألا إن أوَاني الله في الأرض هي القلوب، فأحب الأواني إلى الله تعالى: أصفاها وأصلبها وأرقها**».

معناه: أصفاها لله عند المراقبة، وأصلبها في دين الله عند المخاطبة، وأرقها على الإخوان عند الموافقة.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: لما اشتغل قلب مريم بحب ابنها، سمعت صوتاً: لما كان سرك صافياً لنا، كنا نرزقك في الشتاء والصيف، من غير واسطة، ولا شدة، ولا عناء.

فلما ميَّلْتِ سرك عني فلا يأتيك رزقك إلاَّ بشدة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: اعلم أن العبد إذا لم يُصَفِّ وقته لله تعالى في إقامة العبودية، انقطع عن الله وهو لا يشعر؛ فمَن اجتهد في صفاء معاملة الظاهر، أورثه الله صفاء معاملة الباطن.

ومعنى قوله: انقطع عن الله وهو لا يشعر. قول أبي زيد رحمه الله تعالى: مَن ظنّ أنه بالحال يصل، فبالحال ينقطع، ومَن طلب الأنس بالحال، فبالحال يستوحش.

قال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: إنَّ الله تعالى حكم على أصفيائه وأحبابه، أن لا يخرجون من الدنيا إلاَّ وطوق العبودية في أعناقهم.

وبحق أقول: ما اشتغل أحد بغيره إلاَّ ضاع عمره، وذهبت عنه صفاوة الوقت؛ فمَن أراد صفاوة الوقت، فليؤثر الله على شهوته.

وقيل لواحد: ما حقيقة صفاوة الوقت؟.

فقال: تصفية الكلية، لخلاَّق البرية، بوفاء صدق العبودية.

قال الأنطاكي رحمه الله تعالى: إن وجدت ريناً في قلبك فأدم الصيام، فإن وجدت ريناً فأقل الكلام، فإن وجدت ريناً، فاترك الآثام، فإن وجدت ريناً فأكثر البكاء والتضرع إلى الملك العلاّم.

ويقال: الجهل كله موت، إلا من يرزقه الله العلم؛ والعلم كله حجة، إلا مَن وفقه الله للعمل به؛ والعمل كله هباء منثور، إلا أن يكون صافياً لله؛ وأهل الصفاء على خطر عظيم، إلا أن يُسَلِّموا ذلك إلى الله تعالى بلا عيب.

ويجب على العبد أن ينظر في حال أكله وشربه، ولباسه وكلامه، وحركاته وإرادته: فيدع منها ما كدر، وليأخذ ما صفا؛ لأن صفاوة الأوقات على قَدْرِ صفاوة الأحوال.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨، ٨٩].

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: إن لله عباداً، يبلغون في درجة الصفاء مقاماً تقع فيه فراستهم على سر الناس، فيعرفون السعداء من الأشقياء: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥] من عباده.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما فضل أهل الصفاء على غيرهم؟.

قال: رفع الحجاب عنهم، واتهام الوشاة فيهم، وإفشاء الأسرار إليهم.

قيل: هل يكون لأهل الصفاء حلاوة العبادة؟.

قال: أما قبل رؤية المِنَّة فنعم، وأما قبل رؤية العبادة: فلا، بلا تعليق.

وقيل لبعضهم: متى يعرف الرجل أنه من أهل الصفاء؟.

فقال: إذا ستر جميع المعاصي بستر التوبة، وستر جميع الخيرات بذكر ستر المِنَّة، وستر ما دون الله بستر الله تعالى.

حال أهل الصفاء:

وحكي أن بهلولاً كان لا يأخذ شيئاً من أحد، وإنْ أكثر عليه الإلحاح، فقيل له في ذلك، فقال: أمرنا أن لا نأخذ بالواسطة، لأن منها ذهاب الصفاء. قيل: وما الصفاء؟.

قال: طيران القلب بأجنحة الاشتياق لرب العالمين.

ويقال: أدنى أوصاف أهل الصفاء، عيش القلب مع الله بلا علاقة، ومَن لم يعرف نفسه بالفقر والفاقة، والعجز والضعف لم ينل صفوة اليقين.

وإذا كان العبد لله تعالى كأن لم يكن، يكن الله تعالى له كما لم يزل.

وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى: طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة، لا يريد بها إلا الله تعالى.

وقال الإمام معروف الكرخي رضي الله عنه: بينا أنا أسير في البادية، لم يكن معي أحد من البشر، إذ نزل شخص من السماء، فسألني: ما الصفاء؟ فقلت: صدق الوفاءِ، فقال: صدقت!.

ثم عرج وهو يقول: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾ [الإنسان: ٧].

أما ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وضع قدماً واحداً بصدق الوفاء، على صخرة صمَّاء، فأمر الله تعالى أن اتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى!.

وحقيقة الصفاء: التخلق بخُلُق المصطفى ﷺ، والاقتداء بأصحابه أولي الصدق والوفاء، والانقطاع إلى الملك الأعلى.

وقيل: حقيقة الصفاء، طرح القلب على بساط الامتنان، واستقامة السر مع الملك الديّان.

وقيل: تصفية القلوب لعلاّم الغيوب.

وقيل: صدق الافتقار، مع دوام الاضطرار؛ وترك الاختيار، مع حسن الانتظار.

وقيل: فناء الكلية تحت كمال القدرة، وطيران الهمة بأجنحة الشوق نحو رب العزة.

وقيل: هجرة السر إلى الله من المراتب والدرجات، والفرار إلى الله من المنازل والمقامات.

وقيل: هي مجانبة دواعي النفس، ومتابعة دواعي الروح، وإخماد صفات البشرية، تحت صفات الربوبية.

* * *

الحديث الخامس والعشرون:

الله يضاعف الصدقات

أخبرنا شيخنا القاضي العدل، الثقة المقري الكبير الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي، رحمه الله رحمة واسعة، قال: أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد الكاتب، قال: أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد الغيلان، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، قال: أخبرنا محمد بن غالب، قال: حدثني عبد الصمد بن ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إلاَّ الطَّيِّبَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّىٰ تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[1].

حثَّ هذا الحديث الشريف على بذل المعروف، ونبّه على لزوم الإخلاص فيه، وبشّر بعد الإخلاص بمضاعفته وقبوله، وكل هذا انطوى في الإخلاص، وهو نور العارفين بالله، إذ الأعمال بغير الإخلاص كلها ظلمة، وبه تتنور، وبذلك ارتفعت همم العارفين في الأعمال إلى الإخلاص: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣].

إلاَّ أن المتحققين بالتصوف، صفتْ سرائرهم، وحسنت شعائرهم؛ هممهم ربهم، وَخُلُقُهُمْ سُنَّةُ نبيهم ﷺ عكسَ أهل المروق من أصحاب الدعوى.

أي بني! إذا نظرت في القوم الذين ادَّعوا التصوف اليوم، رأيت أن أكثرهم من الزنادقة، والحرورية، والمبتدعة!.

ورأيتهم أكثر الناس جهلاً وحمقاً، وأشدهم مكراً وخديعة، وأعظمهم عجباً وتطاولاً، وأسوأهم ظناً بأهل الزهد والتقوى، وأهل الصدق والصفاء.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥١١)، (٦/ ٢٧٠٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣١)، ومالك (٢/ ٥٩٥).

وانظر: الفتح للحافظ (٢٣/ ١٧٢)، وحاشية ابن قيم (١٣/ ١٤)، وشرح الزرقاني (٤/ ٥٣٦)، وتنوير الحوالك (١/ ٢٨٥).

وعلامات أهل الصفاء؛ أدق من أن يصفها واصف، وأعلى من أن تحتملها الأوهام.

علامات الصفاء الصوفي:

فمن علامة الصوفي: أن يصفو في أقواله، وأفعاله، وحركاته من أدناس آفات النفس، والْخَلْق، والدنيا.

وتصفو خواطره من غبار الإعراض عنه تعالى، والنظر منه إلى من سواه.

وأيضاً من علاماته: أن يكون مع النفس بلا نَفْس، ومع الخلق بلا خَلق، ومع القلب بلا قلب، ومع الحال بلا حال، ومع الوقت بلا وقت.

ويكونُ مستقيماً على بساط أمر الله، متذللاً تحت جلال عظمة الله، مستكفياً مستغنياً به عن غيره.

قلبه مضروب بسياط خوف القطيعة والهجران.

وسره مضروب بسياط خشية البُعد والحرمان، نفسه منوَّرة بنور الخدمة، وقلبه منوَّر بنور المحبة، وسره منوَّر بنور المعرفة.

ومن علامته أيضاً: أن يكون فؤاده طائراً بأجنحة الشوق.

وأركانه مستقيمة على طريق الحق بالحق للحق، مع حسن الانتظار، وعلى غاية الانكسار، مقبلاً بالكلية على مليكه، مع ترك الالتفات منه إلى ملكه، مع الفرار من المخلوقين، لشدة وجدَانِهِ حلاوةَ الأُنس بربِّ العالمين.

رجوعه إلى الحق، واعتماده على الحق، وقراره مع الحق، من غير أن يلتفت منه إلى الخلق.

وحشي القلب، سماوي الحديث، رباني العلم، فرداني الهمّة، روحاني العيش، نوراني القَدَر، وحداني المعنى.

جميع إرادته تحت إرادة المعبود، شاكراً لله في السر والإعلان، كي لا يقع في أبحر الكفران، ذاكراً لله بالقلب واللسان، في كل وقتٍ وأوان، كيلا يتيه في مفاوز النسيان.

يعلم أن المولى يراه، ومن فوق العُلىٰ يرعاه، فهو فانٍ تحت عظمة نظره، متلاشٍ بكليته تحت كمال قدرته، مستغرق صفاء أوقاته في أبحر امتنانه، مع سقوط كل حلاوة، غير حلاوة محبة ربه.

مستقيم على صدق العبودية، من غير رؤية العبودية، فارغ القلب عن الشغل بغير الله، مع الاتكال بالقلب على الله، متواضع لأهل الإيمان، قائم على بساط الأحزان، حتى يأتيه اليقين (الموت) بالعفو والرضوان.

لسانه مثل قلبه، يصدق في جميع أقواله وأفعاله، لا كما قال الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

شاكر لقليل النعمة، صابر على كثير الشدة، راض بقضاء ربِّ العزة، دائم على احتراس القلب لله بالحجة.

لا يخاف دون الله، ولا يرجو غير الله، ولا يريد إلاَّ الله؛ لِمَا علم أنه لا مضر ولا نافع، ولا رافع ولا دافع، ولا معزٌ ولا مُذِلَّ، إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له.

متابع لسُنَّة المصطفى ﷺ، وأخلاقه، ومذاهب أصحابه.

خائف من سوء العاقبة، مشتغل بالمقدِّرِ إذا اشتغل الناس بالتقدير، وبالمدبِّر إذا اشتغلوا بالتدبير، جالس على بساط الخدمة مع الحياء، متكيء على سرير الفقر والفاقة، مشرف على غرف القرب والمشاهدة، شارب بكأس الأُنس والمحبة، يطيل صمته، ويكظم غيظه، ويغلب شهوته، ويفارق راحته، من غير أن يلتفت إلى معاملة قلبه.

فارغ من مصالح نفسه، تارك لجميع راحاته وشهواته، خائف من الوحشة بينه وبين حبيبه، يكون أحسن الناس للناس وأتقاهم، وأصدق الناس وأصفاهم، وأعقل الناس وأرعاهم، ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، وإلى النفس بعين الاحتقار، وإلى الآخرة بعين الاستبشار، وإلى الرب بعين الافتخار.

في الاستقامة كالجبل الراسي، لا تحركه الرياح الهائجة، لا يطلب ما ليس له، ولا يهتم بما قُسِمَ له، فارغ عن خدمة المخلوقين، مشتغل بخدمة رب العالمين؛ لا يعرض عنه ببلواه، ولا يختار حبيباً سواه.

نفسه طاهرة من كل خطأ وزلة، وقلبه متبرىء من كل سهو وغفلة، وسره من كل حول وقوة، بدون الله ـ سبحانه ـ لا يرضى.

طعامه طعام المرضى، وبكاؤه بكاء الثكلى، لا يتوكل قلبه إلا عليه، ولا يسلم إلاَّ إليه، يشكر النعمة إلاَّ له، ولا يطلب الحاجة إلاَّ منه.

مستأنس بالله في جميع الأحوال، منقطع إليه في جميع الأعمال.

وَذِكْرُ اللَّهِ حديثُهُ في جميع المقال، تارك اختياره إلى ذي الجلال.

نومه قليل، وحزنه طويل، وبدنه نحيل، وأنيسه الملك الجليل؛ حسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

الحديث السادس والعشرون:

صيام الدهر

أخبرنا شيخنا العارف بالله، خالي الشيخ: أبو بكر بن يحيى النجاري، الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: حدثني الأستاذ أبو القاسم علي بن أحمد البسري، قال: أنبأنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي، قال: أنبأنا محمد بن مخلد العطار، قال: أنبأنا محمد بن علي بن خلف، قال: أخبرنا عمرو بن عبد الغفار، عن حسن بن حُيي وسفيان الثوري، عن سعد بن سعيد، أخي يحيى بن سعيد، عن عمر بن أيوب، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّال، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»[1].

وسر ذلك: استغراق العبد في أداء الفرض، وانغماسه في السُّنة المحمدية، فإنها بركة الوقت، وليس عند العارف أهم من استحصال بركة الوقت، بِفَرْضٍ أو سُنَّةٍ، أو جمع بينهما، وهناك منتهى الهمم، فإن السُّنة المحمدية روح العارف، بها يقوم، وبها يقعد، وهي منار ألبابِ العارفين، فإن مشيد أركانها، ورافع بنيانها ﷺ لم ينطق عن الهوى؛ بل هو جلجلة: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧] ولورّاثه العارفين هذه الحصة، من بركة اتباعه؛ أرواحنا وأرواح العالمين فداه.

قلوب العارفين خزائن الله في أرضه:

أي بني! اعلم أن قلوب أهل المعرفة خزائن الله في أرضه، يضع فيها ودائع

(١) رواه البخاري (١/ ٢٢)، (٢/ ٦٧١، ٦٧٢)، ومسلم (١/ ٥٢٣)، (٢/ ٨٢٢)، والترمذي (٣/ ٦٧، ١٣٢)، (٤/ ٦٧٥)، وأبو داود (٢/ ٤٩، ٣٢٤)، والنسائي (٤/ ١٥٦، ١٥٧)، وابن ماجة (١/ ٤٢٠)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٢، ٢٤١، ٣٨٥).
وانظر: الفتح (٤/ ١١١، ١١٣)، والتمهيد (٧/ ١٠١)، وحاشية ابن قيم (٧/ ٤٩)، وشرح النووي (٧/ ١٩٩)، (٨/ ٥٦)، (١٤/ ١٦٣).

سره، ولطائف حكمته، وحقائق محبته، وأنوار علمه، وآيات معرفته، التي لا يطَّلع عليها مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، ولا أحد دون الله، بغير إذنه سبحانه.

فينبغي أن يكون العارف عالماً بصلاحه وفساده، مستقيماً على معاملته، عارفاً بربحه وخسرانه، حافظاً له من مكابدة عدوه، مستعيناً بالله في ذلك كله، وأن لا يدع في قلبه مكاناً لغيره، فإن الله تعالى إذا اطَّلَعَ على قلب، فرأى فيه غيره! مقته وخذله، وسلّط عليه العدو.

ومعاملة القلوب لله خاصة، ومعاملة الأركان مختلطة، ومعاملة القلوب تُقبل بغير الأركان، ومعاملة الأركان لا تقبل بدون القلب، ولا تستوجب الثواب؛ فإن كان العبد في معاملة القلب مقصراً، وفي معاملة الأركان موفراً، حكم على توفير أحكامه بتقصير قلبه، وإن كان في معاملة القلب موفراً، وفي معاملة الأركان مقصراً، حكم على تقصير أركانه بتوفير قلبه.

روي أن موسى عليه الصلاة والسلام: مرَّ بقوم من بني إسرائيل قد لبسوا المسوح، وقد جعلوا التراب على رؤوسهم، ودموعهم منحدرة على خدودهم.

فبكى عليهم رحمة لهم! وقال: إلَهي! أما ترحم عبادك؟ أما ترى حالهم؟.

فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى! أُنظر هل نفدت خزائني، أوَ لستُ بأرحم الراحمين؛ كلا، ولكن أعلمهم بأني بذات الصدور خبير، يدعونني بقلوب خالية عني، مائلة إلى الدنيا.

وروي أنه ﷺ مرَّ برجل ساجد على صخرة، منذ ثلاثمائة سنة، كان يبكي ودموعه تجري على الأودية، فوقف عليه وبكى لبكائه، وقال: يا إلَهي! أما ترحم عبدك.

فقال الله تعالى: لا أرحمه، قال: ولِمَ يا إلَهي؟ قال: لأن قلبه يستريح إلى غيري، وكان له جبة يستتر بها من الحر والبرد!.

وقال النبي ﷺ: **«لا يستقيم عمل العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»**.

إذا فقد العبد قلبه فقد ربه:

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: **«ألاَ وَإنَّ في الْجَسَدِ مُضْغَة، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فسدت فسدَ الجسد كله، ألا وَهِيَ الْقَلْبُ»**.

وقال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى! قل لبني إسرائيل: أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب وَجِلة، وأبصار خاشعة، وأبدان نقية، ونية صادقة.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: قلب المؤمن مضغة جوفانية، حشوها جوهرة ربانية، حولها روضة فردانية، تحتها ساحة نورانية، والله تعالى ناظر إليها في كل لحظة بالرحمة والشفقة، ويحول بينها وبين ما يشغله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وقيل: معاملة القلوب أمر شديد، والثبات عليها أشد وأصعب.

قيل لبعض أهل المعرفة: عبدٌ فقدَ قلبه، متى يجده؟.

قال: إذا نزل فيه الحق، قال: متى ينزل؟ قال: إذا ارتحل عنه ما دون الحق.

ومعاملة القلوب على عشر مدارج:

أولها: الخطرات، ثم حديث النفس، ثم الهم، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم الرضا، ثم الاختيار، ثم النية، ثم العزيمة، ثم القصد؛ حتى يبلغ إلى عمل الظاهر.

فمَن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند الخطرات، فهو على مدارج الصديقين.

ومَن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند حديث النفس، فهو على مدارج المقربين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الهم، فهو على مدارج الأوابين.

ومَن قام لله، على حفظ معاملة القلب عند الفكرة، فهو على مدارج المخلصين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الإرادة، فهو على مدارج المريدين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الاختيار، فهو على مدارج المتقين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند النية، فهو على مدارج الزاهدين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند العزم، فهو على مدارج المنيبين.

ومَن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند القصد، فهو على مدارج المجتهدين.

ومَن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب على عمل الظاهر، فهو على مدارج العابدين، من عامة الموحِّدين.

وقال إسحاق بن إبراهيم رحمه الله تعالى: لأن تردد قلبك إلى الله تعالى ذرة، خير لك من جميع ما طلعت عليه الشمس؛ وما من أحد صفا قلبه من أدناس الشهوات، وطهّره من غبار الغفلات، ونقّاه من كدورات الغوايات؛ إلا أطلعه الله على غاية الغايات.

وقال بكر بن عبد الله في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] قال: الذي يمشي ببدنه على الأرض، وقلبه معلق بالله تعالى.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما القلب السليم؟.

قال: قلب منقطع من علائق الدنيا، مملوء من حب المولى، لا يشكو من الشدائد والبلوى، ولا يهتك أستار الصيانة والتقوى.

ويقال: مَن لم يكن بينه وبين الله معاملة سرية كان مسيئاً وإن كان محسناً، ومَن لا يرى أن الكونين بما فيهما يسير قدرته وسريع لحظته، لم ينل معاملة القلب.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: اعلم أن معاملة القلب هي: تجديد السر مع الانفراد به، وملاحظة القلب على دوام حفظ الأوقات، مع صدق الحال، من غير التفات منه إلى الوقت والحال.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن لله تعالى عباداً، تطير قلوبهم إلى الله اشتياقاً، لا يدركها البرق الخاطف.

ويروى أن النبي ﷺ قال: «**ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة، ولا صيام، ولكن بحق وقر في قلبه**».

إن الله تعالى لا يَرُدُّ القليلَ لقلته، ولا يقبل الكثير لكثرته؛ ولكن إنما يتقبل الله من المتقين.

ويقال: ليس على مقام الصدق، مَن تعلق قلبه بالمقام؛ ولكن الصادق الصادق مَن تعلّق قلبه برب المقام مجرداً، حتى لا يرى مع الله غير الله أحداً.

ويقال: إذا صارت المعاملة إلى القلوب، استراحت الأبدان.

ويقال: لا تكون معاملة القلب، إلا لمن له قلب صاف، ليس بساه؛ صحيح ليس بجريح؛ بصير ليس بضرير؛ فريد ليس بطريد؛ طالب ليس بهارب؛ قريب ليس بغريب؛ عاقل ليس بغافل؛ سماوي ليس بأرضي؛ عرشي ليس بوحشي.

تجريد القلب لله:

وقال ثابت النساج رحمه الله تعالى: قرأت القرآن سنين بالخوف، فلم أجد القلب.

ثم قرأته بالرجاء، فلم أجد القلب.

ثم قرأته بتجريد القلب عن كل ما دون الله تعالى، فعند ذلك وجدته، ورأيت عند وجوده: الولاية الكبرى، والعزة العظمىٰ، والمراتب العليا.

وقال الله تعالى في بعض الكتب: القلوب بيدي، والحب في خزائني؛ فلولا حبي لعبدي، ما قدر العبد أن يحبني؛ ولولا ذكري له في الأزل، ما قَدرَ أن يذكرني؛ ولولا إرادتي إياه في القِدَم، ما قدر العبد أن يريدني.

قيل: إن عارفاً رأى رجلاً يدور حول المسجد، فقال له: يا هذا! ما تطلب؟ قال: أطلب موضعاً خالياً أصلي فيه.

فقال: خَلِّ قلبك عما دون الله، وَصَلِّ في أي موضع شئت.

ويقال: بقَدْر إقبالك على الله، يكون قرب القلب منه، وما اطلع الله على قلب عبد فرأى فيه غيره إلاَّ عذَّبه الله به، وَوَكله إليه.

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ: القلب إذا وضعته عند الدنيا خاب، وإذا وضعته عند العقبى ذاب، وإذا وضعته عند المولى طاب.

وقال: الدنيا خراب، وأخرب منها: قلب من يعمرها.

والآخرة دار عمران، وأعمر منها: قلب من يطلبها.

وقال: مفاوز الدنيا تقتطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقتطع بالقلوب.

وقال: خراب النفس من عمارة القلب، وعمارة النفس من خراب القلب.

سُئل واحد من أبناء القلوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال: قلبي يتكلم. قيل: مع مَنْ؟ قال: مع مُقَلِّب القلوب.

* * *

الحديث السابع والعشرون:

أنت مع من تحب

أخبرنا الشيخ الجليل، العارف بالله، شيخنا: أبو الفضل علي الواسطي القرشي ـ يعرف بابن القاري ـ رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد، بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا بشر بن خالد، قال: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال:

«الْمَرْءُ مَع مَنْ أَحَبَّ»(1).

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام بمحبة أحباب الله ورسول الله ﷺ، ما فيه بلاغ للموقنين، وهدى للمتقين، ونور للعارفين.

فإن من تدبر سر المعية، التي أفصح بها هذا النص الأشرف، انسلخ إلاَّ عن محبة الله تعالى، ومحبة من أحبه الله؛ وأحب الله.

وكذلك العارفون رضي الله عنهم، ومَن العارفون؟ هم أهل القلوب المنيرة، أصحاب صفاء السريرة، والعمدة على القلوب.

أي بني! اعلم أن الله تعالى ذكر في محكم كتابه للعباد: أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، وقضاه وتقديره، وحكمه وتدبيره، ومشيئته في خلقه؛ وضرب الأمثال، وذكر آلاءه ونعماءه، ولطائف صنعه، وكمالَ قدرته، وعظيمَ ربوبيته. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢)، وانظر: الفتح (١٠/ ٥٥٥، ٥٥٩)، وحاشية ابن القيم (١٤/ ٢٣)، وشرح الزرقاني (٤/ ٢٨٢)، وشرح النووي (١٦/ ١٨٦)، وتحفة الأحوذي (١٠/ ١٦٣)، والديباج (٥/ ٥٥٥).

أشهَدَ في هذه الآية جميعَ العباد، شرف مراتب أبناء القلوب، وبيَّن فضلهم على مَنْ دونهم.

قال بعض المفسرين: في معنى قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]: أي: قلب واثق بجميع ما ذكره الله سبحانه في كتابه، من الوعد والوعيد وغيرهم.

وقال بعضهم: لمن كان له عقل، يزجره عن جميع الضلالات والغوايات، في جميع الحالات.

وقال بعضهم: لمن كان له ذهنٌ، يَفِرُّ به عن الشرك والشك.

وقال بعضهم: لمن كان له يقين، يسقط عنه وثائق الغرور، في جميع الأمور، إلى أن يصل إلى الملك الغفور.

وقال بعضهم: لمن كان له سر، يتلاشى معه جميع أوصاف العبودية، تحت إشارة الربوبية، عند مشاهدة الحق.

وقال بعضهم: لمن كان له استقامة السر مع الحق، من غير التفات منه إلى ما سواه.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب مفرد لتفرد الفرد.

وإن الله تعالى زيّن قلوب العارفين بزينة المعرفة، كرماً وامتناناً؛ وزيّن قلوب المريدين بالعظمة والهيبة، رحمة وإحساناً.

وحجب قلوب الغافلين بالجهل والغفلة، محنة وخذلاناً؛ وطبع على قلوب الكافرين، بالإبعاد والنُّكرة، طرداً وحرماناً.

قلوب الخلق:

والقلوب ثلاثة:

١ ـ قلب يطير في الدنيا حول الشهوات!.

٢ ـ وقلب يطير في العقبى حول الكرامات!.

٣ ـ وقلب يطير في سدرة المنتهى حول الأُنس والمناجات!.

فقلب معلّق بالدنيا، وقلب معلّق بالعقبى، وقلب معلّق بالمولى.

وقلب حريق، وقلب غريق، وقلب سحيق.

وقلب منتظر للعطاء، وقلب منتظر للرضاء، وقلب منتظر للقاء.

وقلب مشروح، وقلب مجروح، وقلب مطروح.

وقلب منيب: وهو قلب آدم عليه الصلاة والسلام.

وسليم: وهو قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ومنير: وهو قلب «محمد» عليه أفضل الصلاة والسلام.

* * *

الحديث الثامن والعشرون:

سكون القلب إلى الله

أخبرنا شيخنا القاضي الثقة، المقري الجليل الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي، رحمه الله رحمة واسعة، قال: أخبرني أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد الداودي، قال: أخبرني عبد الله أحمد السرخسي. قال: حدثني أبو عبد الله محمد الفربري، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا الحسين، عن زائدة، عن عبيد الملك، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: تعوّذوا بكلمات، كان النبي ﷺ يتعوذ بهن:

«اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ أُرَدَّ إلَى أرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ»[1].

استعاذ ﷺ من القواطع عن الله تعالى، فإن الجُبْنَ: مقعِدٌ عن قول الحق؛ والبخل: مقصر عن طلب الحق؛ وأرذل العمر: صارف عن بذل الهمة في الحق؛ وفتنة الدنيا: قاطعة عن الحق؛ وعذاب القبر: نتيجة أولئك، والعياذ بالله تعالى.

وفي مضمون هذه الاستعاذة الشريفة المحمدية، إرشاد بإعلاء الهمة عن الجبن والبخل، وحثّ على التجرد إلى الله تعالى، وهذا بغية العارفين.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، يا مصلح الصالحين، يا ولي المتقين، يا دليل المتحيرين، يا أنيس العارفين، يا أرحم الراحمين!.

---

(١) رواه البخاري (١٧٤١/٤)، ومسلم (٢٠٨٠/٤)، والخطيب في البخلاء ـ بتحقيقنا ـ.
وانظر: الفتح (١٣٣/١١، ١٧٤)، والتمهيد (٢١١/٣)، وتحفة الأحوذي (١١/١٠)، والبخلاء للخطيب، بتحقيقنا، والبخلاء للجاحظ، والدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود للمناوي، بتحقيقنا.

الرضا عن الله:

أي بني! اعلم أن العبد إذا علم أن الله سبحانه حكيم فيما حكم، وقدير عالم بما قضى ودبَّر؛ وعرف أنه جاهل بالمحبوب والمكروه، رضي عن الله في حكمته وقضائه.

والرضا: هو سكون القلب إلى الحكيم، وترك الاختيار مع التسليم، ولا شيء أشد على النفس من الرضا بالقضاء، لأن الرضا بالقضاء يكون على خلاف رضا النفس وهواها، فطوبى لعبد آثر رضا الله تعالى على رضا نفسه.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام، كان يقول في مناجاته:

إلَهي! خصصتني بالكلام، ولم تكلم بشراً قبلي، فدلني على عمل أنال به رضاك.

فقال الله تعالى: يا موسى! رضائي عنك، رضاكَ بقضائي.

وقال الداراني رحمه الله تعالى: أرجو أن أكون قد أعطيت من الرضا طرفاً، وذلك أن الله تعالى لو أدخلني النار، لكنت بذلك راضياً، وأن أحق الناس بالرضا: أهل المعرفة؛ وهو باب الله الأعظم.

وروي في بعض الكتب: أن جبريل عليه الصلاة والسلام، كان يهبط إلى الأرض، فرأى رجلاً عليه أثر السكينة.

فقال: يا رب! ما أحسن هذا الرجل!.

فقال الله تعالى: يا جبريل! أُنظر اسمه في اللوح في أسماء أهل النار.

فقال: إلَهي! ما هذا؟.

فقال: يا جبريل! إني لا أُسأل عمّا أفعل، وأنه لا يبلغ أحد من خلقي علمي، إلا بما شئت.

فقال جبريل: يا رب! أتأذن لي أن أخبره بما رأيت؟ قال: لك الإذن. فهبط جبريل وأخبره بحاله، فخرّ الرجل ساجداً.

وكان يقول: لك الحمد يا مولاي! على قضائك وقَدَرِك، حمداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

قال: فما زال يحمد الله تعالى، حتى ظنّ جبريل أنه لم يسمع ما قال!.

فقال: يا عبد الله! وهل سمعتَ ما قلتُ لك؟.

قال: نعم، أخبرتني أنك وجدتَ اسمي بين أسماء أهل النار، في اللوح المحفوظ.

قال: فما هذا الحمد والشكر؟.

قال: سبحان الله يا جبريل! إن الله تعالى قد قضى مع كمال علمه، وسعة رحمته وحلمه، ولطائف ربوبيته، وحقائق حكمته، فمن أنا حتى لا أرضى؟ تبارك الله ربي؛ ثم خرَّ ساجداً، وأخذ في التسبيح والتحميد.

قال: فرجع جبريل إلى الله.

فقال الله تعالى: ارجع إلى اللوح المحفوظ، وانظر ماذا ترى؟ فرجع فإذا اسمه في أسماء أهل الجنة. فقال: يا جبريل! هو ما ترى، إني لا أُسأل عما أفعل.

فقال جبريل: إلّهي! ائذن لي حتى أخبره بما رأيت. فقال: لك الإذن.

قال: فهبط جبريل فأخبره بما رأى.

قال: لك الحمد يا سيدي ومولاي! على قضائك وقدرك، حمداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

فرجع جبريل متعجباً، من كمال رضاه عن الله، بكل ما حكم له!.

وكذلك روي: أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبيائه: أنْ قُلْ لعبدي فلان ابن فلان إنك من أهل النار؛ فلما بلَّغ إليه الرسالة، حمِدَ الله تعالى.

وقال: الحمد لله على ما قضى، فالأمرُ أمرُه، والحُكْمُ حُكْمُه.

فقال الله تعالى لنبيه: إلْحَقْ به ثانياً، وأخبره بأني قد غفرتُ لك، حيث رضيتَ بقضائي.

فبُلِّغَ الرسالة؛ فشهق الرجل شهقة وخرَّ ميتاً.

واعلم أن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه:

١ ـ قضاء النعمة؛ فعلى العبد فيه الرضا والشكر.

٢ ـ والثاني: قضاء الشدة: فعلى العبد فيه الرضا والصبر.

٣ ـ والثالث: قضاء الطاعة، فعلى العبد فيه الرضا وذكر المِنَّة، والقيام بالواجب إلى الموت.

٤ ـ الرابع: قضاء المعصية، فعلى العبد فيه الرضا عن الله والتوبة.

وسُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عن القضاء والقدر؟

فقال: ليلٌ مظلم، وبحرٌ عميق، وسرُ الله الأعظم؛ فمَن رضي به فله الرضا، ومَن سخط فله السخط!.

وروي أنه لما وضع المنشار، على رأس زكريا عليه الصلاة والسلام، همَّ أن يستغيث بالله تعالى، فأوحى الله إليه: يا زكريا!. إمّا أن ترضىٰ بحكمي لك، وإما أن أخرب الأرض، وأهلكَ مَن عليها. فسكت حتى قُطع نصفين.

وحكي أن رابعة البصرية ـ رحمها الله تعالى ـ مرضت، فقيل لها: أما ندعو لك طبيباً؟

فقالت: مَنْ قضىٰ عليَّ؟ قالوا: اللَّهُ تعالى. قالت: أوَ مثلي مَن يرد قضاء سيده؟!.

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقيل له: أما ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني. قيل: وما قال؟ فقال: قال: إني فعَّال لما أريد.

شكى نبيٌّ من الأنبياء بعض ما ناله من المكروه، فأوحَى اللَّهُ إليه: كم تشكوني، ولستُ أهل ذم ولا شكوى! فهكذا كان بدء شأنك في علمي، فَلِمَ تسخط؟ أفتحب أن أعيد الدنيا من أجلك! أو أبدل اللوح بسببك! فأقضي ما يسرك كما تريد، لا كما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب، فبعزتي حلفت: لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى، لأسلبنك ثوب النبوة، ولأوردَنك النار ولا أبالي.

قال بعض الحكماء: ليس العجب ممن ابتُليَ فصبر؛ إنما العجب ممن ابتُلي فرضي!.

قيل لعبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: أي الرجلين أفضل: رجل أحبَّ البقاء ليطيع، أو رجل أحبَّ الخروج شوقاً إليه؟.

فقال: لا هذا ولا ذاك؛ ولكن رجل فوَّض أمره إلى الله، وقام على قدم الصدق في الرضا، فإن أبقاه أحب ذلك، وإن أخرجه أحب ذلك؛ فهذه منازل الرضا عنه، وخُلُقُ العارف معه.

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: إن لله عباداً، يستحيون من الصبر، ويسلكون مسالك الرضا؛ وإن له عباداً؛ لو يعلمون من أين يأتي القدر، لاستقبلوه حباً ورضا!.

وفي الخبر: إن أول ما كتب الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ: لا إلّه إلاّ الله، محمدٌ رسول الله، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر لنعمائي، كتبته صدِّيقاً، وبعثته يوم القيامة مع الصدِّيقين.

ومن لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليختر رباً سوائي!.

يقول قائلهم رضي الله عنهم: يا نفس! إني أسلمتك إلى ربك، على أنه إن شاء جوّعك، وإن شاء أشبعك؛ وإن شاء أعزّك، وإن شاء أذلّك؛ وإن شاء أحياك، وإن شاء أماتك.

وهو أغنى وأولى بكِ منك؛ وأنت بالكلية له يا نفس! فما لك والحكم على من له الحكم والخلق والأمر؟!.

وقيل ليحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: متى يطيب عيش المؤمن؟.

قال: إذا رضي عن الله تعالى، بكل ما قضى وقدَّر، وحكم ودبَّر.

وقيل له: متى يكون العبد راضياً عنه؟.

قال: إذا قال العبد لربه: إلّهي! إنْ أعطيتني شكرتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن دعوتني أجبتُ، وإن تركتني عَبَدْتُ.

والزهد عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع.

والورع عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين.

واليقين عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا، لأن الرضا أعلى درجة العبودية.

وإن الله سبحانه جعل الرَّوْح والراحة في الرضا، وجعل الهمّ في السخط.

وحكي أن عطية الحمصي رحمه الله تعالى قال: إن والدي قال لإبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ: يا أبا إسحاق! لو كتبتَ من هذا الحديث كما كتبنا.

فقال له: اشتغلتُ بثلاثة أجزاء، فإن فرغتُ منها فعلتُ ما تقول.

قال: وما هي؟ قال: التوكل على الله فيما تكفل به من الرزق، وإخلاص العمل لله، والرضا بقضاء الله.

فأما التوكل والإخلاص، فقد فرغت منهما بعون الله، وأما الرضا بقضاء الله، فإني منه في شغل شاغل.

قال: فبكى والدي بكاءً شديداً، وقال: ما أبعدنا عما أنت فيه! هل يكون فوق الرضا منزلة نقدر أن نقول فيها شيئاً؟!.

قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى: إني لا أغبط إلاَّ من أصبح وليس له غداء ولا عشاء، وهو عن الله تعالى راض.

قيل لسفيان الثوري رضي الله عنه: متى يكون العبد عن الله راضياً؟.

قال: إذا سرته المصيبة، كما سرته النعمة!.

وقال رجل عند الإمام الحسين رضي الله عنه: إن أبا ذرّ ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة.

فقال: رحم الله أبا ذر! أمّا أنا فأقول: من رضي بحسن اختيار الله تعالى، لم يتمنَّ غير ما اختاره الله له.

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ: طلبت العلم فلم أسترح، ثم طلبت العمل فلم أسترح، فرضيت عن الله، فغرقت في الراحة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ليس الشأن في أكل خبز الشعير، ولبس الصوف، لكن الشأن في الرضا عن الله تعالى.

سَيَكُونُ الَّذِي قَضَى ... كَرِهَ الْعَبْدُ أمْ رَضِي
لَيْسَ هٰذَا يَدُومُ؛ بَلْ ... كُلُّ هٰذَا سَيَنْقَضِي

وكان مكتوباً على سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قَدْ قَضَى فِيكَ حُكْمُهُ ... فَانْقَضَى مَا يُرِيدُهُ
فَأَرِدْ مَا يَكُونُ إنْ ... لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُهُ
أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرْ ... يَومَ لاَ يُقْدَرُ أمْ يَوْمَ قُدِرْ
يَوْمَ لاَ يُقْدَرُ لاَ يَأْتِي بِهِ ... وَمِنَ الْمَقْدُورِ مَا يُنْجِي الْحَذَرْ

* * *

الحديث التاسع والعشرون:

كلمة التوحيد

أخبرني خالي وسيدي: أبو المكارم منصور الرباني، البطايحي الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: حدثني السيد الشريف حسن بن عسلة الرفاعي - برواق أبي، في أمّ عَبيدة - قال: حدثني النقيب السيد يحيى الرفاعي، قال: حدثني أبي السيد ثابت، قال: حدثني أبي السيد علي الحازم الرفاعي، قال: حدثني أبي السيد علي أبو الفضائل، قال: حدثني أبي السيد الكبير: رفاعة الحسن، المكي، الحسيني - نزيل إشبيلية - قال: حدثني أبي السيد محمد أبي القاسم، عن أبيه السيد الحسن القاسم، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمٰن الرضى المحدِّث القطيعي، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه الأمير السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام علي الرضا، عن أبيه الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام علي زين العابدين، عن أبيه الإمام الحسين - الشهيد بكربلاء - عن أبيه أمير المؤمنين علي المرتضى، عن ابن عمه سيد المرسلين، وأشرف المخلوقين، نبينا محمد المصطفى ﷺ أنه قال: حدثني جبريل عليه الصلاة والسلام، قال: حدثني ربُّ العزة سبحانه وتعالى قال:

«كَلِمَةُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللَّهُ حِصْنِي، فَمَنْ قَالَهَا دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْني أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»[(١)].

هذا الحديث القدسي، الذي وصل إلينا بالسند النبوي، فيه من إعظام شأن كلمة التوحيد، ما يزيد العبد إيماناً، ويملؤه عرفاناً، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة، التي هي روح التوحيد، وما على قائلها بعد الإيمان بمبلِّغها ﷺ من بأس.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٥١)، وأورده المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٨٩، ٤٩٠).

وكونها آخذة بالعبد إلى الافتقار إلى الله تعالى، والانقهار تحت عظمة فردانيته، فلذلك صارت حصناً للعبد، بإذن الله تعالى.

أي بني! اعلم أن الغِنى والفقر صفتان: صفة لله، وصفة للعبد، فصفة الفقر للعبد، وهو صفة مدح، كما أن صفة الغنى لله، وهو صفة مدح.

والفقر بالحقيقة: صفة العبد، إذ لا يشوبه غنى.

والغنى بالحقيقة: صفة الربِّ، إذ لا يشوبه فقر.

وإنَّ أشرف صفات العبد: افتقاره إلى الله تعالى في كل شيء كما أن أشرف صفات الرب: استغناؤه عن العبد في كل شيء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

واعلم أن الافتقار إلى الله مقسوم: على النفس، والروح، والقلب، والسر.

ففقر النفس إلى الله تعالى يكون على سبيل القرب والرضاء.

وفقر السر إلى الله تعالى على سبيل المشاهدة واللقاء.

فكلما رأى العبدُ نفسه متحيرة، على باب عهده ووفائه، رجع بالافتقار إلى باب عفوه.

وكلما رأى روحه متحيرة، على باب وده ومحبته، رجع بالافتقار إلى باب عنايته.

ومن حقيقة الافتقار، الاستكفاء بالكافي، وطرح النفس السقيمة بين يدي المافي.

وأيضاً حقيقته: انتظار السَّبب من المسبِّبِ، مع رؤية السَّبَبِ، والاشتغال بالمسبِّبِ، مع نسيان السَّبَبِ.

وأيضاً: من حقيقته دوام التبصيص والاعتذار، بلسان صدق الافتقار، مع غاية الانكسار.

ومن حقيقته: تخليص الأسرار من رؤية الأعمال، وترك الاعتماد على حسن الحال.

ومن حقيقته: أن لا ينصرف العبد عنه بخلقه ولا بملكه.

قيل لأبي عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ:

متى يكون العبد غنياً محتاجاً، وهو في غناه وحاجته محمود؟.

قال: إذا كان غناه بالله عن خلقه، وحاجته إلى ربه.

قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: إن العبد لا يعرف الله حق معرفته، حتى لا يعرف الفاقة الكبرى، قيل: وما الفاقة الكبرى؟ قال: أن يعلم أنه لم يهتدِ إلى ربه إلاَّ به، ولا ينجو من سخطه إلا به.

ويقال: الافتقار لواء أهل الولاية.

ويقال: الافتقار طرح النفس بين يدي الربِّ، كالصبي الرضيع بين يدي الأم.

ويقال: الافتقار فراغة في رعاية، ورعاية في ولاية، وولاية في عناية، وعناية في هداية.

فمن لا فراغة له، لا رعاية له، ومن لا رعاية له، لا ولاية له، ومن لا ولاية له، لا عناية له، ومن لا عناية له، لا هداية له.

* **أي بني!** اعلم أن الخلق بأسرهم فقراء، محتاجون إلى الله تعالى، أسراء تحت مشيئته، ضعفاء تحت علمه وقدرته، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم: نفعاً ولا ضراً، ولا ذُلاً ولا عزاً، ولا موتاً ولا حياة.

منصوبون بين سهام النعمة والرخاء، موقوفون بين القطيعة والشقاء، مستورة عنهم خواتيمهم، لهم الخوف والرجاء، والفقر والدعاء، والتضرع والبكاء.

فما أفقر مَنْ هذه صفته؟ وما أضعف من هذه حالته؟!.

واعلم أن الافتقار أجَلُّ مراتب المحبين، وأرفع منازل المنيبين، وأزلف حالات المريدين، وأعظم آلات الأوّابين، وأجلُّ مقامات التائبين، وأعلى وسائل المقربين.

وهو أصل العبودية، وصدر الإخلاص، ورأس التقوى، ومخُّ الصدق، وأساس الهدى.

فمن أراد أن يدخل في عصبة أهل الافتقار، فينبغي أن لا يهتم بمصلحة نفسه وعياله، وأن يتملق بين يدي الله تعالى، وأن يكون آيساً مما سوى الله، مع الافتقار إلى الله.

كرجل يكون في بئر مظلم، ورأس البئر مسدود، وأثره مستور، وليس له في البئر مؤنس، ولا للخلق على رأس البئر ممر!.

فهل يكون رجاؤه، وافتقاره إلى أحد دون مولاه؟!.

وحكي أن رجلاً من الصالحين، وقع في بئر في البادية ـ وكان ضريراً ـ فمرت على رأس البئر قافلة، فناداهم الرجل من قعر البئر، فهتف هاتف: أتستغيث بغيري، وأنا غياث المستغيثين!.

قال: فسكت الرجل، فإذا أهل القافلة سدوا رأس البئر، وأرادوا أن يخفوه، كي لا يقع فيها أحد، فصار الرجل آيساً من نفسه، وانقطع رجاؤه عن الخلق، ثم قال:

إلَهي! الآنَ لم يبق لي غيرك، وأنا فقير إليك، فسلّط الله أسداً حتى فتح رأس البئر، وهبط فيه، فأخذ الرجل بذنب الأسد، فرفعه إلى رأس البئر، فنودي من فوقه: لا تقطع قلبك عمن ينجيك، بتلفٍ مِنْ تَلَفٍ!.

واعلم أن الله تعالى وضع تحت قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]: كمال وفاء صدق العبودية، ثم علم كمال ضعف العبد وعجزه، فأعطاه كلمة أخرى، وجمع له خير الدارين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

فكل حق لله تعالى على العبد تحت قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وكل فقر للعبد إلى الله تعالى تحت قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وقيل: إن أعرابياً وقف بالموقف فقال:

إلَهي! إليك خرجتُ، وأنت أخرجتني، ولك وقفتُ، وأنت أوقفتني، وقد عصيتُ أمرك، وأنت خذلتني، ومع ذلك لا عذر لي ولا حُجَّة، فإن رحمتني وعفوت عني، فأنت أهل الإحسان، ولا فقير لك أفقر مني، يا سيدي ويا مولاي!.

واعلم أن الله تعالى كلّف العباد صدق الافتقار، كي لا يتجاوزوا عن حد العبودية، إلى حد الربوبية، ومن الإرادات العقلية، إلى الإرادات الهوائية، ومن الصفاوة الروحية، إلى الكدورة النفسية، ومن الهمم العلوية، إلى الهمم السفلية.

قال الله تعالى لنبيه الأعظم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤] وقال: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرّعد: ٣١] وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

نعم، صلاح العبد بالافتقار، نعم، الاستعانة بالمستعان، نعم، سبب الوصول إلى طريق الهداية، واللحوق بأهل الولاية: الافتقار.

* * *

الحديث الثلاثون:

طهارة القلب والقالب

أخبرنا الشيخ الثقة، العارف بالله تعالى، خالي: أبو بكر بن يحيى النجاري، الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: أخبرنا أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزاز، قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، قال: أخبرنا إسحاق بن سعيد، قال: أخبرنا محمد بن هارون، قال: أنبأنا أبو آمنة محمد بن إبراهيم، قال: أخبرنا محمد بن سابق، قال: أخبرنا إبراهيم بن طهمان، عن منصور، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا رَاحَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ»[1].

هذا الحديث الشريف، فيه من إعظام مناجاة الله الغاية، فإن العبد إذا صلّى ناجى ربه، سيما في يوم الجمعة ومشهدها، فإنه من أعظم مشاهد الحضرة.

والاغتسال عبارة عن غسل القلب والقالب من الوجودات هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعي، وهذا سر من أسرار الاغتسال، ولم يكن من حكم شرعي، إلاّ وفيه من الأسرار الباطنة والظاهرة، ما تَحار له العقول!.

تفويض الأمر لله:

أي بني! اعلم أن من نظر في حسن تدبير الله تعالى، ولطائف صنعه وكمال قدرته في كل شيء، علم أنه تعالى قائم على نفسه بما كسبت، وأنّ نواصي العباد

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٩٩، ٣٠١)، ومسلم (٢/ ٥٧٩، ٢٨٠)، ومالك في الموطأ (١/ ١٠٢)، وأحمد في المسند (١/ ١٥، ٤٦، ٣٣٠).
وانظر: الفتح (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠)، والتمهيد (١٠/ ٧١، ٧٣)، وشرح الزرقاني (١/ ٣٠١)، وشرح النووي (٦/ ١٣١)، والتحقيق لابن الجوزي (١/ ٢٢٩)، والتلخيص للحافظ (٢/ ٦٦).

بيده، يقلبهم كيف يشاء، وأن سعادتهم وشقاوتهم في ماضي حكمته، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه.

فمتى تحقق ذلك: اعتصم بالله، واستسلم له، وفوَّض الكلية إليه، وقام بقدم الاضطرار بين يديه، وبقي بلا حول ولا قوة، ولا اختيار ولا تعليق، ولا تدبير ولا سؤال.

فإن راحة الدارين وسرورهما في الاعتصام بالله.

وهمومهما في الاعتصام بغير الله، ورؤية الحول والقوة بالنفس! ألا ترى قول الله تعالى، لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ومعاملة الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام في التيه، مكافأة لقوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥].

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢] أي: اخلع عن قلبك أهلك وولدك، وكل ما سوى الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧، ١٨].

أضافها إلى نفسه، قال: ما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٨] فقال له: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه: ١٩، ٢٠].

قال الله تعالى: يا موسى! هذه التي قلت: أتوكأ عليها، صارت عدوة لك! لتعليق قلبك بغيري.

فرجع موسى بقلبه إلى الله تعالى، فلما علم الله ذلك منه: ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ﴾ [طه: ٢١].

وقال لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

يقول الله تعالى: ما من عبد نزلت به بلية، فاعتصم بمخلوق دوني، إلاَّ قطعتُ أسباب السماء من يديه، ووكَلْتُه إلى نفسه!.

وما من عبد نزلت به بلية، فاعتصم بي دون خلقي، إلاَّ أعطيتُه قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعوني.

وبلغنا أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

وعزتي وجلالي، وعظمتي وارتفاعي فوق خلقي، لا يعتصم عبد من عبيدي بي دون خلقي، فأعلمَ ذلك من قلبه، فيكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً.

وعزتي وجلالي، وعظمتي وارتفاعي فوق خلقي، لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، فأعلم ذلك من قلبه، إلاَّ قطعتُ عنه الأسباب، ثم لا أبالي في أي واد أهلكته، وأملأ قلبه شغلاً، وحرصاً، وأملاً، لا يبلغه أبداً!.

وفي الخبر: من اعتصم بالله واستعان به، أحوج الله إليه الناس، وأنطقه بالحكمة، وجعله من ملوك الدارين.

ومن اعتصم بمخلوق دونه، ووكل إليه قلبه، عذَّبه الله، وقطع عنه أسباب الدنيا والآخرة!.

وروي أيضاً: تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، وأقبِلوا إلى الله بقلوبكم، واعتصموا به في جميع أموركم، لأن العبد إذا أقبل إلى الله بقلبه، أقبل الله بقلوب العباد إليه، ومن يعتصم بالله كفاه الله كل مؤنة.

قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يكون الرجل معتصماً بالله؟.

قال: إذا قطع قلبه عن كل علاقة، موجودة ومفقودة، ورضي بالله وكيلاً.

وروي أن الله تعالى، قال لداود عليه الصلاة والسلام: ما يتعبد المتعبدون ولا يتقرب المتقربون بشيء، أبلغَ عندي من الاعتصام والتسليم.

وقال عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ لأحد العارفين: أدعُ الله لي، قال: لقد استعنتَ بمن هو أعجز منك! أطع الله تعالى، واعتصم به، يُعطك أعظم ما يعطي السائلين.

وقال: فيما أُنزل على موسى عليه الصلاة والسلام: إن أردت أن تكون قائداً لأهل الدنيا، وسيداً في المنظر الأعلى، فكن مستسلماً لأمري، راضياً بحكمي.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إني لأستحيي من الله أن أقول: إني معتصم بالله، لأن من اعتصم بالله لا يخافُ مَنْ دُونه، ولا يرجو غيره، ويقطع قلبه عن علائقه في الدارين.

وقيل في معنى قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] أي: نحن عبيد الله وإماؤه، نتقلب في مشيئته وقضائه، ونواصي العباد بيده ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] بالرضا عنه، والتسليم له، والاعتصام به، والتفويض إليه.

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤].

فقال: يا رب! أهلي وغنمي.

قال الله تعالى: إذا وجدتني فأي شيء تصنع بغيري؟ يا موسى! اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوّض الأمور إليّ، فإني جعلت الذئب راعياً لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك.

يا موسى! مَنْ أنجاك من اليمّ حين ألقتك أمك فيه؟ ومَنْ ردَّك إلى أُمك بعده؟ ومَنْ أنجاك من عدوك فرعون حين قتلتَ نفساً؟ ومَنْ أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟.

وهو يقول في ذلك كله: أنت، أنت.

واعلم أن من اعتصم بغيره، أو بشيء دونه فهو مخذول، خارج من حد العبودية، لأن حد العبودية: ترك الاختيار إلى الجبار.

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القَصَص: ٦٨] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فَاطِر: ٢] وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعَام: ١٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣].

واعلم أن العبودية مبنية على عشر خصال:

١ ـ الاعتصام بالله في كل شيء.

٢ ـ والرضا عن الله في كل شيء.

٣ ـ والرجوع إليه في كل شيء.

٤ ـ والفقر إلى الله في كل شيء.

٥ ـ والإنابة إلى الله في كل شيء.

٦ ـ والصبر مع الله في كل شيء.

٧ ـ والانقطاع إلى الله في كل شيء.

٨ ـ والاستقامة بالله في كل شيء.

٩ ـ والتفويض إلى الله في كل شيء.

١٠ ـ والتسليم له في كل شيء.

واعلم أن التسليم والاستسلام، شعبتان من شعب الإيمان والمعرفة.

التسليم: هو تسليم الكلية إلى السلام، بالسلامة بلا تخليط.

والاستسلام: هو أن يستسلم راضياً بجميع ما ينزل عليه منه.

* * *

الحديث الحادي والثلاثون:

أفلا أكون عبداً شكوراً؟!

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل: أبو الفضل علي القاري، القرشي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا صدقة بن الفضل، قال: أخبرنا ابن عيينة، قال: حدثنا زياد ـ هو ابن علاقة ـ أنه سمع المغيرة يقول:

قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماهُ، فقيل له: غفرَ اللَّهُ لكَ ما تقدمَ من ذنبكَ وما تأخر، قال ﷺ: **«أفلا أكونُ عَبْداً شَكُوراً؟!»**[1].

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام بالقيام بواجب العبودية، غاية الغاية عند من يعقل، فإن السيد الأعظم، والكنز المطلسم ﷺ، حالة كونه سر الوجودات، وسبب الموجودات، والبرزخ الوسط بين الخلق والخالق، قد فعل في مقام عبديته ما تورم له قدماه الشريفان!.

فأين نحن؟ هات أيها العارف! ابذل مهجتك اتباعاً لهذا الرسول العظيم ﷺ، وامحقْ كُلَّكَ في اليوم والليلة ألف مرة، وأنت بعدها مقصر، العبودية وصف العارف المحض.

أي بني! قد ذكرَ الله تعالى في كتب الأنبياء نعتَ الأصفياء، يقول الله تعالى: عبدي! بي وجدتني، وبي وقع بيني وبينك عقد المحبة، وبي صرت من أهل خدمتي،

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٠)، (٤/ ١٨٣٠)، (٥/ ٢٣٧٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧١، ٢١٧٢)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٥٥).
وانظر: الفتح (١/ ٧١)، (٩/ ١٠٥)، والتمهيد (٦/ ٢٢٤)، والنووي (١٧/ ١٦٢).

وبي تعرفني، وبي تذكرني وتثني عليَّ، وبي تتلذذ بذكري، وبي قصدتَ صحبتي، وبي قدرتَ أن تنظر في الآخرة إلى وجهي.

عبدي! نفسك لي، وروحك لي، وقلبك لي، وكليتك لي، فإن أعطيتني الكُلَّ أعطيتك الكُلَّ، وكنت لك مع الكلِّ.

وفي الخبر: أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

من الذي دعاني فقطعت رجاءه؟ ومن الذي قرع بابي فلم يُفْتَحْ له؟ أنا الذي جعلت آمال خلقي بي متصلة، وعندي مدخرة.

يا داود! ما لعبدي يُعرِضُ عني؟ وأنا أقول: إليَّ.

يا داود! أنا محل الآمال، أنا الذي جعلتُ طيران قلوب المشتاقين نحوي، وجعلتها في الأرض مواضع نظري، وأطلقتها إليَّ حتى تزداد شوقاً إليَّ، وقرباً مني.

يا داود! بشر أوليائي وأحبائي، بأني كل ساعة أريهم كرامتي، ولطائف صنعي، وحسن امتناني عليهم، حتى لا ينسوني، ولا يميلوا إلى غيري، وشَوقتهم إليَّ، حتى لا يصبروا عني، وفتحت لهم أبواب أُنسي، واستجبت لهم قبل أن يدعوني، وأعطيتهم قبل أن يسألوني.

يا داود! فوعزتي وجلالي، لأُقعدنهم في الفردوس، ولأمكننهم من رؤيتي، حتى أرضى عنهم، ويَرْضوا عني.

يا داود! أخبر أهلَ الأرض بأني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنسَ بي، وصاحب لمن صاحبني، ومطيع لمن أطاعني، ومختار لمن اختارني.

وقل لعبادي: هلموا إلى مصاحبتي ومؤانستي، وسارعوا إلى محبتي وقربي.

اعلم يا داود أني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، ويحيى زكيي، ومحمد حبيبي.

يا داود؟ هل رأيت حبيباً يبخل على حبيبه؟.

يا داود! ألا إن طال شوق الأبرار إلى لقائي، فإني إليهم لأشد شوقاً.

ألا من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني.

صفة الأبرار:

يا داود! إذا كان الغالب على عبدي الاشتياق إليَّ، والاشتغال بي، جعلتُ راحته ولذته في ذكري، وعشقته، ورفعت الحجاب بيني وبينه، أُحبُّه ويحبني، حتى لا يغفُل إذا غفل الناس، ولا يسهو إذا سها الناس، ولا يلهو إذا لَها الناس، أولئك الأبرار حقاً.

يا داود! إن طلبتني وجدتني، وكفيتك الأسباب، ولم أطالبك بالحقوق، وإن طلبتَ غيري شغلتك بالأسباب، وطالبتك بالحقوق.

يا داود! إني جعلت محبتي لمن لا ينساني بلسانه وقلبه، فإنه لا شيء أنقص عندي من الغفلة والنسيان.

يا داود! إن رضيت عني، رضيت عنك، وإن أفردتني بالحاجة، أفردتك بالإنجاح، وإن شكرتني صيرتُك مِلكاً في الدارين.

يا داود! من لم يصبر على بلائنا، لا يَفزعْ إلينا.

يا داود! إني إذا أحببت عبداً من عبيدي، ملأت قلبه خوفاً مني، وتشوقاً إلى لقائي، وحرصاً على طاعتي.

يا داود! وأوليائي في قبابي، لا يعرفهم إلاَّ أوليائي، فطوبى لأوليائي، وطوبى لأحبائي.

يا داود! إني لا أنسى من ينساني، فكيف أنسى من يذكرني؟.

يا داود! إني أجود على من يبخل عليَّ، فكيف أبخل على من يجود بي؟.

يا داود! إني أحب من يبغضني، فكيف أبغض من يحبني؟.

يا داود! بشّر عبادي السائلين: بأني بهم رؤوف رحيم.

يا داود! كل حبيب يحب خلوة حبيبه، وأنا مطلع على قلوب أحبائي، قل للمتلذذين بذكري: هل وجدتم رباً أبرَّ مني؟.

يا داود! من أطاعني وهو يحبني، أسكنه جنتي، وأريه وجهي، ومن عصاني ولم يحبني، أدخله ناري، وأُحِلُ عليه سخطي.

يا داود! وعزتي وجلالي، لا يجاورني إلا من طلب جواري.

يا داود! كذب من ادَّعى محبتي، وإذا جنّ عليه الليل نام عني.

يا داود! من عرفني أرادني، ومن أرادني طلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني لا يختار عليَّ حبيباً سواي.

يا داود! من طلبني قتلته، ومن أحبني ابتليته، ومن هرب مني أحرقته.

يا داود! بشر المذنبين بأني غفور، وأنذر الصدِّيقين بأني غيور.

يا داود! من لقيني وهو يخافني، لم أعذبه بناري، ومن لقيني وهو يحبني، لم أحزنه بفراقي، ومن لقيني وهو مستحيي مني، لم أخجله يوم يلقاني.

يا داود! جنتي لمن لم يقنط من رحمتي، وغضبي على من أخطأ خطيَّةً فاستعظمها في جنب عفوي! ولو عاجلت أحداً بالعقوبة، إذَنْ عاجلت القانطين من رحمتي، وما العجلة من شأني، فها أنا مطلع على قلوب أحبائي، إذا جنَّ الليل، جعلت أبصارهم في قلوبهم، فخاطبوني على المشافهة، وكلموني على الحضور.

يا داود! لولا أني ربطت أرواح أحبائي في أبدانهم، لخرجت الأرواح من أبدانهم، شوقاً إلى لقائي.

يا داود! إن من عبادي عباداً جعلتهم للخير أهلاً، وجعلت لهم المؤانسة نصيباً، طوبى لهم وحسنُ مآب.

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام:

إني قضيت على نفسي أن لا يحبني عبد من عبادي، أعلم ذلك من قلبه، إلا أني كنت سمعه وبصره ولسانه، وأُبَغِّضُ إليه كلَّ شيء، وأمنعه شهوات الدنيا ولذاتها، وطيب عيشها، وأطَّلع عليه في كل يوم سبعين ألف مرة، وأزيد له كل ساعة: لذائذ حبي، وحلاوة أُنسي، وأملأ قلبه نوراً مني، حتى ينظر إليَّ كل ساعة فأمسح برأسه، وأضع يدي على ألم قلبه، حتى لا يشكو منه، وأنا أسمع خفقان قلبه، من الشوق إلى لقائي، والخوف من قطيعتي، وهو يقول: حقيق عليَّ أن لا يسكن قلبي، حتى أصل إليك يا ربي!.

يا يحيى! وكيف يسكن قلب المشتاق، وأنا غاية منيته، ومنتهى أمله؟ وهو كل ساعة يتقرب إليّ وأتقرب إليه، وأسمع كلامه، وأعلم أسفه، وأحب صوته.

فوعزتي وجلالي! لأنقبنه يوم القيامة منقباً يغبطه الأولون والآخرون، ثم آمر منادياً ينادي من تحت عرشي: هذا فلان ابن فلان، وليُّ الله وصفيُّه، دعاه الله ليقرَّ عينه.

ثم آمر برفع الحجاب حتى ينظر حبيبي إليَّ، وأقول: السلام عليك عبدي ووليّي، أَبَشِّرُك.

قال: فغشي على يحيى، فلم يفق ثلاثة أيام، فلما أفاق قال:

سبحانك، سبحانك، ما أكثر توددك إلى أوليائك وأصفيائك؟ لا يفصل عنك الأمل، يا خير صاحب وأنيس! فنعم المولى أنتَ ونعم النصير.

وروي أن الله تعالى قال في بعض كتبه: وعزتي وجلالي! لأقطعن أمل كل مؤمل غيري بالإياس، يؤمل عبدي غيري، والخير كله بيدي!.

من الذي أملني فقطعت عنه أمله؟ ومن الذي رجاني فخيبت رجاءه؟ ومن الذي قرع بابي بالدعاء فلم أفتح له؟.

عبدي! تنعم بذكري، فإني نعم الحبيب لك في الدنيا والآخرة.
عبدي! ستذكرني إذا جربتَ غيري، بأني لك خير من كل ما سواي.
عبدي! أما استحييت مني إن أعرضت وجهك عني؟ وتقبل على غيري!.
عبدي! إلى أين تذهب؟ وطريق الوسيلة إليَّ لا إلى غيري!.
عبدي! أين من دعاني فلم أجبه؟ وأين من سألني فلم أعطه؟.
عبدي! بابي لك مفتوح، وعطائي لك مبذول، وأنا أرحم الراحمين.

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: حقت محبتي للمتحابين من أجلي، وحقت محبتي للمتواصلين من أجلي، وحقت محبتي للمتزاورين من أجلي.

يا موسى! إن ذكرتني ذكرتك، وإن رضيتَ عني، رضيتُ عنك، وإن كنتَ لي فرداً، كنت لك الفرد، وإن لم تردَّ علي حكمي، واليتك واصطفيتك، وقربتُ مقعدك مني.

يا موسى! إذا خفت فَخَفْني حتى أؤمنك، وإذا أحببتَ فأحبني، حتى أحبك، وأحببك إلى قلوب الصالحين، وإذا نظرتَ فانظر إليَّ، حتى أنظر إليك من فوق عرشي.

وروي في بعض الأخبار، أن الله تعالى يقول يوم القيامة لأوليائه: «يا أوليائي! طال ما لحظتكم ورأيتكم في دار الدنيا، وقد غارت أعينكم، وقلصت شفاهكم، وخفت بطونكم، فكلوا واشربوا، هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

أوليائي وأحبائي! جزائي لكم أفضل البذل، وفضلي لكم أوفر الفضل، ومعاملتي إياكم أحسن المعاملة، ومطالبتي إياكم أشد المطالبة، أنا مؤنس القلوب، وأنا علام الغيوب.

* * *

الحديث الثاني والثلاثون:

صاحب الخُلق العظيم

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل: أبو الفضل علي الواسطي، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمٰن الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا عبد الله بن مسلمة، قال: حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال بن أبي هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أنه سُئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

«يَا أيها ٱلنَّبِيُّ إنَّا أرسلْنَاكَ شَاهِداً، وَمُبَشِّراً، ونذيراً، وَحِرزاً لِلأُمِّيِّينَ، أنتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سمَّيتُكَ: الْمُتَوَكِّلْ، ليسَ بفظٍّ وَلا غَلِيظٍ، وَلا سَخَّاب (عالي الصوت) في الأَسْوَاقِ، ولاَ يَدْفَعُ ٱلسَّيِّئَةَ بالسَّيئَة، وَلكِنْ يَعفُو وَيَغْفِرْ، وَلَنْ يَقْبِضهُ اللَّهُ حَتَّى يُقيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأنْ يَقولُوا: لاَ إِلَهَ إلاَّ ٱللَّهُ، فَيَفْتَحُ بِهَا أعْيُناً عُمْياً، وَآذَاناً صُماً، وَقُلُوباً غُلْفاً»[1].

ولنا بهذا السند عن البخاري، قال: حدثنا خالد بن مخلد قال: حدثنا سليمان قال: حدثنا عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٤٧)، (٤/ ١٨٣١)، الدارمي (١/ ١٦)، (٢/ ٥٢٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١٧٤).

وانظر: الفتح (١٣/ ٢٩٩)، وتحفة الأحوذي (٨/ ٣٩١).

«إِنَّ ٱلرَّحِمَ شُجْنَةٌ (وهي القرابة المتشابكة) مِنَ الرَّحْمٰنِ، تَقُولُ: يَا رَبِّ! إِنِّي قُطِعْتُ، يَا رَبِّ! إِنِّي أُسِيءَ إِلَيَّ، يَا رَبِّ! إِنِّي ظُلِمْتُ، يَا رَبِّ! فَيُجِيبُهَا: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟»[1].

فالحديث الأول أفاد: أن الله يُسعف نبيه ﷺ حتى يقوِّم العوجاء، بكلمة: لا إلٰه إلا الله.

والحديث الثاني أفاد: أن الرحم من أشعة نور الرحمٰن، من وصلها اتصل، ومن قطعها انقطع.

والجمع بين السرين في الحديثين، هو فتح القلب والعين والأذن بالتوحيد الخالص، وإيصال القلب بالرحمٰن، بحبل الرحمة والشفقة على الخلق، وبهذا تعين الأقرب فالأقرب، يفهم ذلك العارف، فكلمة التوحيد تفيد: الإيمان بالله، وصلة الرحم تفيد: التخلق بخلق الله، وهو الرحمٰن، وإليه المرجع في المبطن والعيان، وبه المستعان، وعليه التكلان، وما ذلك إلاَّ لإعظام أمر الله، وهو من إعظام الله.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: اعرف حرمة من لا تعرف الفضل إلاَّ منه، ولا ترجو الراحة إلاَّ منه، واستحي منه حق الحياء، واذكر امتنانه إذ خلقك ولم تك شيئاً، وزينك بنور المعرفة، حتى كأنك لم تزل تعرفه، ولولا فضله ورحمته عليك، كيف كنت تعرفه بأنه مولاك، من غير أن تراه بعينك؟.

ثم طَهَّرَ سرك وضمائرك، من الشك والشبهة والنفاق، وألبسك من أحسن لباسه، وتوّجك بتاجه بلا سؤال، ثم دعاك إلى دار السلام.

ويقال: لا يزال المؤمن عظيماً، ما أعظم الله، وعظَّمَ أمره، وعظَّم أولياءه، وعرف قدرهم وحرمتهم.

وحكي أن رجلاً من ملوك الدنيا، قال لشقيق البلخي: سل حاجتك!.

قال: إني لأستحيي من ربي أن أسألك، ومولاي ناظر إليَّ يقول: سل حاجتك بلا حشمة، حتى أرضى عنك، ولا تسأل غيري فأمقتك!.

ودخل على رابعة البصرية جماعة من الزهاد، وفيهم سفيان الثوري، فرأوا لها حالة رثة!.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٣٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٠)، والترمذي (٤/ ٣٢٣)، وأحمد (١/ ١٩٠)، (١/ ٣٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٣، ٣٤، ٣٦).

فقال لها بعضهم: أما ترسلين إلى بعض مواليك ليعطيك شيئاً؟.

فقالت: والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا ممن يملكها، فكيف ممن لا يملكها؟.

وقيل لأبي عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ: ما صفة المريدين؟.

قال: أن يكونوا مع الناس بأبدانهم، وقلوبُهم تحت العرش، كأنهم يرون ربهم فوق عرشه، ويستحيون أن يسألوه شيئاً سواه.

وفي الخبر: أرأيتم سليمان وما أعطي من المُلْك؟ فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء، تخشعاً لله، وحياء منه، حتى قبضه الله.

وقال عامر بن عبد قيس ـ رحمه الله تعالى ـ: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليَّ منه، وأن نظره إليَّ قبل نظري إلى ذلك الشيء.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ إذا قرأ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

قال: إلَهي! هذا قربك إلى أعدائك، فكيف قربك إلى أوليائك؟!.

وقال شهر بن حوشب ـ رحمه الله ـ: ما رأيت إبراهيم التميمي رافعاً رأسه وبصره إلى السماء قط، حتى قبضه الله، حياء منه!.

ومرض العارف داود الطائي ـ رضي الله عنه ـ وهو في جوف بيته، فقيل له: لو خرجت إلى صحن الدار، حتى تهب عليك ريح الهواء.

قال: إني لأستحيي من الله، أن يراني وأنا أطلب الراحة لنفسي في الدنيا!.

ويقال: كان في مِصْرَ رَجلٌ مجذوم، فقال: إنه يعرف اسم الله الأعظم.

فقيل له: لو دعوت الله باسمه الأعظم، أن يكشف عنك هذا البلاء.

قال: إني لأستحيي منه، أن يكون لي مراد بخلاف مراده.

وكان سيدنا الإمام الحسين بن الإمام علي عليهما السلام، إذا توضأ ليصلي اصفرّ لونه، وارتعدت فرائصه، فقيل له في ذلك؟.

فقال: حق لمن وقف بين يدي رب العرش، أن يتغير لونه حياء من إجلاله.

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي، فانهدمت زاوية من المسجد ولم يشعر.

وكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ترتعد فرائصه عند قضاء أمانة، لم تحملها السمٰوات والأرض، وهي: الصلاة.

ولدغت امرأة حية، في أربعين موضعاً ولم تشعر، من حلاوة الصلاة!.

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي، فوقع الحريق في بيته، وفزع الناس إليه، حتى أطفأوها ولم يشعر.

قال الجريري ـ رحمه الله تعالى ـ: إني لأستحيي من الله، أن أنام تكلفاً حتى يَصرعني النوم.

وحكي أن معاذة بنت عبد الله ـ رحمها الله تعالى ـ ما رفعَتْ بصرها إلى السماء أربعين عاماً، وكانت تقول: عجبت لعين تنام، والحبيب إليها ناظر، وربما كانت تتفكر في جلاله وعظمته، حتى يُغشى عليها.

وكان داود عليه الصلاة والسلام، لا يرفع رأسه إلى السماء هيبة من إجلاله تعالى.

وقال ابن سنان رحمه الله تعالى: ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، حتى ألقىٰ في قلبه إجلالاً منه، بحيث يسمع خفقان قلبه، كالطير في الهواء.

علامة السعداء ثلاثة: التمسك بسنة النبيِّ المختار، والصحبة مع الأولياء الأخيار، والحياء من الملك الجبار.

ومكتوب في الزبور: يا داود! إني لأستحيي من عبدي أن أرده إذا دعاني.

وإن عبدي لا يستحيي أن أدعوه فلا يجيبني؟!.

قال النبي ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللّٰهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

قال الفضيل ـ رحمه الله تعالى ـ: إلٰهي! ارحم من لو عقل لم يتكلم من الحياء.

وحكي أن عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ كان يصلي، فاكتنفته السباع، فلما انفلت من صلاته مسح ظهورهم بيده، وقال: أنتم كلاب الله، وأنا عبد الله.

فقيل له: هل هبتَ منهم؟ قال: إني لأستحيي من ربي أن أهاب شيئاً دونه.

وقال صالح المري ـ رحمه الله تعالى ـ: رأيت ربِّي في المنام ليلة، فقلت: لبيك، لبيك، وصرتُ كالبعوضة من إجلاله!.

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال: يا صالح إني لخبير بالمريدين، وإني أسمع أنينهم، وأرى حركاتهم، وإني لمطلع على سرائرهم وضمائرهم، قال: فدهش عقلي حياء منه.

وحكي أن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ صعد موضعاً يؤذن للصلاة، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، غشي عليه، من إجلاله!.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه!.

وقال بعض أهل المعرفة، في معنى قوله ﷺ: **«جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلاَةِ»**[1].

لم تكن الصلاة قرة عينيه، ولكن إذا قام للصلاة، رأى فيها ما تقر عينه، لقوله: **«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»**[2].

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ: صليت خلف ذي النون صلاة العصر، فلما أراد أن يكبر، رفع يديه وقال: الله. فبَهِتَ! وبقي كأنه جسد لا روح فيه، من إجلاله، ثم قال: أكبر، فظننت أن قلبي ينخلع من هيبة تكبيره!.

قَلَّ حَيَاءُ النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ فَكُلُّهُمْ يُظْهِرُ تَقْوَاهُ!
لَيْسَ يُبَالِي الْخُبْثَ فِي ثَوْبِهِ مَنْ بَالَ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ
يَخَافُ أَنْ يَمْقُتَهُ أَهْلُهُ وَلا يُبَالِي مَقْتَ مَوْلاهُ!

* * *

---

(١) رواه النسائي (٧/٦١)، والحاكم (٢/١٧٤)، وأحمد (٣/١٢٨)، (٣/١٩٩، ٢٨٥). وانظر جامع العلوم والحكم (ص٢١٧)، وفتح الباري (٣/١٥)، (١١/٣٤٥).

(٢) تقدم تخريجه.

الحديث الثالث والثلاثون:

طلب البركة وفسحة الأجل

أخبرنا شيخنا القاضي المقري، القدوة الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن علي، قال: أنبأنا عمر بن أحمد، قال: أنبأنا شاهين، قال: أنبأنا عبد الله البغوي، قال: أنبأنا عبد الله بن عمر القواريري، قال: أنبأنا زائدة بن أبي الرقاد، عن زياد النميري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال:

«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي رَجَبٍ وَشَعْبَانَ، وبلِّغْنَا إِلَى رَمَضَانَ»[(١)].

في هذا الحديث الشريف معان كثيرة، منها: طلب فسحة الأجل، لصالح العمل، ليكون العمر لله، والعمل فيه لله، وكذلك مقاصد العارفين بالله، الوارثين رسول الله ﷺ، وهذا حال أهل التقوى.

أي بني! اعلم أن التقوى على وجهين: خاص، وعام، فأما [وجه] التقوى الخاص: فالاتقاء بالسر عن الهمة والمُنْيَة من غير ذات الله تعالى، حيث قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

وأما تقوى العام: فالاتقاء بالظاهر عن جميع ما كره الله تعالى.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطّلَاق: ٥].

والله تعالى جعل الفرج والمخرج من الهموم، واليسر والسعة في التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطّلَاق: ٤].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٥٩)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٧٥)، والديلمي في الفردوس (١/ ٤٨٥). وانظر: الجامع الصغير (١/ ١٤٢)، وكشف الخفا (١/ ٢١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قيل في معناه: ومن يتق الله في أداء الطاعة، يجعل له مخرجاً من غبار الذنوب والزلات، ويرزقه النجاة من العقوبات، من حيث لا يحتسب.

ومعنى آخر: ومن يتق الله عند الإنابة بالحجة، يجعل له مخرجاً من شدة المحاسبة، ويرزقه سلامة الدارين، من حيث لا يحتسب.

ومعنى آخر: يجعل له مخرجاً من جميع الاشتغال بغير الله، ويرزقه حياة طيبة من حيث لا يحتسب.

ومعنى آخر: من يتق الله بترك المحارم والشبهات، يجعل له مخرجاً من الإرادات والشهوات، ويرزقه حلاوة الطاعة، من حيث لا يحتسب.

ومن يتق الله عند قول الحق، ولا يخاف لومة لائم، يجعل له مخرجاً من مكر الناس ومكائدهم، ويرزقه الظفر من حيث لا يحتسب.

ومن يتق الله بترك التعلق بغير الله، يجعل له مخرجاً من عبودية ما سواه، ويرزقه الصدق والإخلاص، من حيث لا يحتسب.

يروى أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا كان يومُ القيامة يقول الله تعالى: يا أيها الناس! إني جعلت نسباً، وأنتم جعلتم نسباً، إني جعلت أكرمكم أتقاكم، وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم، وإني أرفع اليوم نسبي وأضع نسبكم، فأين المتقون؟ اليوم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**».

وقال ﷺ: «**إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ...**»[1].

فـ «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لا يَرِيبُكَ**».

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا، ما قبل منكم إلا بورع صادق.

---

(١) رواه البخاري (١/٢٨)، (٢/٧٢٣)، ومسلم (٣/١٢١٩، ١٢٢١).
وانظر: جامع العلوم والحكم (١/٩)، والورع لابن حنبل (ص٤٧)، والفتح (١/١٢٧)، (٤/٢٩١)، والتمهيد (٩/٢٠١)، وشرح النووي (١١/٢٧)، والديباج (٤/١٩٠).

وقال وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ: من وضع شهواته تحت قدميه، فرَّ الشيطان من ظله، ومن غلب عقلُه هواه، فذاك الصابر الغالب.

وقيل لرجل مِنْ أهل التقوى: من أين جئت؟

قال: ما سؤالك عن شيء لا ينفعك معرفته، ولا يضرك جهله، فاشتغل بما يعنيك، عما لا يعنيك.

فقيل له: ما رأس التقوى؟

قال: أن تحفظ نفسك من الشهوات، وحلقك من اللذات، وقلبك من الغفلات.

وقال: اتق الله الذي آخذ آدم بلقمة، وموسى بلطمة، وداود بنظرة، ويوسف بهَمَّة، ونوحاً بدعوة، ومحمداً بخطرة، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال عبيد بن عمير ـ رحمه الله تعالى ـ: لا ينبغي لمن تزين بلباس الورع والتقوى، أن ينظر إلى شهوات الدنيا، ويتكلم بما لا يعنيه.

وقال جعفر الأزدي: بلت في أصل حائط، فهتف بي هاتف: تدّعي التقوى، وتبول في أصل حائط غيرك!!.

وحكي أن ابن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ ارتحل من مرو إلى الشام، من أجل قلم كان قد استعاره فلم يرده إلى صاحبه.

وفي الخبر: لا تفضلوا أحداً على أحد، إلا بالورع والتقوى، لأنهما أفضل الأعمال.

وقال أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: ما من أحد ترك شيئاً لله، إلا آتاه الله ما هو خير له منه، من حيث لا يحتسب.

وقال ابن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ: حرام على كل قلب فيه حب الدنيا، أن تسكن فيه التقوى.

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: القليل من الورع، خير من صلاة أهل الدنيا.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلَهي! خلقتَ آدم بيدك، وأدخلته الجنة، وفعلت به ما فعلت من الإحسان، ثم أخرجته منها بزلة واحدة!.

فقال: يا موسى! أما علمت أن جفاء الحبيب شديد، لا يُحتمل من الأحباء، ما يُحتمل من الأعداء.

وَلَسْتُ أَرَىٰ ٱلسَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ ... وَلٰكِنَّ ٱلتَّقِيَّ هُوَ ٱلسَّعِيدُ

* * *

الحديث الرابع والثلاثون:

بركة التسمية باسم رسول الله

أخبرنا شيخنا القاضي القدوة: أبو الفضل علي الواسطي، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد، قال: أنبأنا أبو عبد الله الحسين، قال: أنبأنا أحمد بن بكير بن حامد، عن حماد العسكري، عن إسحاق بن سيار، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن برد بن سنان، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ وُلِدَ لَهُ مولودٌ فسماهُ محمداً تبركاً به، كان هو ومولودهُ في الجنة»(1).

في هذا الحديث الشريف، من سِرّ الحب له ﷺ ما يفهمه أهل الخصوصية، فإنهم بذكر اسمه المبارك، ترتاح هممهم للتخلق بأخلاقه الزكية، وللتشبث بأذياله، فتراهم لا تقف هممهم في طريق متابعته وقفة المشغول بالدنيا، بل هم متنبهون خاشعون، ومن الله خائفون، ولنبيهم متبعون، وبسنّته عاملون، وأولئك هم العارفون.

أي بني! اعلم أن أهل المعرفة يبكون إذا ضحك أهل الغفلة، ويحزنون إذا فرح أهل الغرة.

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

أنواع البكاء:

وإن الله تعالى، ذكر من دلائل المعرفة، ومن علامات العارفين، كثرة البكاء وسيل الدموع، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٦٨٢)، وأحمد (٣/ ٣٨٥).
وانظر: الفتح (٦/ ٥٥٦)، والكشف الحسنين (ص٢٤٧)، والمنار المنيف (ص٦١).

وذم أهل الغفلة بالضحك، وترك البكاء، في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠].

واعلم أن البكاء بكاء العين، وبكاء القلب، وبكاء السر.

فأما بكاء العين، فهو لأهل المعرفة من المنيبين.

وأما بكاء القلب، فهو لأهل المعرفة من المريدين.

وأما بكاء السر، فهو لأهل المعرفة من المحبين.

واعلم أن لأهل المعرفة، هموماً مخبوءة تحت أسرارهم، مستورة عن أفكارهم، فكلما هاج من أسرارهم رياح خشية الهيبة، ومن قلوبهم لهب نيران الأحزان، أحرقت ما عليها من هشيم الغفلة والنسيان.

درجات البكاء:

والبكاء على خمسة أوجه:

١ ـ بكاء الحياء، مثل بكاء آدم.

٢ ـ وبكاء الخطيئة، مثل بكاء داود.

٣ ـ وبكاء الخوف، مثل بكاء يحيى بن زكريا.

٤ ـ وبكاء الفقد، مثل بكاء يعقوب.

٥ ـ وبكاء الهيبة، مثل بكاء سائر الأنبياء، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وبكاء سادس: مثل بكاء شعيب، ذلك بكاء الشوق والمحبة، بكى شعيب حتى ذهب بصره، ثم ردّ إليه بصره، فبكى حتى ذهب بصره ـ ثلاث مرات ـ فأوحى الله تعالى إليه: أن يا شعيب! إنْ كان بكاؤك من مخافة النار، فقد أمنتك من النار، وإن كان بكاؤك من أجل الجنة، فقد أوجبت لك الجنة.

فقال: لا يا رب! ولكنْ مِنَ الشوق إلى رؤيتك.

فأوحى الله إليه: أن يا شعيب! حُقَّ لمن أرادني أن يبكي من شوقي، إنه ليس لهذا الداء دواء، غير لقائي.

ويروى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: لو أن عبداً بكى من خشية الله في أمّة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

وقالت رابعة رحمها الله تعالى: بكيت عشر سنين عن الله، وعشر سنين بالله، وعشر سنين إلى الله، فأما ما هو بالله: فالرجاء به، وأما ما هو عن الله: فالخوف منه، وأما ما هو إلى الله: فالشوق إليه.

وقال بعضهم: دخلت على رابعة البصرية، فإذا هي ساجدة، فجلست عندها حتى رفعتْ رأسها، فإذا في موضع سجودها ماء واقف من دموعها، فسلمت عليها، فردت عليَّ السلام، وقالت: ما حاجتك؟ قلت: أريد زيارتك؟ فبكت، ثم صرفت وجهها عني، وكانت تبكي وتقول: قرَّة عيني، لا بد لي منك، فالعجب ممن عرفك، كيف يشتغل بغيرك؟ والعجب ممن أرادك؟ كيف يريد غيرك؟!.

وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يقول في بكائه:

اللهم ارحم انقطاعي إليك، وإعراضي عن سواك، وغربتي في بلادك، ووحشتي بين عبادك، ووقوفي بين يديك.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: بينا أنا في الطواف، إذا أنا برجل قد تغيَّر لونه، ونحل جسمه، وهو يبكي ويدمدم مع نفسه، فدنوت منه، فإذا هو يقول: إلّهي! قد استأنستْ بك قلوب المحبين، واسْتَرَاحَتْ إليك قلوب العارفين، فلا تقطع منك آمال المشتاقين.

قال: فسمعت هاتفاً يقول: يا ولي الله! لقد أبكيت السمٰوات السبع، أسكت، فإن لك ما سألت!.

وروي أن آدم عليه الصلاة والسلام، لما نزل من الجنة، بكى حتى نبت من دموعه النبات، فأوحى الله إليه: هذا البكاء على فوت الجنان، فأين البكاء على ترك خدمتي؟ ففزع آدم إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إلّه إلا أنت سبحانك.

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٣٧].

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: رأيت بمكة رجلاً يبكي بكاء العارفين، فدنوت منه وقلت: ألك حبيب؟ قال: نعم. قلت: حبيبك قريب أم بعيد؟ قال: قريب. قلت: موافق لك أم مخالف؟ قال: بل موافق لي، قلت: سبحان الله! فلمَ تبكي؟.

قال: أما علمت أن عذاب القرب والموافقة، أشد من عذاب البعد والمخالفة.

وحكي أن رابعة ـ رحمها الله تعالى ـ كانت تمر يوماً في بعض طرق البصرة، فقطرت عليها قطرة من الميزاب، فسألت عنها، فقيل: إنها من بكاء الحسن، قالت: قولوا للحسن: لو ازددت بالدموع، حتى تصل للعرش محبة له، لكان قليلاً.

وقال عباد بن شميط بن عجلان: هل يبكي المنافق؟.

قال: أما من الرأس فنعم، وأما من القلب فلا!.

قال الفضيل ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا رأيت الرجل يبكي، وقلبه ساه، فهو بكاء منافق! وإن البكاء: بكاء القلب.

قيل لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ: ألا تجيء بقارىء يقرأ بين يديك؟.

فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى النائحة.

وقال كعب الأحبار ـ رحمه الله تعالى ـ: لأن أبكي دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدق بجبل من الذهب.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يبكي ويقول: يا نفس! تريدين أن تجاوري الجبار، وتشاهدي المختار، بأي شهوة تركتها؟ بأي بعيد قربتِهِ إلى الله؟ بأي ولي أحببتِه لله؟ بأي عدو أبغضتِه لله؟ بأي غيظ كظمتِه لله؟ لا، والله لولا عفو الله ورحمته، ثم يُغشىٰ عليه.

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام: «لن يتقرب إليَّ المتقربون بمثل البكاء من خشيتي».

وقال ثابت النساج رحمه الله: ما شرب داود عليه الصلاة والسلام شربة من الماء بعد الخطيئة، إلا وكان نصفه دموعه، حتى لحق بالله عزّ وجل، فقال يوماً من الأيام فيما رأى من كثرة دموعه: أما ترحم بكائي يا إلّهي! فنودي من السماء: يا داود! تذكر دموعك، ولا تذكر ذنبك؟! فأخذ برمض النار من الرماد، وصار يجعله على رأسه، ويقول: ذهب ماء وجهي عند ربي.

وقيل: كان في عهد الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ رجل كان له ابنة تبكي حتى عميت عيناها، فجاء الرجل إلى الحسن ودعاه ليعظها، لعلها ترفق بنفسها، فأتاها الحسن وقال لها: ارفقي!.

فقالت: أيها الأستاذ! إن عيني لا تخلو من وجهين، إما أن تصلح لرؤية ربي، أو لا تصلح، فإن لم تصلح فحُقّ لها أن تعمى! وإن كانت تصلح فألوف مثل عيني فداء لرؤيته.

قال الحسن: جئت مداوياً، فصرت مداوىٰ، وأتيت مطبباً، فوجدت طبيباً.

وقالت سلمة بنت خالد المخزومي رحمها الله: كانت امرأة من الشام ببيت الله الحرام، يقال لها: حزينة، أبداً تبكي من غلبة الشوق، وكلما نظرتْ إلى باب الكعبة، قالت: بيت ربي، بيت ربي.

ففُتِحَ باب الكعبة يوماً من الأيام، فرأت فيها طائفين يبكون، ويقولون: مليكنا وقرة أعيننا، طال إليك شوقنا، متى تكون ملاقاتنا؟ فسمعت تلك المقالة، فصاحت صيحة وخرّت مغشياً عليها، ولم تزل تضطرب حتى ماتت.

وقال يحيى بن أصفر: دخلنا مع جماعة من أصحابنا على عفيرة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ وكانت عمياء من كثرة بكائها، فقال واحد منا: ما أشد العمى بعد البصر! فسمعت ذلك، فقالت: يا أبا عبد الله! عمى القلب عن الله، أشد من عمى العين! ووددت لو أن الله أعطاني كُنه محبته، ولم يبق لي جارحة إلا أخذها مني!.

اللَّيْلُ دَاجٍ وَالْعُصَاةُ نِيَامْ وَالْعَارِفُونَ لَدَىٰ الْجَلِيلِ قِيَامُ

يَتْلُونَ آيَاتِ الْهُدَىٰ وَدُمُوعُهُمْ تَجْرِي وَمِنْهَا قَدْ تَفِيضُ سِجَامُ

لاَ يَصْبِرُونَ سُوَيْعَةً عَنْ ذِكْرِهِ شَوْقاً، وَلَيْسَ لِمَنْ يُحِبُّ مَنَامُ

* * *

الحديث الخامس والثلاثون:

إذا أحبّ الله عبداً اجتباه

أخبرنا شيخنا خالي أبو المكارم: منصور، الباز الأشهب البطايحي، رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن شاذان، قال: أنبأنا أبو نصر أحمد بن نصر بن محمد بن اشكاب النجاري، قال: أنبأنا الحسن بن محمد بن موسى القمي، قال: أنبأنا عبد الرحيم بن جندب، عن إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، عن سفيان، عن ليث، عن طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَدَّىٰ إِلَىٰ أُمَّتِي حَدِيثاً، لِتُقَامَ بِهِ سُنَّةٌ، أَوْ تُثْلَمَ بِهِ بِدْعَةٌ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ»[1].

من هذا الحديث الشريف، يُعلم أن أهل الجنة القائمون بإقامة السُّنَّة، وإثلام البدعة، تجرداً لله تعالى، وتوكلاً عليه، وإيماناً به، وحباً له.

أي بني! اعلم أن حبيب القلوب سبحانه، إذا أحبّ عبداً أطلع سره على جلال قدرته، وحرّك قلبه بمراوح ذكر مِنَّتِهِ، وسقاه شَربة من كأس محبته، حتى يُسكره به عن غيره، وجعله من أهل أُنسه وقربه وصحبته، حتى لا يصبر عن ذكر ربه، ولا يختار أحداً عليه، ولا يشغل بشيء دون أمره.

وقال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: منزلة الحب أقدم من منزلة الخوف، فمن أراد الدخول في عصبة أهل المحبة فليحسن الظن بالله، وليعظم حرمته.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن يا داود! أحبني، وأحب أحبائي، وحبّبني إلى عبادي.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٤)، وأورده السيوطي في مفتاح الجنة (ص٥٣)، والمناوي في فيض القدير (٦/ ٤٤).

فقال داود: إلٓهي! أُحبك، وأحب أحباءك، فكيف أحببك إلى عبادك؟.

فقال: ذكِّرهم آلائي، وحسن لطائفي.

وفي الخبر: «إذا أحبَّ الله عبداً من عباده، نادىٰ جبريل عليه الصلاة والسلام: يا أهل السماء والأرض! يا معشر أولياء الله وأصفيائه! إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه» [روى البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ ٱللَّهُ تَعالىٰ ٱلْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ ٱلْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**»[1].

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ ٱللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي ٱلسَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ ٱلسَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ ٱلْقَبُولُ فِي الأَرْضِ.**

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِني أُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ: إِنَّ ٱللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ ٱلْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»][1].

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: كل عمل لم يكن فيه محبة الله لم يُقبل.

وقال: مَن أحب الله ابتلاه بالمحن، فمَن التفت منه إلى ما سواه صار محجوباً عنه، وسقط عن بساط أهل المحبة.

وقال عبد الله بن زيد رحمه الله تعالى: مررت برجل نائم في الثلج، وعلى جبينه قطرات من العرق! فقلت له: يا أبا عبد الله! أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب مولاه، لا يجد البرد.

قلت: وما علامة المحب؟.

قال: استقلال الكثير من نفسه، واستكثار القليل من حبيبه.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠)، ومالك (٢/ ٩٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٤١)، (٢/ ٥٠٩، ٥١٤)، (٥/ ٢٥٩).

قلت له: أوصني، فقال: كن لله، يكن الله لك.

وقال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: دخلت سوق النخاسين لأشتري جارية، فرأيت جارية مشدودة على وجنتيها عصابة، مكتوب عليها: من أرادنا أفلسناه! ومن هرب منَّا وسوسناه!

فقلت: كذا قال الله تعالى لعباده: إن طلبتموني أنسيْتُكم بنفسي عن غيري، وأفنيتكم بي عن أنفسكم، حتى لا ترون شيئاً دوني.

قال: قرع واحد بابَ محبوبه، فقال مِنْ داخل الباب: مَن أنت؟ قال: أنا، أنت! فقال: يا أنا! أُدخل.

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي ... أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي

أدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أنَّكَ أَنِّي

* * *

الحديث السادس والثلاثون:

ربنا ولك الحمد

أخبرنا شيخنا العارف بالله: علي القاري، الواسطي، قال: أخبرنا أبو بكر الوراق، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد، عن أحمد بن عبد المؤمن، عن علي بن الحسن المروزي، عن أبي حمزة، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «**سَمِعَ ٱللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قَالَ: رَبَّنَا وَلَكَ ٱلْحَمْدُ**»[1].

في هذا الحديث، من أسرار الموافقة لداعي الله - الذي يرد شأنه على كل لسان - ما يفهمه أهل الذوق من أرباب المحبة.

أي بني! قيل لواحد: ما حقيقة المحبة؟ قال: الموافقة.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يُحبُّك، والعمل الذي يبلغني حُبَّك، واجعل حبَّك أحب الأشياء إليَّ**».

وقال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق من خالص حب الله، استوحش عمن سواه، وترك لأجله كل ما يهواه.

ويقال: جفاء العدو غم نازل، وجفاء الحبيب سُمٌّ قاتل.

وكان ذو النون المصري - رحمه الله تعالى - كثيراً ما يقرأ القرآن، ثم بعد ذلك يشتغل بالحديث، فسمع في المنام:

إنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي ... فَلِمْ هَجَرْتَ كِتَابِي!
أَمَا تَدبَّرْتَ مَا فِيـ ... ـهِ مِنْ لَطِيفِ عِتَابِي؟!

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٤٤ - ٢٥٨)، ومسلم (١/ ٢٩٣ - ٣١١)، وأحمد في المسند (١/ ٩٤، ١٠٢، ١٤٣).

قال: فترك الحديث، وأقبل على قراءة القرآن.

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً في الدنيا وأهلها، فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطّاع الطريق على عبادي.

ويقال: أصل المحبة هو المحو، إلاّ أنها على ثلاث مدارج، العام، والخاص، وخاصُّ الخاص.

فأما العام: فمحو القلب عن حب الذنوب والمعاصي.

والخاص: محو القلب عن حب الدنيا وأهلها.

وخاص الخاص: محو القلب عن حب ما دون الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ في بعض مناجاته:

إلّهي! لا تعذب قلباً أنت حبيبه.

إلّهي! إن تعذبني عذبتَ من أحبك، وإن أهنتني أهنت من أحبك، وإن أكرمتني أكرمت من أحبك.

وحكي أن أبا يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ تكلم يوماً بكلام أهل المحبة، فجاء طائر فلم يزل يدنو منه، حتى جلس بين يديه، ثم ضرب بمنقاره على الأرض، وسال منه الدم حتى مات!.

وحكي أن واحداً من العارفين، مرَّ برجل من العيَّارين ـ وهم أصحاب الهمّة في أعمالهم ـ، يضرب عبداً له بعود، والعبد يضحك في وجهه!.

فقيل له: يا هذا! يضربك السيد بالسياط، وأنت تضحك!.

قال: من حلاوة حبه، لا أجد ألم الضرب!.

فصاح العارف، وخرَّ مغشياً عليه.

وقال يحيى رحمه الله تعالى: ليس بصادق في حبه، من لم يحفظ حدوده، ولم يعظم حرمته، ولم يعرف منته.

وحكي أن رجلاً جاء إلى عبد الواحد بن زيد فقال: أخبرني بأقرب الأعمال إلى الله تعالى، وأعظمها عنده زلفى، فقال: أن تحبَّ ما يُحِبُّ الله. فقال: اشرح لي صفة المحبة؟.

فبكى عبد الواحد وقال: أتحتمل؟ قال: ما شاء الله.

فوصف له شيئاً من المحبة وحقائقها، فغشي على الرجل، فلما أفاق قال: سبحان الله! من يستأهل هذا؟ أو مَنْ يطيق الاستقامة على تحقيق المحبة؟.

فقال: ربَّ قلب قصد محبوبه قصداً، لا يدركه الريح العاصف، ولا البرق الخاطف، حتى وصل إلى محبوبه.

قيل: أوَ هَلْ يكون للمحب علامة؟.

قال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وكذلك المحبة، إذا دخلت القلب، تلاشت النفس بكل ما فيها من صفات الإنسانية تحت سلطانها، فاحترق ما في القلب من غير الله بنيرانها.

قيل لبعضهم: ما بال المحبين كالمبهوتين؟ قال: لأنهم ذاقوا حلاوة محبته، وسمعوا أصوات عجائب حسن دعوته، حتى طارت عقولهم وقلوبهم إليه، وصاروا مدهوشين به.

هيهات، أين الحب؟ وأين صفوة الحب؟ وأين حقائق الحب؟ وأين من يستحق الحب؟ ألا إنَّ من أحبه لا يصبر عنه طرفة عين.

إِنَّ الْمُحِبَّ نَهَارُهُ مُسْتَوْحِشٌ   بَيْنَ الْعِبَادِ يَسِيرُ كَالْمُتَفَرِّدِ
فَالْعَيْنُ مِنْهُ قَرِيرَةٌ بِحَبِيبِهِ   يَرْجُو لِقَاءَ الْوَاحِدِ الْمُتَوَحِّدِ
يَا حُسْنَ مَوْكِبِهِمْ إِذَا مَا أَقْبَلُوا   نَحْوَ ٱلإِلَـهِ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

* * *

الحديث السابع والثلاثون:

إفشاء السلام

أخبرنا شيخنا أبو المكارم، باز الله الأشهب، خالي الشيخ: منصور، الأنصاري الحسيني ـ برواقه في نهر دقلى ـ قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد ـ اشتهر بابن الصلت ـ قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، قال: حدثنا الفضيل بن موسى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

أمر ﷺ بهذا الحديث الشريف: بقمع النفس، ومحق ثورتها، وصفعها بنعل الهمة، إذا تعدت طورها، بشأن إخوانها المسلمين.

وألزم بالمحبة الخالصة، وجعلها عماد الإيمان، لأنها لله سبحانه وتعالى.

وعلَّمَنَا ـ وهو معلم الخير ـ ﷺ أن إفشاء السلام منتج للمحبة، وأهل الحق ممتحنون بأهل الباطل، ولكن لا تنحرف هممهم عن الحق، اعتماداً عليه سبحانه وتعالى.

أي بني! اعلم أن الله تعالى خلق الدنيا، وجعلها دار المحنة، ومحل الأخطار والأشرار، ثم خلط فيها الأبرار والفجار، وأهل المحبة بأهل البطالة، ثم يقلبهم من حال النعمة إلى حال الشدة، ومن حال الشدة إلى حال النعمة، لإظهار من يعبده على بساط المحنة، ممن يعبده على بساط النعمة، ومن يعبده على رؤية المعطي، ممن يعبده على رؤية العطاء!.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

وفي الخبر: إن الذهب ليجرَّب بالنار، والعبد الصالح ليجرَّب بالبلاء.

والحكمة في امتحان الله تعالى عباده الصالحين: إظهار ما في ضمائرهم من صدق الدعوى وكذبه، وحقيقة المعنى وبطلانه، ليكون فيه ظهور مرتبة الصدِّيقين، وافتضاح غيرهم.

أما ترى أنه لا يسع للحاكم أن يحكم للخصم على إحاطة علمه، في تصديق دعواه وبطلانه، من غير أن يظهر لغيره ذلك!.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

ثم اختلفوا، فقال بعض العلماء: من يعبده على بساط النعمة، أولى ممن يعبده على بساط المحنة، لأن منزلة الشكر، أفضل من منزلة الصبر، وذلك لأن الشكر على النعمة طاعة على بساط الفراغة، والصبر على الشدة طاعة على بساط الشغل.

وليس من عَبَدَ الله فارغاً، كمن عَبَدَه مشغولاً!.

وقال بعضهم: من يعبده على بساط المحنة أفضل، لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أفضل مرتبة ممن دونهم، فامتحن الله عامتهم بأنواع المحن والبلاء.

وقال ﷺ: «أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ»[1] الخبر.

وإن الكفرة هم أهون الخلق على الله، وعيش عامتهم بأنواع النعم.

وليس من طلبه بنفي الحجاب، كمن طلبه من وراء الحجاب.

وبشِّر الصابرين:

والشاكر يطلبه من وراء الحجاب، والصابر يطلبه دون الحجاب.

والشاكر يعبده على حظ نفسه، والصابر يعبده على حب ربه.

والشاكر مفتخر بملكه، والصابر مفتخر بمليكه.

والشاكر حبس نفسه مع النعمة، والصابر حبس قلبه مع المنعم.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٣٩)، والحاكم (١/ ٩٩)، وأحمد (٦/ ٣٦٩).

والشاكر يقول: ما دامت النعمة معي، لا أبالي إن أصابني ما أصابني.

والصابر يقول: ما دام المنعم معي، لا أبالي إن أصابني ما أصابني.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البَقَرَة: ١٥٦].

وإن الله تعالى أوجب للشاكر الزيادة، ونفى عن أجر الصابر النهاية، حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: إني قَدَّرْتُ في أم الكتاب، أني إذا أحببت عبداً جعلته للبلاء غرضاً، وألبسته جلباب الفقر.

وفي الخبر: أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: قل لأوليائي وأصفيائي وأهل محبتي: أن لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يسكنوا مساكن أعدائي، ولا يَطْعَمُوا مطاعم أعدائي، فيكونوا أعدائي، كما أولئك أعدائي.

وقال وهب رحمه الله تعالى: إنا نجد في كتاب الله المنزّل: إن عبادي المخلصين، كانوا إذا سلكوا طريق الشدة والبلاء، فرحوا واستبشروا، ويقولون: الآن يتعهدنا ربنا!.

إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه:

وفي الحديث القدسي: «**إن البلاء أسرع إلى من يحبني، من السيل إلى منتهاه**».

حكي أن ذا النون المصري - رحمه الله تعالى - سمع مريضاً يقول: أخ، أخ! فقال: ليس هذا بصادق في حبه، فقال المريض: أنيني من وجدان اللذة، لا من وجدان الشدة.

وحكي أن فتحاً الموصلي رحمه الله تعالى، أصابه الحمى، فصلّى ألف ركعة، شكراً لله على ذلك، وقال: أمثلي يذكره الله من فوق عرشه! وعلم أن لي ذنباً فأراد طهارتي.

وقالت رابعة رحمها الله تعالى: ما عرفت البلاء منذ عرفت الله.

أي بني! الخلق صنفان: ولي، وعدو، والحال حالان: شدة، ونعمة، فربما تصل الشدة إلى الولي كرامة له، كما وصلت إلى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وربما تصل اللذة إلى العدو خسراناً له، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجدَة: ٢١].

وربما تصل النعمة إلى الولي استدراجاً وتنبيهاً له، وربما تصل النعمة إلى العدو، وهو حظه من الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

ثم إن الابتلاء على نوعين: إكرام، وإهانة.

فكل بلاء يقربك من المولى، فهو في الاسم: بلوى، وفي الحقيقة: زلفى.

وكل بلاء يُبعدك عن المولى، فهو في الحقيقة: بلوى!.

ألا ترى أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان سببُ ابتلائه: الخُلَّة والقربة.

وابتلى إبليس، وكان سبب ابتلائه: اللعنة والفضيحة!.

فقال إبراهيم في البلوى: حسبي ربي، وقال إبليس: حسبي نفسي!.

فنودي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخُلَّة، ولإبليس باللعنة!.

* * *

الحديث الثامن والثلاثون:

صلة الرحم

أخبرنا ابن عمي العبد الصالح السيد: سيف الدين عثمان، قال: حدثني أبوك السيد علي بن يحيى الرفاعي - صاحب المشهد المنوَّر بالجانب الشرقي من بغداد - قال: حدثني ابن عمي السيد حسن، قال: حدثني السيد يحيى، قال: حدثني السيد ثابت، عن أبيه السيد علي الحازم - ويكنى بأبي الفوارس - عن أبيه السيد علي، عن أبيه السيد رفاعة الحسن - المكي - عن أبيه السيد أبي القاسم محمد، عن أبيه السيد الحسن الرئيس، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمٰن الرضى المحدِّث، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام علي الرضا - صاحب طوس - عن أبيه الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين علي، عن أبيه الشهيد المظلوم الإمام الحسين، عن أبيه أمير المؤمنين علي المرتضى، رضي الله عنه وعنهم أجمعين، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمَّا أُسْرِيَ بي إِلَى السَّمَاءِ، رَأَيْتُ رَحِماً مُعَلَّقَةً بِالْعَرْشِ، تَشْكُو رَحِماً إِلَى رَبِّهَا أنها قَاطِعَةٌ لَهَا، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَكِ وَبَيْنَهَا مِنْ أَبٍ؟ قَالَتْ: نَلْتَقِي فِي أَرْبَعِينَ أَباً»[1].

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام للعبد بالرحمة، ما يقيد نفسه عن جموحها، إذا أدرك وكان من الموفقين، وقد بلغني عن بعض العارفين، أنه كان يقول في مناجاته:

إلٰهي! بأرحام اتصلت، وبقلوب بك اشتغلت.

أي بني! اعلم أن المحبين في طرائق العبودية، وأوقات المناجاة، على أصناف شتى، فمنهم من ناجاه على لسان الاعتذار، ومنهم من ناجاه على لسان التحير

(١) أورده الحافظ في الإصابة (٢/ ٢٠) بنحوه.

والاضطرار، ومنهم: من ناجاه على لسان الطرب والافتخار، ولو علم أهل الغفلة ما فاتهم في كل نفس!.

قال النبي ﷺ في مناجاته: «**إلٰهي! إذا قرّت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقر عيني بك، وأقر عيني بلذائذ أنسك، والشوق إلى لقائك**».

وكذا يقول من يحب: يا خير مؤنس وأنيس! يا خير صاحب وجليس! طوبى لمن اكتفى منك بك، اللهم لبيك، لبيك يا حبيب القلوب! لبيك يا سرور القلوب! لبيك لبيك يا منى القلوب، لبيك اللهم آليت بك عليك، أن لا تصرفني بك عنك، ولا تحجبني بك عنك.

إلٰهي! لو دعوتني إلى النار لأجبتك، وافتخرت بك، فكيف وقد دعوتني إلى نفسك؟.

إلٰهي! إن قربتني منك، فمَن الذي يبعدني؟ وإن أعززتني بك، فمَن الذي يذلني؟ وإن رفعتني إليك فمَن ذا الذي يضعني؟

إلٰهي! مَن أرهب وأنت مولاي؟ ولمَن أرجو وأنت مناي؟ وبمَن أستأنس وأنت جليسي؟ فبك عليك أن تتفضل بإتمام فضلك، يا نعم المولى! ونعم النصير.

إلٰهي! سري عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، وأنت بالجود معروف، وبالكرم موصوف.

إلٰهي! أنت أنيس المستأنسين من أحبائك، ومأوى المرهوبين من أصفيائك، وجليس الملهوفين من أوليائك.

إلٰهي! ما أطيب معرفتك في قلوب العارفين، وما أحلى ذكرك في أفواه الذاكرين، وما أحلى مودتك في أسرار المحبين.

إلٰهي! أنت الذي لا تبطل أمل الآملين، ولا يخفى عليك أحوال المريدين، ولا يخيب لديك رجاء المنيبين.

إلٰهي! أنت سروري إذا نظرتُ منك إليك، وأنت حسبي إذا استكفيت بك منك، وأنت أنيسي إذا نزلت منك بك.

اللهم ارحم انقطاعي إليك، وانفرادي بك، ووحشتي عمن سواك، فيا خير مؤنس وأنيس! ويا خير صاحب وجليس! كن دليلي منك وإليك.

إلٰهي! اجعل أجلَّ العطايا في قلبي حياءك، وأعذب الكلام على لساني ثناءك، وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

إلٰهي! ما أوحش قلباً ليس فيه ذكرك، وما أخرب قلباً ليس فيه خوفك! وما أقل سروراً ليس فيه حبك!.

إلٰهي! لا صبر لي في الدنيا عن ذكرك، فكيف أصبر في الآخرة عن رؤيتك؟!.

إلٰهي! أشكو إليك غربتي في بلادك، ووحشتي بين عبادك.

إلٰهي! ما لمرادنا غيرك، ولا لبغيتنا دونك، وما لحاجتنا سواك.

إلٰهي! هذه لذائذ المناجاة، فكيف لذائذ الملاقاة؟.

إلٰهي! هذا شكري، وشكر شكري.

إلٰهي! هذا سروري، وسرور سروري.

إلٰهي! هذا ودي وود ودي.

إلٰهي! أنسي بك أوحشني من خلقك، ومعرفتي بك تمنعني عن مناجاة غيرك.

إلٰهي! كيف أشغلُ لساني بذكر غيرك؟ أم كيف أشغلُ بصري برؤية غيرك؟ أم كيف أشغلُ قلبي بحب سواك؟ وأنا لا أعرف غيرك.

إلٰهي! على مَنْ أُثني وأنتَ وليي؟ ومَنْ أرجو وأنت مُناي؟ يا خير معروف ومذكور! أعززتني بولاية معرفتك، فلا تذلني يا سيدي بعدها بمَن سواك.

إلٰهي! عجبت ممن يعرفك، كيف لا يستغني عمن سواك؟.

إلٰهي! عجبت ممن أنس بك، كيف لا يستوحش عن غيرك؟.

إلٰهي! عجبت لمن أرادك كيف يريد سواك؟.

إلٰهي! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف سروري بك في دار البقاء؟.

إلٰهي! هذا سروري بك في قراطق ـ أي ثياب ـ الخدمة، فكيف سروري بك في غلائل النعمة؟.

إلٰهي! هذه لذائذ المحبة، فكيف لذائذ الرؤية؟.

إلٰهي! هذه لذائذ المؤانسة، فكيف لذائذ الزيارة؟.

إلٰهي! مَن لم يكن مسروراً بك، فَمِنْ أي شيء يكون له سرور؟.

إلٰهي! سقيتني بكأس الحب حتى أسكرتني، فالحب يقتلني، والشوق يحرقني.

إلٰهي! أريتني حبك، فأرني وصلك.

إلٰهي! طال بك حسن ظني، على أن لا تردني خائباً، فلا تخيب ظني بك، يا معروفاً بالمعروف!.

إلٰهي! ليس لي عنك صبر، ولا فيك حيلة، ولا منك بد، ولا عنك مهرب، ولا مع سواك أنس.

إلَهي! أحييتني بمعرفتك، فلا تمتني بنكرتك.

إلَهي! أريتني وصالك، فلا ترني فراقك.

إلَهي! إن لم تفعل ما نريد، فصبِّرنا على ما تريد؟.

إلَهي! فرِّغْ قلبي لذكر عظمتك، وأطلق لساني بوصف منتك، وقوِّني على شكر نعمتك.

إلَهي! ارحمني فأنا عاجز عند النَصب ـ أي المشقة والتعب ـ جاهل بالسبب، حيران في الطلب.

إلَهي! جعلت سبب ما تعطي رجاءك، وسبب ما يجمع بين أوليائك، تأليفك بين قلوبهم.

إلَهي! فأعطني المرجو كما وهبت الرجاء، واجمع بيني وبين أوليائك، كما ألّفت بين القلوب.

كيف يفتقر من أنت حظه؟ أم كيف يستوحش من أنت أنيسه؟ أم كيف يذل من أنت حبيبه؟ أم كيف يحزن من أنت نصيبه؟.

إلَهي! همك أبطل عني الهموم، وحبك حال بيني وبين الرقاد، وشوقي إليك منعني اللذات، وأنسي بك أوحشني عمن سواك.

إلَهي! أنت توالي من يعاديك، فكيف تعادي من يواليك؟!.

إلَهي! معرفتي بك دليلي عليك، وحبي لك وسيلتي إليك.

إلَهي! عرَفَ المحبون كمال ربوبيتك، والمذنبون صنيعك وكمال قدرتك، فاستسلموا وانقادوا لك.

إلَهي! اجعلني ممن لا يتخذ دونك خليلاً، ولا يلتمس إلى سواك سبيلاً، ولا يرجو من غيرك فتيلاً.

إلَهي! لا تجعلني ممن صرفت عنه وجهك، وحجبت عنه عفوك وأغلقت عليه بابك، وقطعت عنه أسباب عصمتك، ووكلته إلى نفسه، إنك على كل شيء قدير.

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة تقول:

إِلَيْكَ جِئْنَا وَأَنْتَ جِئْتَ بِنَا ... وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُحيِينَا

مِنْكَ طَلَبْنَا وَأَنْتَ تَمْلِكُنَا ... وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُؤْتِينَا

* * *

الحديث التاسع والثلاثون:

الحث على بر الوالدين

أخبرنا شيخنا منصور الرباني رضي الله عنه، عن أبيه سيدي يحيى النجاري، عن سيدي أبي محمد الشنبكي الأنصاري ثم الحسيني الحسني، عن الشيخ أبي بكر بن هوَّار البطايحي، عن سيدي سهل بن عبد الله التُسْتَري، عن الشيخ ذي النون المصري، عن الشيخ إسرافيل المغربي، عن الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين علي، عن أبيه الإمام الحسين، عن أبيه الإمام علي المرتضى رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ أنه قال: «نَظَرُ الْوَلَدِ إِلَىٰ وَالِدَيْهِ عِبَادَةٌ»[1].

قلت: في هذا الحديث الشريف، من إعظام شأن الحب لله، ما يرفع بهمم المحبين إلى الله، فإن النظر في الله عبادة، وكذلك.

أي بني! فاعلم أن عالم أسرار المحبين، والمطلع على همة المشتاقين، طيب الدنيا للعارفين، بذكر الخروج منها، كما طيب الجنة لأهلها، بذكر الخلود فيها، ولا شيء أحبُّ إلى المحب من لقاء المحبوب، ولولا الآجال التي كتبها الله على المشتاقين، لماتت أرواحهم في أبدانهم، لشدة الاشتياق إليه.

قال أنس رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله! لو شاء الله أن يدوم البقاء لأوليائه في الدنيا.

فقال: يأبى الله أن يجعل الخلود لأوليائه في الدنيا، بل اختار لأوليائه وأحبائه ما عنده من جزيل كراماته، أما تعلمون أن الحبيب يشتاق إلى الحبيب، فطوبى لمن كان روحه وراحته في لقاء الله.

وحكي أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لرفيق له: أين تذهب؟ فقال: أشتري شيئاً لأهلي.

---

(١) لم أجده في المصادر التي بين أيدينا.

فقال أبو هريرة له: إن قدرت تشتري الموت لي فافعل، فإنه طال شوقي إلى ربي، وإن الموت أحب إليَّ من شرب الماء البارد للعطشان، وأحلى من العسل، ثم بكى بكاءً شديداً، وقال: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه، وغشي عليه.

قيل لأويس رحمه الله تعالى: كيف أصبحت؟

قال: كيف يصبح من إذا أصبح لا يشتهي أن يمسي، وإذا أمسى لا يشتهي أن يصبح، وطال شوقه إلى منى قلبه.

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كنت أسير في بعض حيطان البصرة، فرأيت شاباً مريضاً أشعث أغبر، مستقبلاً للقبلة، يقول: قرةَ عيني، طال شوقي إليك، وما آن أن ألقاك؟ فإلى متى تحبسني عنك؟

فقلت: يا شاب! هذا الوقت الذي يطلب فيه الأحبة محبوبهم؟.

فقال: الحبيب في كل الأوقات موجود، ليس بمفقود، بل هذا الوقت الذي تُظهر الأحبة احتراقهم بحبيبهم، ويكشف المشتاقون كتمان سرائرهم، بهيجان نيران الاشتياق إلى مُناهم.

وحكي أن رجلاً من أهل البصرة، بكى على شوقه حتى ذهب عيناه، ثم قال:

إلٰهي! إلى متى لا ألقاك؟ فبعزتك لو كانت بيني وبينك نار تلتهب، ما رجعت عنك ـ بعونك وتوفيقك ـ حتى أصل إليك، ولا أرضى منك بدونك.

قيل: كان لفتح الموصلي ـ رحمه الله تعالى ـ ابنتان عارفتان، فخرجتا إلى الحج، فلما وقعت أعينهما على البيت قالت إحداهما للأخرى: يا هذه! أهذا بيت ربي؟!

فقالت الأخرى: نعم، فصاحت صيحة، وماتت من ساعتها!.

وقالت الأخرى: إلٰهي! أشكو من نفسي إليك، وقد طال شوقي إليك آه، آه، آه، تقولها حتى ماتت.

وقيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله: ما حظيرة القدس؟

قال: هي حظيرة جعلها الله لاستماع كلامه ومناجاته، والنظر إلى وجهه، حيث شاؤوا ومتى شاؤوا، وتلا قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصّلت: ٣١].

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: دخلت جبل لبنان، فإذا أنا بشاب قائم يقول: يا من قلبي له محب! ونفسي له خادمة، وشوقي إليه شديد، متى ألقاك؟.

فقلت: رحمك الله! ما علامة حب الله؟.

قال: حب ذكره، قلت: فما علامة المشتاق؟ قال: أن لا ينساه في كل حال.

بعض أهل المعرفة حضرته الوفاة، فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: كيف لا أبكي، وأنا أبقى منك فرداً.

قال: يا هذه! أنا منذ أربعين سنة بكيت شوقاً إلى هذا اليوم، فإنه يوم وصلتي وأُلفتي وراحتي، فمرحباً به!.

وحكي أن الحسن البصري رضي الله عنه حضرته الوفاة، وكانوا يلقنونه الشهادة، ففتح عينيه وقال: إلى متى تدعونني إليه، وأنا محترق به منذ عشرين سنة؟.

وسئل سهل بن علي ـ رحمه الله تعالى ـ عن خفقان قلب الخليل، وأزيز قلب المصطفى صلى الله عليهما وسلم.

فقال: خفقانه من الخوف، وأزيزه من الشوق.

وبكت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ عند موتها، وضحكت من ساعتها، فقيل لها في ذلك!.

فقالت: أما بكائي، فمن مفارقتي الذكر آناء ليلي ونهاري، وأما ضحكي، فمن سروري بلقائه، وماتت من لحظتها.

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه، فقيل له: ألا ندعو لك طبيباً يداويك؟.

فقال: الطبيب أمرضني، طال شوقي إلى ربي، وإلى قرّة عيني محمد ﷺ وإلى إخواني الذين مضوا من قبلي، وإني أخاف أن أُفَرَّقَ عنهم.

وكان ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ يقول ليلة إلى الصباح: المستغاث، المستغاث، ثم دخله السكينة، فقيل له في ذلك!.

فقال: نظرت البارحة بعين السر، في ملاحظة الحق، حتى بسط إليَّ بساط محبته، وغلبني الاشتياق إليه، فاستغثت إليه بالخروج من الدنيا، كما يستغيث أهل النار بالخروج منها.

ثم نظرت إلى سرور المجتهدين في الدنيا، ومؤانسة المريدين في ظلم الليالي، وافتراشهم الجبهة بين يدي علاّم الغيوب بصفاء القلوب، فدخلتْ عليَّ السكينة.

قال عقبة بن سلمة رحمه الله تعالى: ما من ساعة يكون العبد أقرب إلى الله من حين يخر ساجداً، وما من خصلة في العبد أحب إلى الله من الشوق إلى لقائه.

وفي الخبر: نعم التحفة للمؤمن لقاء مولاه.

قال محمد بن يوسف رحمه الله تعالى: لو خُيِّرت بين أن أعيش في الدنيا مائة سنة، أعبد الله تعالى لا أعصيه طرفة عين، وبين أن أموت، لاخترت الموت.

قيل: ولِمَ ذلك؟ قال: من شدة اشتياقي إليه!.

* * *

الحديث الأربعون:

آداب إسلامية

حدثنا شيخنا الشيخ القدوة: علي الواسطي رضي الله عنه، قال: حدثني أبو الفوارس طراد بن محمد الزبيبي، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن زرقويه، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن يحيى الطائي، قال: أخبرنا جد أبي علي بن حرب بن محمد الطائي، عن سفيان بن عيينة، عن الزُهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«التَّسْبِيحُ لِلرِّجالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلْنِّسَاء»[1].

هذا الحديث يشير إلى الجد في الأعمال، واستهلاك الحركات والسكنات في الله تعالى.

وقد ترى جماعة من العارفين، يضربون للإشارات في الحالات، ولدى الحضرات كفًا بكف، فإياك أن تظن أن إشارتهم هذه: من التصفيق، فتزلق، إنما هي استهلاك حركة لله، في حركة أخرى لله، فإنهم ماتوا بالله، حالة كونهم أحياء، فلذلك أحياهم الله، حالة كونهم أمواتاً.

أي بني! اعلم أن لله تعالى عباداً، قد ملئت قلوبهم بمحبة ربهم، ينتظرون الموت اشتياقاً إلى حبيبهم، ويكرهون طول المُكْثِ في هذه الدنيا، لا راحة لهم دون الخروج منها، وهم مغمومون بطول البقاء فيها، وشوقهم إلى الخروج، أشد من شوق

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٠٣)، ومسلم (١/ ٣١٨)، وابن الجارود في المنتقى (ص٦٣)، والترمذي (٢/ ٢٠٥)، وأبو داود (١/ ٢٤٧)، والدارمي (١/ ٣٦٥)، والنسائي (٣/ ١١)، وابن ماجه (١/ ٣٢٩)، وأحمد (٢/ ٢٤١)، والشافعي في مسنده (ص٤٩)، والدارقطني (٢/ ٨٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٤٥٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٠٠).

وانظر: الفتح (٣/ ٧٦)، والتمهيد (٢١/ ١٠١)، وشرح النووي (٤/ ١٤٨)، وتلخيص الحبير (١/ ٢٨٣)، وبيان من أخطاء على الشافعي والبيهقي (ص١٦٢ ـ ١٦٤).

العطشان إلى الماء الزلال، فإذا قرب أجلهم، أتاهم ملك الموت مع سبعين ألف ملك من الله بالتحية والسلام، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

وكذلك يجيء الملك للمؤمن على أطيب ريح، وأحسن صورة.

فيقول المؤمن له: مرحباً، لأي أمر جئت؟.

فيقول له: لقبض روحك، على أي حال تحب أن أقبض روحك؟.

فيقول: إذا كنتُ في السجود، فيفعل ذلك ملك الموت، فيأتيه حافظاه ويقول أحدهما لصاحبه: كان لنا صاحباً وأخاً، قد حان له الفراق، فيقولان له: جزاك الله خيراً، وغفر لك، فنعم الأخ كنت، لقد كنت أيسر مؤمن، ونعم ما قدمت لنفسك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] بالروح والراحة.

وتقول روحه لجسده: جزاك الله عني خيراً، كنت تحب الخير وأهله، وتبغض الشر وأهله، أستودعك الله.

مُرَّ بجنازة على أمير المؤمنين عليٍّ ـ كرّم الله وجهه ورضي عنه ـ فقال: مستريح، أو مستراح منه، فقيل له: مَن المستريح؟.

قال: المؤمن إذا مات استراح من نَصَب الدنيا، وإيذاء أهلها، فلقي رحمة الله عليه، والمستراح منه الفاجر، إذا مات استراح منه العباد والبلاد.

قال مأمون السلمي رحمه الله: لما توفي أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ غسلناه وكفناه ودفناه، فهتف بنا هاتف من السماء:

الحمد لله الذي أوصل الحبيب إلى الحبيب، راضياً مرضياً.

وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله: رأيته في المنام بعد موته، كان يتبختر في حظيرة القدس! فقلت له: ما هذا التبختر؟ يا أبا عبد الله أليس قد نُهينا عنه؟

فقال: هذا مشي الخدام، في دار السلام، عند الملك العلام.

ورؤي ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ بعد موته في المنام، فقيل له: ما حالك؟ قال: سألت الله أربع مسائل، فأعطاني اثنتين، وأنتظر اثنتين، قيل: وما هُنَّ؟ قال: قلت:

إلّهي! إن قبضت روحي فلا تكلني إلى ملك الموت.

وإن سألتني فلا تكلني إلى منكر ونكير.

وإن أهنتني فلا تكلني إلى مالك.

وإن أكرمتني فلا تكلني إلى رضوان.

وحكي أن داود العجلي ـ رحمه الله تعالى ـ لما مات حُمِلَ إلى قبره، فإذا هو مفروش بالرَّيْحان، فأخذ الذي يدفنه شعبة من الرياحين، وكان الناس ينظرون إليها تعجباً، سبعين يوماً لم يتغير حالها، فأشخص الأمير وأخذها من الرجل، ففقدت، فلا يدرى كيف ذهبت؟!.

وقال عمار بن إبراهيم رحمه الله تعالى: رأيت المسكينة الطاوية بعد موتها في المنام، وكانت تحب مجلس الذكر، فقلت: مرحباً يا مسكينة!.

فقالت: هيهات يا عمار! ذهبت المسكنة، وجاء الغنى.

قلت: هنيئاً لك.

فقالت: وما تسأل عمن أبيحت له الجنة بحذافيرها!.

قلت: بماذا؟.

قالت: بمجالس الذكر.

فقلت: فما فعل الله بعلي بن زادان؟ فضحكت وقالت: كساه حلة البهاء، وقيل له: يا قارىء! اقرأ، وارْقَ.

وقال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى: رأيت الواصلي بعد موته في المنام، كأنه قائم في الهواء، وقد امتلأ الهواء من نوره! فقلت له: ما فعل الله بك؟.

قال: نعم المولى مولانا، غفر لنا وأكرمنا، وجعل بنا ما هو أهله، قلت له: أوصني! قال: عليك بمجالسة الذاكرين، فإنهم عندنا في الرفيع من الدرجات.

ولما حضر معاذاً ـ رضي الله عنه ـ الموتُ أُغمي عليه، ثم أفاق.

فقال: ألحقوني بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، ثم ضحك وقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الحمد لله. ثم مات.

وحكي أن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها، فصلّت عند قبر النبي ﷺ ثم سجدت، فلم تزل تقول: واشوقاه! فلم ترفع رأسها حتى ماتت.

وقال جعفر الضبي ـ رحمه الله تعالى ـ: حضرت زيارة قبر مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ، فقلت: ليت شعري، ما فعل الله بمالك؟ فسمعت صوتاً من فوق مالك:

مالك نجا من المهالك، ومن وعثاء المسالك، وصار إلى دار السرور، بمجاورة الرب الغفور، فقلت: الحمد لله.

وقال ابن بكار: صلّينا الغداة يوماً بالمَصِّيصة ـ اسم مدينة ـ فلما سلّم الإمام قام رجل وقال: يا أيها الناس! إني رجل من أهل الجنة، وإني أموت اليوم، فمن كانت له حاجة فليأت، فلما صلينا العصر، مات الرجل في سجوده.

وحكي أن الحارث عمر بن الطائي ـ رحمه الله تعالى ـ مرض بأرمينية، فيوماً من الأيام، استقبل القبلة وصلّى ركعتين، ثم قال في آخر سجوده: اللهم إني أسألك باسمك الذي هو قِوَامُ الدين، وبه ترزق العالمين، وبه تحيي العظام وهي رميم، إن كان لي خير عندك، فعجِّل قبضي. ثم سكت، فحركوه فإذا هو ميت.

وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: كان لي رفيق ـ وكان والله من العارفين ـ فمرض فحضرته لأعوده، فإذا هو رافع بطرفه نحو السماء، وقال: اللهم إن كنت تعلم أني أحبك، فبارك لي في لقائك. فلم يتم كلامه حتى مات.

وحكي أن رجلاً رأى مالك بن دينار رضي الله عنه، كأنه في قصر معلّق في الهواء، بحيث لم يصف الواصفون حسنه، فقال له: ما فعل الله بك يا مالك؟.

فقال: أنزلني ربي في هذا القصر ـ كما ترى ـ وأباح لي أن أنظر إليه كلما اشتقت إلى رؤيته، بلا كيف ولا شبه، والحمد لله رب العالمين.

ولما حضرتْ الوفاةُ سيدي الشيخ منصور، رضي الله عنه، بكينا حوله، فأفاق من غشيته وقال:

مَوْتُ الْمحبِّ حَيَاةٌ لاَ انْقِطَاعَ لَها قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

ثم تكلم فقال ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قضى نحبه، وصعدت روحه الطاهرة إلى خالقها فرضي الله تبارك وتعالى عن سيدي القطب الكبير سيدي أحمد الرفاعي وعن أحبابه وعن جميع المسلمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

* * *



مفتاح البركات

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني
المتوفى سنة ١٠١٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين، وصحبه الأخيار المقرّبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه حقائق نفائس أسرار اطلاع فاضت من سر روح إمام من المتحققين الكبار، مَن سطعت عليهم سواطع الأنوار، وتنزلات الغفار، ليحصل بها التحلي بعد التخَلي، ثم التجلي بموارد الأسرار، فيكون مقامٌ بعد مقام، وعُلو إلى حضرة قرب القريب المنّان.

قد قمت بتحقيقهما على النسخة الخطية الوحيدة فيما أعلم، وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية، وخطها نسخي واضح.

ترجمة موجزة للمصنف

هو الشيخ الإمام المحقق أحمد بن عمر الحمامي، العلواني، الخلوتي، الشافعي، نزيل حلب، من أعلام المتصوفة في عصره.

توفي رضي الله عنه سنة ١٠١٧هـ.

ومن مصنفاته غير التي بين أيدينا:

١ ـ أعذب المشارب في السلوك.

٢ ـ المناقب في التصوف.

٣ ـ الأصول العلوانية في الآداب والأخلاق الصوفية.

انظر: معجم المؤلفين ومصادره (١/٢١٦).

وآخراً نسأل الله القبول والإخلاص والتوفيق لنشر أعمال أهل الطريق إلى الله والاختصاص، وأن ينفع به الطالب والراغب وتتحقق به المطالب التي هي أسنى المقاصد وتكون على الحال غالب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

أبو الحسن أحمد فريد المزيدي

كلية أصول الدين ـ القاهرة

رسالة روح
الإشاره
بأرواح
من
العبارة
يهتدى به السالك وينجو من كل
المهالك لمولانا
الشيخ احمد
الحموى

صورة عنوان «رسالة روح الإشارة» ضمن المجموع المحفوظ
بدار الكتب المصرية (١)

كتاب روح النجاة من الروح الشيطاني
والفلك السقلاني للمعترف
بروح الكمال الشيخ احمد
العلواني نزيل الشيخ
شمعون قدس الله
روحه الكريمة
امين

صورة عنوان «روح النجاة» ضمن المجموع المحفوظ
بدار الكتب المصرية



صورة عنوان «رسالة الستر والتجلي» ضمن المجموع المحفوظ
بدار الكتب المصرية

رسالة الموازين السبعة
لمولانا الشيخ احمد الحموي
الحلواني نفعنا الله
تعالى به في الدنيا
والاخرة
بمنه وكرمه
امين
امين

صورة عنوان «رسالة الموازين السبعة» ضمن المجموع المحفوظ
بدار الكتب المصرية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مفتاح البركات: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: ١] ومفتاح الرحمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: ٤] سيدا مفاتيح النشأتين، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] مشهود في العلم والعين، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] من أبواب القرب ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] باب من أبواب الحب فإن من لم يكن محبًا لم يكن منه إعانة وهو سبحانه لما أحبّ دلّ على طلب الاستعانة منه ليتفضل بها وبالمزيد منها ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: ٦] دلالة على الكرم الواسع في العالم الروحي والتجلي الذاتي للأرواح المجردة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: ٧] بروح الكشف في الخلوات البشرية والمساكن العنصرية فشهدوا بروح الكشف الذي هو روح من أرواح التجلي الذاتي أرواح الإطلاق وذاقوا من حلاوة من الفتح بأي أذواق ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: ٧] بإرسال الشهوات في أنفسهم حتى تدوم لهم إمارة ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٧] في سبيل اللوامة عن سبيل الاستقامة في الروح المطلق من إشراك الصور وأرواح الكدر في عالم البشر وعكر الأثر و(آمين) روح عناية من سيد المرسلين فهي شفاعة منه لمن يخاطب بأم الكتاب فعلى التحقيق إنما الفضل لصاحب الكلام وللنبي عليه السلام فالدعاء لنا من الله والتأمين من رسول الله وإنما القارىء مجرَى والمُجرِي صاحبُ الكلام فمجرَى ومُجرِي وإلى هذا الاعتبار أشار صاحب الاقتدار بقوله: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي شطرين»**[1] فروح الفاتحة من الله وروح آمين من رسول الله فهذه هي العناية العظمى عند صاحب البصيرة فكيف تصح صلاة مصلٍّ لم يكن مجرى لهذا السر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَج: ٤٦] فالصدر حرم القلب لكونه فيه فإن كان القلب مشرقاً بروح التجلي الرحماني والتنزُّل الفرقاني بالتجلي الصمداني كان الصدر مشروحاً بنور القلب الذي

---

(١) رواه مسلم (١/٢٩٦).

هو سلطانه فإن حرم الملك محل تجليه والقلب محل تجلي النور الإلهي الصمداني والصدر محل تجلي القلب والعقل نظر الروح، والروح فإذا نظر إلى نور الصدر وإلى نور القلب اهتدى إلى ربه وعرف الباب والأسباب والحجاب والكسب والاكتساب والوهبْ والوهاب وبذلك النور يحصل لنظر الروح، وللروح تجريد خاص وبه يكون قطع النظر عن ظاهر الكون والمركبات وبذلك تصلح للتجلي الذاتي فتكون غيباً في غيب وتغيب في روح التجلي فتأخذ عن الله أسرار التدلي وهذه الروح هي الروح القائمة بالله المخبرة عن الله بروح من الله وإذا كان القلب مطموساً فلا إشراق في الصدر ولا روح هناك وإنما هي نفس أمّارة وظلمة وعدم عقل فـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢] فإنه ـ أي الخلق ـ روح الحجاب وغاسقه النفس الأمّارة والشيطان الموسوس ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣] فالنفس الأمّارة غاسق الحجاب أي ليلة، ووقوبها: انتشارها بأمرها في المخالفات ونهيها عن المأمورات وكذلك الشيطان الموسوس في الصدور عند فقد النور القلبي الوهبي الذي مفتاحه لا إله إلا الله فقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي إذا فتح بها قلبك تظهر منه نور التجلي إلى الصدر وانشرح بها ونظرت روحك الكريمة إليه فانقطعت عن النظر في ظاهر الكون وغابت في روح التجلي الخاص بعد التجلي للقلب في ظهور نوره إلى الصدر فبتجليها الخاص يكون لها الأخذ التام والإطلاق في روح غيب الغيب الذي ليس فيه شك ولا ريب، ففيه يحصل العلم الحقيقي بأنه لا إله إلا الله توحيداً روحياً كشفياً إطلاقياً وإلى ذلك الإشارة أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] أي بنور قلبك الظاهر من نور التجلي الذاتي بعد فتحه بروح لا إله إلا الله، ففتح بلا إله إلا الله وفتح بنور الله «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله**»[1] فيقع الفتح الخاص بنور الله الذي هو نور التجلي الذاتي بعد الفتح بنور لا إله إلا الله وتجليها بأسمائها فشرح الصدر بنور القلب ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح: ٢] ظلمة الجسد الناشئة في الصدر على الروح دفعناها بنور القلب الذي ظهر إلى الصدر من نور التجلي الذاتي ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ٣] أي روحك أي أثقلها بظلمته فلما ظهر نور التجلي من القلب إلى الصدر اندفعت الظلمة البشرية فخفت بذلك روحك الكريمة التي هي ظهرك فإنها قوتك وغيبك والقوة في الظهر وهو من غيب الإنسان الشهادي فظلمة الجسد مثقلة

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

للروح ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤] بوضع وزرك وهو ظلمة جسدك وذكر الإنسان روحه فإنها التي تشرى وترفع الملكوت عند ذهاب الظلمة البشرية. فسبحان الذي ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] أي في مقام ستر الظلمة البشرية بالنور الإلهي فالمسرى الروحي هو رفع الذكر من المسجد الحرام أي الصدر الذي هو حرم القلب إلى المسجد الأقصى الذي هو روح التجلي الذاتي الواقع للروح بعد ظهور نور التجلي من القلب الذي أشرق به الصدر فأبصرت به الروح فكسبت من روح الإعراض عن ظاهر الكون فكانت صاحبة زهد في المساكن العنصرية والبيوت البشرية ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ [الشرح: ٥] الذي هو ظلمة الجسد ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] وهو النور البارز من القلب إلى الصدر الذي به ذهاب تلك الظلمة الناشئة من الجسد ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ [الشرح: ٦] الحاصل بتلك الظلمة ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] بالتجلي الذاتي الواقع للروح بعد التجلي الواقع للقلب فنور على نور ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ [الشرح: ٧] من النظر ببصر روحك وهو العقل في بيت وجودك وشهدت النور في الصدر وشهدت أنه بارز من القلب ﴿فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧] في مقام الإعراض عن ظاهر الكون ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٨] في الإطلاق بروح التجلي في العالم الروحي فالمنة التي هي أصل كل خير ومفتاح كل بركة شرح الصدر بهذا النور الصمداني الفائض من القلب بروح التجلي السبوحي، القدوسي، الروحي، الإطلاقي، الشافي، الكافي، الواقي.

فيا أيها المريد المحب اعلم رحمك الله أن القرآن قد جعله الله شفاء لما في الصدور فإنه النور وأنت شجرة التين وشجرة الزيتون وأنت الطور والتجلي يختلف وقد يأتلف وهو المؤتلف فخذ بشرح حالك من تأويل هذه السورة وكل سورة لأخذ المعاني البارزة من التراكيب كالصورة فإنه ما ظهرت معانيها من مبانيها فالصورة والسورة سواء فبسم الله روح فتح من الرحمٰن الرحيم تجلى في الموجودات بإبراز البركات والتين قسم يكف بإبراز البركات ممدود يفتح فتحاً تميل إليه النفوس وتلتذ بطعمه الأذواق حلاوة وطلاوة فالفقير المسالك كهذه الشجرة المباركة قريبة المأخذ طيبة الثمرة حلوة المذاق كثيرة الأوراق ليظهر ظلها وثمرتها لا أحد يملها ولذلك الفقير السالك في طريق الله والزيتون معدن الزيت والزيت معدن النور مع طول الاستقامة فسراج من الزيت ينور على صاحبه غالب الليل أو كله فالفقير السالك كذلك فظاهره كالتين في الحلاوة واللين والظل وسهولة المأخذ منه ومنطق عذب ووجه بسيم والزيتون باطنه المشوق بالأنوار الإلهية والعلوم الكشفية والأفهام الذوقية ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ [التين: ٢] قلب المبارك ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ٣]

صدره الذي هو حرم قلبه فإن القلوب في الصدور والصدور محل ظهور النور القلبي والنظر الروحي وهو العقل مع الروح ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [التين: ٤] الكامل بروح الإيمان روح لا إله إلا الله المناظر إلى وجوده بنور الله ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] والكافر ليس على هذه الصورة ولا تقرأ فيه هذه الأحرف النورانية ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝﴾ [التين: ٥] في مقامات التواضع لله ولخلقه فلم تشهده نفساً لأنه في مقام الإحسان ورؤية الفضل لله لما ظهر له من نور القلب المفاض إلى الصدر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٦] بالله فلم يكونوا في مقام الإحسان بظهور ذلك النور ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] في المقام الإيماني مع وجود ظلمة البشرية وليس لهم من نور التجلي ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] في الآخرة فلا ينقطع نعيمهم المختص بهم وأصحاب نور التجلي فوقهم فإنهم أصحاب الغرف فرفعهم على مقدار خفضهم وتواضعهم لله ولخلقه في دار الدنيا فهم درجات عند الله ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] والعلم بالله إنما يكون بنور الله الفائض من القلب إلى الصدر عن روح التجلي الذاتي الذي مفتاحه تكرار لا إله إلا الله والسلوك بنورها إلى منازل القرب والوقوف بها على درجات الحب فإن لم تكن من أهل الإحسان والعمل الصالح ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝﴾ [التين: ٧] أي فأي دليل يقوم على تكذيبك ﴿بَعْدُ﴾ [التين: ٧] ما ظهر من الأدلة على وجودي ووحدانيتي بخلق الإنسان وغيره فلا أحد يكذبك ﴿بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧] من الناظرين والسامعين ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝﴾ [التين: ٨] أي هو أحكم الحاكمين فالهمزة لتقرير هذا الحكم أي إثباته فهمزة التقرير تثبت ما كان منفياً والصورة صورة استفهام فسبحان من هو أحكم الحاكمين في رفع من شاء وخفض من شاء فالفقير السالك هو الذي إذا قرأ السورة القرآنية نظر ما في وجوده منها من الآيات وما دلته عليه من المستحسنات فتكون صورته سورته ويكون في صورته آيات سورته فالتين جسد الإنسان وظاهره والزيتون روحه والطور قلبه والبلد الأمين صدره فالصدر الأمين على القلب وعلى ما يخرج منه من النور والروح هي الشجرة المباركة الزيتونة والإيمان رشح روحاني والإحسان نور قلبي يظهر فيه ومنه إلى الصدر من نور التجلي الذاتي فالتجلي الذاتي يحصل للقلب من وراء دائرة الروح فلا تشعر به إلا من بعد ظهور نوره من القلب إلى الصدر ثم يكون لها بعد الكشف عنها بذلك النور تجلٍ ذاتي خاص بها ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ومَن جاهد في لا إله إلا الله ظهر له من نور الله وسرّه ما لم يظهر لغيره.

قال الله سبحانه وتعالى لأكرم خلقه محمد النبي الحبيب والرسول القريب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] ففي هذه الآية إذن لأرباب الإرادات أن يسلوا من الكمل عن المواجيد والمبشرات من المنامات الصالحات ليعرفوا ربهم بما تعرّف به إليهم فيستدلوا بذلك على قربه منهم وعلى أنه معهم فيراقبونه ويخافونه ويفعلون ما يؤمرون به كالملائكة الذين قال الله في حقهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠] فكذلك كل مَن أُشعر بسر القرب يكون له خوف من الله ومسارعة إلى أمره فيفعل كل ما أُمر بفعله على حسب وسعه وذلك الذي كلفه الله به لا زائد عليه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فاقرأ صورة وجودك باسم ربك وهو روحك المدبر فيك فإن أسماء الله هي المدبرات للأمور الخلقية.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم مفاتيح الأنوار اقرأ يا محمد ويا من اتبع محمداً كتاب ربك وكتاب وجودك المكتوب باسم ربك وهو قلم سرّه الناصب للأشكال الكونية وهو فيها جار الذي خلق الوجود، خلق الإنسان جسده أوله من علق كانت نطفاً وتصير مضغاً وعظاماً وتكسى لحماً وجلداً وتجري بعد ذلك فيه الروح فيفاض معها أرواح المعاني الإنسانية اقرأ أسطر هذه النعم في لوح وجودك وربك الأكرم فيزيدك فوق قراءتك بفكرك روح كشفك بروح من أرواح التجلي الذي علّم الكتابة بالقلم فتظهر بها أحرفاً وتراكيباً تظهر منها المعاني فكذلك ألّف هذا المشكل الإنساني وعلّمه علم الإنسان من العلوم ما لم يعلم بطريق الكسب فهو الوهّاب الفتّاح العليم يظهر مكنون العبد له ويعرّفه سره المصون. فاقرأ أيها السالك سورتك في صورتك ولا تكن طاغياً على حدك. كلا إن الإنسان الجاهل بالله وبنفسه ليطغىء بتعدي الحدود الإلهية ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العَلق: ٧] بصورة من الصور عن صورها المدبر فيها ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [العَلق: ٨] الخالق البارىء المصور ﴿الرُّجْعَىٰ﴾ [العَلق: ٨] أي الرجوع في كل أمر وفي كل نهاية فإنه الأصل والسّير القريب فارجع من كل صورة غناءٍ إليه فإنه الذي صوّرها وارجع في حل كل صورة ومشكلها إليه فإنه الذي أنزلها، فالقرآن روح أنزله الله على القلوب. يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فلا غنية لمخلوق بشيء عن خالقه.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ [العَلق: ٩] يا محمد ويا من اتبع محمداً ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا﴾ [العَلق: ٩، ١٠] لله ﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العَلق: ١٠] له وذلك من أشد الكفر ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ

أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [العَلَق: ١١، ١٢] وذلك شأن العبيد فيأمر إخوانه بطاعة سيدهم فلو كان على هذا الأمر لحصل له قرب من الله وحب ورفعة في الدارين.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العَلَق: ١٣] عن الحق وبه هل يضرنا ذلك منه إنما وبال ذلك عليه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العَلَق: ١٤] أحواله كلها فلا تخفى عليه من خافية، أي فهو يعلم بأن الله يرى ذلك منه ولم يرجع إليه فليرجع إليه قبل أن تحل به المصائب العظام ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ [العَلَق: ١٥] عن المخالفة والصد عن الله ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العَلَق: ١٥] أي لنأخذن ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العَلَق: ١٥] إلى العذاب ﴿نَاصِيَةٍ﴾ [العَلَق: ١٦] أي بناصية ﴿كَٰذِبَةٍ﴾ [العَلَق: ١٦] على الله ﴿خَاطِئَةٍ﴾ [العَلَق: ١٦] بارتكاب الكفر والمعاصي ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العَلَق: ١٧] جماعته وأهل ناديه لنصرته من عذابنا ولا ناصر له ولا مجيب ﴿سَنَدْعُ﴾ [العَلَق: ١٨] نحن ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العَلَق: ١٨] لأن تأخذه إلى النار ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العَلَق: ١٩] أيها النبي ومن اتبعك ﴿وَٱسْجُدْ﴾ [العَلَق: ١٩] لله وإن نهاك ﴿وَٱقْتَرِب﴾ [العَلَق: ١٩] إليه بسجودك وبكل ما يقربك منه فإنه القريب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦] وما تقرب عبد إلى الله بمثل كلامه وهو جامع الفرض والنفل وغيرهما.

واعلم أن الشيطان في بيت وجود كل إنسان يقطع عليه السبيل يرغّبه في دنياه ويزهده في أخراه ويأمره بالبُعد عن الله على ضد ما أمره به الله فاسجد لله واذكر قول سيدنا رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فليسأل الله ما شاء**»[1] أي من خير الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦] أي في وقت دعاه إياي من غير تأخيره.

فيا مَن هو على كل شيء قدير آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فاشتغل بنظرك وفكرك ولسانك ما يوجب لك الخيرات.

وخاتمة كل خير لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

تمت بحمد الله وعونه

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٣٥٠).

الأفلاك الإرشاديّة بالأرواح الإسعاديّة

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني

المتوفى سنة ١٠١٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روح حب من الله وصلّى الله وسلم على الحبيب بأرواح التقريب وعلى كل الأرواح الصالحة بأرواح الفاتحة.

وبعد، فالروح المحمدي قد جاء بأرواح الكشف عن صور المكر وعلى كل صورة ماكرة لها روح شاكرة وأرواح الصور الماكرة وجوه النعم فما من نعمة إلا وهي روح مكر في صورتها فعلى مقدار تكرار أرواح النعم وصوَرها يكون الروح الإلهي ظاهراً بالمكر وهو باطن لوجود الستر بأرواح النعم وصورها فتح باب ورفع حجاب روح الإعراض عن صور النعم وأرواحها برفع روح الأمر إلى الروح الأعظم برفع الأرواح الماكرة من صور النعم فتعود صورها لا مع سراب في بيت خراب وعند ذلك يظهر روح الشكر لظهور روح الحق عند شراب صور النعم فيقع الخلاص من روح التعلق بالصور الماكرة.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] من صور النعم القائمة بأرواح المكر فروح الإعراض عن الصور الماكرة بأرواح النعم التي هي صور اللبس روح نجاة من تسلسل الأرواح والصور الماكرة وفلك المكر واسع يدور بغير صور النعم العنصرية وفلك المكر يدور بأرواح السعة فما من صورة في الظاهر إلا وفيها روح مكر من وجه كما أن كل صورة في الظاهر فيها روح تقريب من وجه أو من وجوه.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] في كل صورة من صور الكون الظاهر فيأخذكم في صور المكر إلى سبيل البُعد فاعرف فلك المكر في الظاهر وهو يدور في الباطن بكل صورة خيال من جنس المحال فلك الوحشة روح تفرقة بأرواح الإرادات في سبيل المباحات وهي حرم أمن ولسعته كانت فيه روح تفرقه بأرواح الإرادات فكان فلكاً موحشاً بأرواح البُعد عن حرم الندب الذي هو فلك المحبّة وروح الأنس في فلك الوجوب وأبعد من فلك الإباحة فلك الكراهة وأبعد من فلك الكراهة فلك التحريم وأبعد من فلك التحريم فلك الكفران فمنازل البُعد في هذه الأفلاك ومنازل القرب فلك الندب، فلك الوجوب، فلك الإباحة، وقع في أفلاك الهلاك فالأرواح الفرقانية متفرقة في كل الأفلاك روح فرقاني في فلك الوجوب ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

روح ثاني فرقاني في فلك الوجوب ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

روح ثالث فرقاني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

روح رابع فرقاني في فلك الوجوب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

روح خامس فرقاني في فلك الوجوب في روح الصلاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] وفلك الوجوب فيه روح الوضوء روح الغُسل من الجنابة ونحوها روح الصبح روح الظهر روح العصر روح المغرب روح العشاء روح الصوم لشهر الصبر روح الزكاة روح الحج روح صلة الأرحام روح الإحسان إلى الأيتام روح الإيمان روح العرفان روح الفكر روح الذكر فلا يدور إلا بهذه الأرواح فسائر حركات هذا الفلك تقريب من الله ما تقرب إلي عبدي بمثل آداء ما افترضت عليه فمَن كان على أرواح من أرواح فلك الوجوب فهو على روح نجاة من الله وهو على روح قرب من روح الله والروح الكبير في فلك الوجوب التحقق بروح لا إله إلا الله محمد رسول الله. فالروح الرحماني كل نظره في فلك الوجوب أو في فلك الندب فإذا نزل إلى فلك الإباحة أقام فيه من أرواح المندوبات بأرواح النيات ثم إن فلك الندب فيه روح الضحا وأرواح الرواتب وروح الوتر وروح الأولين وروح قيام الليل. ومن أرواح الصيام الخميس والاثنين وست من شوال وصوم يوم عرفة وروح صوم عاشوراء. ومن أرواح الأشهر الحرم وفي كل الأيام من أرواح الصيام غير العيدين وأيام التشريق فأرواحها أرواح طعام وشراب وفي فلك الندب من أرواح الصلاة والسلام على رسول الله ومن أرواح ذكر الله سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وفيه من أرواح زيارة الإخوان وزيارة المقابر ومن أرواح السعي إلى الجماعات وفلك الندب فلك واسع روحه الأعظم الحب في الله والتبادل على حب الله والعفو عن عثرات الإخوان روح فرقاني في فلك الندب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] و«**لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»[1] فالمحبة روح وصل فوق الروح الإيماني.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

روح ثاني في فلك الندب ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

روح ثالث فرقاني في فلك الندب ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧] ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

روح رابع فرقاني في فلك الندب ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

روح خامس فرقاني في فلك الندب ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فلك التحريم روح منع بروح من الجلال لإكمال أرواح الجمال فحرم الحرمة وهو فلك التحريم من أعرض عنه بروحه باختيار عدم الدخول في صورة من صور الظلمانية جعل الروح الإلهي فتحاً في الصور الجمالية ورزقه من الأرواح الوهبية من حيث لا يحتسب أنه من أهل ذلك الروح الوهبي الجمالي فما المتروك من فلك التحريم لمن أعرض بروحه الكريمة عنه باختيار عدم الدخول في صورة من صور الظلمانية التي هي أرواح الأغطية للأرواح الرحمانية والأرواح الوهبية ووجوه الحق لا صورة خيال من جنس المحال ولا مع سراب لو جاءه لم تجده شيئاً ووجد عنده الأرواح الانتقامية فوفاه الله حسابه بها فيصبح على أرواح من الندامة على أرواح التفريط في أرواح الاستقامة على روح الإعراض عن فلك التحريم باختيار عدم الدخول في صورة من صور الظلمانية التي ما دخلها روح بالاختيار إلا وحالت بينها وبين الأرواح الرحمانية والروح الوهبي والروح الفاتح بالأرواح الذاتية بل يكون لتلك الروح الاتصال بالأرواح الشيطانية فيصبح على أرواح من الوساوس وأرواح من الإهانة بعد سلب أرواح الإهانة فمن شاء فليؤمن بأرواح الكشف فيترك الميل إلى صورة من صور فلك التحريم الذي لا يدور إلا بأرواح السخط فلا يختار الدخول في صورة منها فإنها مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالميل إلى فلك التحريم والدخول في صورة الظلمانية بالاختيار ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] بالمحو بعد الإثبات فسلبناهم من الأرواح الرحمانية والأرواح الوهبية فلم يفتح عليهم بروح من الأرواح الطيبات باختيارهم الدخول في الصور الخبيثة ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: ٥٧] بالدخول في صور فلك التحريم الظلمانية بميلهم إليه واختيارهم الدخول في صوره التي جرتهم أرواحهم الانتقامية إلى السجن في الصورة القهرية ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] بالميل إلى فلك التحريم الذي لا يدور إلا بأرواح السخط وباختيار الدخول في صورة الظلمانية التي ما هي إلا أرواح الأغطية عن الأرواح الرحمانية والوهبية التي تفتح على

الروح الإنساني بأرواح الأنس بالله التي تكره الروح الإنساني كل ما يكون من الروح الشيطاني فلا يميل إلى فلك التحريم الذي هو حمى الله الذي لا يدخله داخل بالاختيار إلا هلك في الظلمات فكان معاقباً بالأرواح الشيطانية في فلك الخذلان وبأرواح الحرمان من الأرواح الرحمانية والأرواح الوهبية وما وراء ذلك سيرديه الهلاك في صور التحريم الظلمانية التي هي سجن الاسم القهار والاسم الغفار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٩] من أهل هذا السجن الروح الإيماني ويترك من يشاء إلى أجل مسمى ثم يكون له روح النجاة بروح الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النّساء: ٤٠] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزَلة: ٧] روح نجاة وروح رحمة ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٨] روح هلاك روح خذلان وروح حرمان وكل ذلك من الميل إلى فلك التحريم واختيار الدخول في صورة من صوره والفلك الشيطاني معقود في روح فلك التحريم لا يزال يدعو إليه في أرواح الخيال بصور من جنس المحال فأرواح الهلاك لمن مال إلى فلك التحريم بدعاية أرواح الفلك الشيطاني بصور من جنس المحال في روح الخيال. فالروح الإنساني إذا اختار الدخول في صورة من صور فلك التحريم ودخل فهو كامل الزلل بموالاة الأرواح الشيطانية ومعاداة الأرواح الرحمانية ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الطُّور: ١١] بالأرواح الفرقانية مع الأرواح الخذلانية ولهم البُعد بالحشر مع الأرواح الشيطانية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طٰه: ١١٤] انسلخ به من الروح الشيطاني بروح من التصديق بالروح الفرقاني روح فرقاني في فلك التحريم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفَجر: ١٤].

روح ثاني فرقاني في فلك التحريم ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ﴾ [النّبَإِ: ٢١، ٢٢] بالأرواح الشيطانية بالميل إلى فلك التحريم واختيار الدخول في صورة الظلمانية ﴿مَـَٔابًا﴾ [النّبَإِ: ٢٢] مرجعاً بأرواح الانتقام.

روح ثالث فرقاني في فلك التحريم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجُمُعَة: ٦، ٧] أي بميلهم إلى فلك التحريم واختيارهم الدخول في صورة الظلمانية فهم لا يتمنون الخروج من هذه الصور البشرية والمساكن العنصرية لما يشهدون من أرواح الانتقام بأرواح اليأس المنتظر لأرواحهم حين يأتيها الروح الأعظم من هذه الأرواح الإنسانية المشتبكة بالأرواح الشيطانية في هذه المساكن العنصرية والصور البشرية فيخرجها بروح الإكراه فلا تلقى إلا روحاً مكروهاً «**مَن كره لقاء الله**

كره الله لقاءه ومَن أحبّ لقاء الله»(١) من الأرواح الطيبة «أحبّ الله لقاءه» فاعرف المنازل أيها الراحل النازل.

روح رابع فرقاني في فلك التحريم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمرَان: ١٢] بالأرواح الرحمانية والأرواح الفرقانية والأرواح المحمدية بالميل الروحي إلى فلك التحريم بالأرواح الشيطانية الساكنة في الصور الخيالية والاختيار للدخول في صور فلك التحريم التي أعظمها ظلمة وأقلها رحمة صور الكفران بأرواح الرحمٰن أن ينتهوا عن الميل إلى فلك المحارم واختيار الدخول في صوره الظلمانية بالميل إلى فلك الأرواح الفرقانية واختيار الدخول في صوره الإشراقية مع الدخول في صورة روح لا إله إلا الله وروح إشراق محمد رسول الله يغفر لهم ما قد سلف من أرواح الكفران فلا يظهر لها وزن في ميزان الرحمٰن ويكون ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعرَاف: ٨] للرحمٰن، المتفضّل على هذه الأرواح الإنسانية بالأرواح الإحسانية المخرجة لها من الفلك التحريمي ومن صوره التي من أعظمها ظلمة صور الكفران فطوبى لمن آمن بهذا الفرقان.

روح خامس فرقاني في فلك التحريم ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] بالأرواح الشيطانية ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦] بالأرواح الرحمانية ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ [الرُّوم: ٣٩] بأرواح الشيطان وبأرواح الباطل ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٩] إلا بأرواح المحق ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] لوجود أرواح الحجاب ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] لأنه من أرواح السراب.

فالسلوك في أفلاك خمسة: فلك الإباحة، فلك الكراهة، فلك الحرمة، فلك الوجوب، فلك الندب. وكل هذه الأفلاك وما فيها من الأرواح النورانية والأرواح الظلمانية إنما يسلك بالأرواح الفرقانية ففلك الكراهة روح من أرواح التنزيه للروح الإنساني ومعراجه روح الترك لكل صورة من صور هذا الفلك الرقيق فتارك المكروهات له روح لطف من الروح الرحماني والأرواح التي هي في فلك الإباحة إنما فصلت لإقامة أرواح فلك الوجوب وأرواح فلك الندب ولأن تكون حداً مانعاً عن التعلق بفلك الحرمة والدخول في صورة وما من روح حرمه إلا وله فداء من أرواح الإباحة فصور فلك الإباحة وأرواحه متشابهة بصور فلك التحريم وأرواحه فلا يتجاوز أرواح فلك الإباحة وصوره إلى فلك الحرمة وصوره إلا من أبعده الله بأرواح الخذلان

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٦، ٢٣٨٧)، ومسلم (٤/٢٠٦٥، ٢٠٦٦).

المتنزلة من أرواح الفلك الشيطاني الذي لا يدور إلا بصور المحال في شكل الخيال ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] في فلك الإباحة فلا تكون من الرحمة في فلك التحريم شيء وفلك الكراهة من رقائق فلك الإباحة ففيه من الرحمة. فالتقرب إلى الله بأرواح الحق في ترك الميل إلى فلك التحريم وعدم الدخول في صورة من صوره بالاختيار ومن أرواح التقريب ترك الميل إلى فلك الكراهة وروح القرب في التعلق بفلك الوجوب والدخول في صوره بالاختيار. وروح القرب مع روح الحب في التعلق في فلك الندب بالميل إليه والتعلق بصوره فصورة المعراج إلى الأرواح الرحمانية الفائضة من الروح الإلهي بروح حبه الروح المتقرب إليه بأرواح النوافل مع أرواح الفرائض القائمة في فلك الوجوب فأقبل ترشد واسلك تحمد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] لأرواحهم بالميل إلى فلك التحريم والدخول في صورة من صوره فهو لهم بالمرصاد مع أرواح الربانية وما المرصاد إلا النار الحامية ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ [النبإ: ٢١] ورصد بها روح الجلال والخلاص من فلك الخذلان وأرواح الشيطان بعدم التعلق بفلك التحريم فالهلاك فيه إلى فلك التوبة روح إقبال على أرواح الجمال بصور الندامة على روح الاستقامة فلك المعافية روح جامع للأرواح الإلهية من روح الاستقامة على أرواح المأمورات ومن روح الكراهة لصور المنهيات وفيه من صور الفتح بما يريح الروح الإنساني من خيالات أرواح الروح الشيطاني وفيه من الأرواح المحمدية الفاتحة بالسنن الإلهية وفيه من أرواح الستر عن ذلك الإخوان ومن روح العفو عمن ظلم وفيه من روح حب الإخوان من أهل الإيمان وفيه من روح الزهد بفضول المباحات وفيه من روح إقامة الحق بروح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه من أرواح الإخلاص ومن كل روح فرقاني فهو الجامع لأرواح النجاة التي من جملتها روح المتاب وروح النجاة من العقاب «**فإذا سألتم فاسألوا الله العافية**» هذا روح محمدي جامع لأرواح النجاة فلك الروح الكبير أرواح الانقطاع فكل روح لها من الروح الكبير روح تعلق على مقدار التعلق منها والفتح بالأرواح الرحمانية على حسب نظر الروح الكبير إلى روح يقلق الروح الإنساني فكل ما انفصل الروح الإنساني عن روح شيطاني فتح بروح رحماني ينظر الروح الكبير إلى روح يقلقه وإلى روح ارتحاله وتخلصه من ذلك الروح الشيطاني الذي هو صورة خيال من جنس المحال فلا يفوز الروح الإنساني بالروح الرحماني من روح الكبير إلا بروح الانقطاع فجلى الروح الكبير في الروح الإنساني على حسب الانقطاع للروح الشيطاني وما يكون منه من أرواح الخيال في صور من

جنس المحال وفي الروح المحمدي لولا عكوف أرواح الشياطين على قلوب بني آدم لطالعت أسرار الملكوت أو كما ورد فلا حجاب عن الأسرار إلا بروح شيطاني فالأرواح الشيطانية هي الظلمات التي بعضها فوق بعض في شدة التغطية على الأرواح حتى لا يكون لها روح إشراق من الروح الكبير بأرواح الرحمة. فلك الروح المحسن أرواح الفاقات فعلى حسب الفاقات تكون أرواح الإحسان من الروح المحسن فمَن لم يزل على روح فاقة لم يزل له من الروح المحسن روح إحسان وروح فاقة في المطعوم وروح فاقة في المشروب وروح فاقة في عافية للطائف الجسد وجوارحه وروح فاقة في أحكام الأخلاق المحمدية وروح فاقة في أحكام قواعد الإسلام والإيمان بأرواح البرهان ورفع فاقة أي رفع الأغطية الظلمانية وهي الأرواح الشيطانية وروح فاقة إلى إصلاح العيال والإخوان والمال وروح فاقة في حسن الظن بالله وروح فاقة في التخلص من مظالم العباد وروح الفاقة إلى النجاة في المعاد فروح الإحسان محلاة في أرواح الفاقات على حسب النيات في قضاء الحاجات فلك العجز روح إعراض عن الأرواح الرحمانية وروح إقبال على الأرواح الشيطانية روح بيان من الروح المحمدي «الكيس من دان نفسه» أي بأرواح العبودية فلا يكون في فلك العجز وهو الإعراض عن الأرواح الرحمانية والعاجز من اتبع نفسه هواها وهو الميل إلى الأرواح الشيطانية والأغطية الظلمانية وتمنى على الله أي أن يدخله في فلك روح الإحسان مع الإقامة في فلك العجز بأرواح الميل إلى الأرواح الشيطانية والأغطية الظلمانية. فلك التعارف روح المواصلة ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٨، ٩] فمن كان له روح مواصلة فهو في فلك التعارف فالكثيف بين الروح الإلهي والروح الإنساني على حسب المواصلات فيه ومن أجله فلك الحجاب روح الأغطية بالأرواح الشيطانية بروح الفصل عن الأرواح الرحمانية باختيار الروح الإنساني للروح الشيطاني عند ظهوره في الخيال بصوره من جنس المحال فلا روح حجاب إلا بروح فصل عن الأرواح الرحمانية بروح من الأرواح الشيطانية بميل الروح الإنساني إليها واختيار الدخول في صورها السرابية ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] من الأرواح الشيطانية بالميل إليها يكون لكم الحجاب عن الأرواح الرحمانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [النحل: ١٢٨]. الميل إلى الأرواح الشيطانية ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] بالتعلق بالروح الكبير بعد الانقطاع عن الأرواح الشيطانية بترك الميل إلى صورها الخيالية. فلك الراحة روح الأنس بأرواح القدسية لا راحة لمؤمن دون لقاء ربه في الروح السري بالروح القدسي المطهر من

الروح الفصلي والروح الوصلي في الروح الكبير الواسع والسر المحيط الجامع. فلك الإسعاد روح الإرشاد فروح المرشد فلك إسعاد تنزل أرواح الإرشاد على أرواح القوابل في الأرواح الإنسانية فالروح القابل روح المريد الكامل في التوجه إلى أرواح الحق من حيث الإرشاد إلى الأرواح الرحمانية في طي وجوه الأرواح الشيطانية ورفع الأغطية الظلمانية بالخروج من كل صورة خيال من جنس المحال قام بها روح شيطاني في الفلك السفلاني من خيالات الروح في روح القلب بالميل إلى صور الخيال بأرواح المحال فإن أرواح الإرشاد أرواح عفو وعافية من أرواح الشيطان والنار الكامنة.

والسلام على من اتبع الهدى بروح الإقبال على الأرواح الرحمانية مع كمال الإعراض عن الأرواح الفاسدة بأرواح الخذلان في صورة الحرمان فاعرف الميزان وزن تسلم، والله بأرواح عباده أولى وأعلم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ليس السلوك بأرواح من القال إلا إذا حملت روحاً من الحال وكان الفراغ من هذا الروح الإرشادي حادي عشر شوال غفر الله لمن نظر فاستفاد وأفاد من أرواح الإرشاد.

تمّت

رُوحُ الإشَارَة

بأرْوَاحٍ مِنَ العِبَارَة

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي الحلواني

المتوفى سنة ١٠١٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روح كل شيء، الحمد لله رب العالمين روح ثناءٍ من الروح الإنساني على كل روح إحساني من الروح الرحماني، مع روح الإقرار بأرواح الربوبية التي بها كمال أرواح الموجودات مع تكميل أرواح العبودية، وصلى الله وسلم بالأرواح الجماليّة على الروح المكرم، الخاتم المقدم، سيد الأرواح الكاملة، والصور الكاملة بأرواح القرب على روح وهب من الله، وروح رحماني يرى الروح الإنساني. إن الروح الأعظم في أرواح الأسرار روح لا إله إلا الله، وروح الإقرار بأن محمداً رسول الله.

وبعد: فالأرواح الفاتحة بأرواح التذكير أرواح إرشاد به، وكل روح إرشادي فيه روح إسعادي بل ليست أرواح الإرشاد إلا أرواح الإسعاد. مفتاح الطهور رب غفور. لا طهارة إلا بغفران فالغفران يرفع الأغطية، والأرواح الظلمانية كما يرفع الماء الحدث، ويزيل الأدران. فروح السالك لا سبيل لها إلى السلوك إلا بروح الغفران، وروح الغفران لا ينزل إلا بروح من أرواح الاستغفار، وعلامة عدم الغفران الأرواح الساترة عن ظهور الأرواح الغيبية «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة**» والاستغفار أرواح كشف من الغين والران فلا يزال صاحب الغين أو الران على أرواح الاستغفار حتى يعلم أنه قد غفر له برفع الأغطية وهي الغين والران، وما هي إلا أرواح ظلمانية تقل وتكثر على حسب الجنايات بأرواح الأعمال، وأرواح النيات التي لم تكن على الأرواح الإلهية، والأرواح الرحمانية، والأرواح المحمدية. فالوضوء روح غفران وهو أبلغ من روح أستغفر الله في إزالة الأغطية وهي الأرواح الظلمانية، والتوبة روح غفران وهي أبلغ من روح الوضوء وأعم في إزالة ما كثف من الأغطية أو رَقّ، وصلاة الجماعة روح غفران في معنى روح أستغفر الله، والحج روح غفران في معنى روح الندامة، والرجوع عن الأرواح المكروهة الشيطانية إلى الأرواح الإحسانية الرحيمية فتزيل الأغطية الكثيفة من الأرواح الظلمانية. فلولا كثرة الأرواح الغفرانية المزيلة للأرواح الظلمانية لهلكت الأرواح الإنسانية، وكم من روح غفراني ظهر من روح إنساني رفع الله به عن سائر الأرواح ما يكرهون، وأمسك عنهم بهذا

الروح الأرواح الانتقامية ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

فاعرف بركة روح الاستغفار، وما يكون من أرواح الغفران فالسلوك في السعي في رفع الأغطية الظلمانية بالأرواح الرحمانية التي فتح لنا أبوابها الروح المحمدي روح غفراني بروح سبحاني **«من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»** روح غفراني وحداني **«من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحى عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»**.

روح ثالث غفراني إشهادي **«اللهم إني أصبحت أشهدك، وأشهد ملائكتك، ورسلك، وحملة عرشك، وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك. من قالها أربع مرات أعتقه الله من النار»**[1].

ومن أرواح الانتقام فما لاح لك من هذه الأرواح فهو الشافع فيك في هذه النشأة من الأرواح الظلمانية والأغطية الشيطانية، وفي الآخرة يكون النجاة بالأرواح الغفرانية، ودخول الجنان بالأرواح الفرقانية، فيقال للقاري **«إقرأ وارق فإن لك بكل حرف درجة»** فإن الأحرف الفرقانية خزنة لأرواح المعارف والأرواح الرحمانية. فالدرجات الإحسانية على حسب أرواح المعارف، والأرواح الرحمانية فمفتاح المواهب الإلهية الأرواح الفرقانية فإنها سر الذات، وروح الصفات، وفلك الأسماء وروابط الأفعال بأرواح الكمال روح من أرواح الإنذار ورد بالتحذير من التعلق بأرواح الأشرار ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] فأرواح المريدين لها عثرات بأرواح الغافلين بالميل الروحي. فمتى مال المريد إلى روح غافلة فقد عرج عن روح الطريق السوي المحمدي إلى السبل التي هي أرواح البُعد عن الروح الإلهي والأرواح المحمدية. فإن الروح المحمدي إنما جاء لدعاية الناس من أرواح الغفلة إلى أرواح اليقظة في روح الحياة في النشأة الأولى المذكرة بالاسم الأول، والاسم الآخر، والاسم الظاهر، والاسم الباطن، والاسم المحيي، والاسم المميت، والاسم الباعث، والاسم الشهيد، والاسم القهار، والاسم الستار، والاسم التواب، والاسم المحسن، والاسم المعز، والاسم المذل، والاسم القيوم،

---

(١) رواه أبو داود (٤/٣١٧، ٣٢٠)، والضياء في المختارة (٧/٢٢٦).

والاسم الهادي، والاسم الرزّاق، والاسم الفتّاح، والاسم العليم، والاسم الحليم، والاسم الصبور، والاسم القابض، والاسم الباسط، والاسم الودود، والاسم الرحيم، والاسم الرحمٰن. فهذه جملة من الأسماء التي جاء بها الروح المحمدي، والسالك يحتاج إلى روح كشف عن خزائن أرواح إعانتها في الفتح على روحه بها روحاً من الأرواح الرحمانية التي تخرجه من الأرواح الظلمانية المشبكة في الروح الشيطاني، والفلك السفلاني. فروح التذكير بالاسم الأول من روح الفكر بالاسم الظاهر بأرواح البرهان على الروح السابق، والروح الفاتق عن الروح الأعظم بأرواح الوجود في كل روح كوني مشهود. فأرواح الرحمٰن في كل الأعيان داعية إلى مشاهدة الاسم الأول الذي دعى إليه الروح المحمدي بأرواح التذكير، بالأرواح الفرقانية من أرواح الغفلة إلى روح اليقظة. فمن كان له روح يقظة من أرواح الغفلة نظر في أرواح الأعيان فعرف بالأرواح البرهانية الأرواح الرحمانية الداعية إلى شهود الأول في عين الظاهر بأرواح التفصيل في روح الإجمال، وحل الإشكال في الأرواح الكشفية في عين الأغطية بالأرواح العنصرية على الأرواح الحقية في روح الحدثان بأرواح الأكوان، والظاهر عنوان الباطن فصور الأكوان صور إحسانية بأرواح رحمانية علوية فهذا الأول في عين الظاهر باطن بأرواحه، ظاهر بأقلام التفصيل وأسرار التحويل بأرواح النزول، والتنزيل من أرواح الشؤون، ومن أرواح كل ميزان وموزون، والآخر أرواحه معروفة من أرواح الأول، والباطن أرواحه معروفة من صور الظاهر، وأرواحه العنصرية فأرواح الأسماء ظاهرة في صور الأعيان فهي أرواح الموازين وأفلاك القوانين فاعرف، وأقبل بأرواح الإرادة على أرواح السعادة، وأعرض عن أرواح الجاهلين المتعلقة بالفلك الشيطاني، وكل ما في فلك الشيطان من روح ظلماني فهو روح خذلاني. فاحذر أيها المريد السعيد من الأرواح الشيطانية الخذلانية. فأرواح الأخلاء الذين لا يزالون على أرواح المعاداة في الدنيا والآخرة هي هذه الأرواح التي ليس لها استنارة بروحٍ من الأرواح المحمدية، ولا بروحٍ من الأرواح الفرقانية، ولا بروحٍ من أرواح الذكر، ولا بروحٍ من أرواح الفكر، بل روح ظلماني متعلق بروح شيطاني، لا يزال يدور بأرواح الخذلان في فلك الحرمان، وفي الروح المحمدي **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم لمن يخالل»**، وفي الروح المحمدي **«الدين النصيحة»**.

وقد أبديتُ روح النصح للإخوان أن لا يصحبوا روحاً من أرواح الشيطان، وهي التي ليس فيها ميل إلى الأرواح المحمدية الفاتحة بالأرواح الإرشادية إلى أرواح التقريب من الأرواح الذاتية، ورقائق الأسرار المفصلة في الأرواح الإجمالية من أرواح

الكمال الواردة بأرواح الجمال روح كمالي إجمالي ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] بأرواح التباعد عن الأرواح الفاسدة، بأرواح التجاري على أرواح الحق، بارتكاب أرواح الباطل وأرواح الشهوات المحرمة، فويل ثم ويل للأرواح المسجونة عن الراحات الروحية بأرواح الشهوة الخفية، وما الشهوة الخفية إلا روح شيطانيّ، أقام في الخيال صورة من جنس المحال، فأشغل البال عن روح الحال، فأبدل روح الجمال بروح الجلال فعمّت الظُلْمة، وفرَّ روح الاحترام عند حضور روح الإقدام على الروح الخيالي، والشكل الخالي من الأرواح الرحمانية لعموم ظلمة الأرواح الشيطانية في عالم أمر الروح الإنساني، فالحذر الحذر من التعلق بالأرواح الجاهلة بالحق المشهود في صورة كل موجود، واستغفر الله، وما الاعتصام إلا بروح من الله، فانظر وتدَبّرْ، وبالله عليك بالخلق الجاهلين لا تتكبّر.

وكان الفراغ من هذا الروح الإرشادي يوم السبت المبارك في شهر شوال، في الجاولية، سنة المصر، وصاحب الصورة للروح البياني أحمد العلواني رضي الله وأرضاه.

تمّت

رُوح النَّجاة
مِنَ الرُّوح الشَّيطاني
والفلكُ السّفلاني

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني

المتوفى سنة ١٠١٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روح الله الأعظم محمد رسول الله هو روح حلّ طلسم الرحيم الرحمٰن الفاتحان بالأرواح الذاتية على الصور العنصرية والمساكن البشرية وصلى الله وسلّم بأرواح ألوهيته على الأرواح المحمدية.

وبعد، فروح الإكرام روح التفصيل في الأرواح العنصرية بأرواح الذاتية في السر الجامع والروح المحيط الواسع لروح التفصيل وقلم التحويل لا راحة إلا بروح كشف عن الروح الإنساني من الروح الشيطاني عذاب الروح بالروح عذاب الروح الإنساني بالروح الشيطاني وكل عذاب في الأجساد مبداه من عذاب في الأرواح ومبدي عذاب الروح الإنساني التعلق الأول بالروح الشيطاني والعالم الظلماني ما أظلمت الأكوان إلا بروح الشيطان فالروح الشيطاني مفتاح الظلمات والروح الإنساني مفتاح الأنوار في المساكن العنصرية والصور البشرية فالحذر الحذر من الرمي بأرواح خيالاته الفاسدة المفسدة لأرواح الشهود في الروح الإنساني فروحه الخبيثة روح التفصيل في روح الخيال وأرواح المحال ومفصلات أرواح كل أشكال على روح المحال أرواح الأسباب أرواح تغطية لا قوام لها إلا بالروح الشيطاني في الغالب فإن سبلها سبل شرك وشك ووهم وخيال من جنس المحال ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨] بارتكاب شهوة الفرج بدون روح إباحة أو روح ندب بل بروح حرمه وذلك أشد من كل ظلمة من ظلمات السهوات فصاحب الروح الرحماني عدوه الروح الشيطاني لأنه متصرف في الأرواح الإنسانية بالأرواح الظلمانية فهو مفتاح خزانة الفتّاح بالأرواح الظلمانية والأغطية الروحانية فكل روح ظلماني من ظلمات الروح الشيطاني ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧] من اتصال أرواحهم بالروح الإنساني على روح التغطية لأرواح الحق بأرواح الباطل التي هي الظلمات المفصلات بأرواح الإضلال بصور المحال وحل التعلق بأرواح الجمال بالروح الإرادي والروح الإرشادي على وجه التفصيل بالروح الإسعادي الذي هو حقيقة الاسم الهادي وروح التوفيق من روح الإعانة بالاسم القيوم بأرواح الفتح بالأرواح الرحمانية شكل روح

رحماني فيه محو روح شيطاني ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٣٩] من الأرواح الشيطانية بالأرواح الرحمانية ويثبت الروح الرحماني في الروح الإنساني بالنعت الإحساني والروح الصمداني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] بأرواح الاستقامة على الروح الرحماني المتصلة أرواحه بالأرواح المحمدية فلا تقبلوا روحاً من الأرواح الشيطانية فإنها الأغطية على الأرواح الرحمانية والأرواح المحمدية روح بيان فلك الروابط المحيط بأرواح القوابل روح الأمر في السمات الروحية بفصل الأرواح بالأسرار الروحية فهو يدور بأرواح الأمور في كل نشأة عنصرية مع القوابل الطينية والصور البشرية وكل مكان من صور الحيوان وعموم النشأة في كل الموجودات روح جامع وسر واسع فيه من كل الأرواح مع سر التفصيل وقلم التحويل خفض وارتقا منع وغطا كشف وغطا الروح الشيطاني فلك سفلاني يدور بالمحال في شكل الخيال ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] النفس الأمّارة فلك الإشارة بالروح الشيطاني في الفلك الخذلاني فلك العناصر ميزان الطبائع روح الاستقامة في الصور البشرية للروح الإنساني والسر الإحساني فلك العافية روح الاعتزال في المساكن العنصرية والصور البشرية فلك الودود في أرواح الاعتدال يدور بالمواصلات الإلهية على وجه الروح التقريبي من الروح الأعظم المحيط الطلسم فلك الفتح لا يدور إلا بأرواح التوجه بروح الحب للأرواح الإحسانية ثم بروح التعشق للأرواح الرحمانية وبها يقع الفتح بالأرواح الذاتية فلا بد لكل فلك من روح أعظم يديره فيفيض من أرواح الوصلة وهي أرواح الفتح المفصلات بأرواح المقاصد لأرواح الأغطية بالأرواح العنصرية الفائضة في العوالم الشهادية بروح التدبير في فلك الحجاب التي لا تتناهى أزواجه الظلمانية الفائضة من الفلك الشيطاني السفلاني المدبر في كل خيال من صور المحال ففتح بروح كشف يرى روحاً تفصيلياً في الأرواح الإجمالية من الأرواح الإلهية والأنوار النازلة على وجوه الكمالات سائرة لما فيها من التفصيل بروح الإجمال وجه في الطريق يوقف عن التحقق بالأرواح التفصيلية التي تكون في أرواح الكمال بالروح الجامع والسر المحيط الواسع للأرواح العنصرية والمساكن البشرية للروح الإنساني والفلك الإحساني بالروح الميزاني في الطبائع البشرية والأرواح التفصيلية مما أجمل في الروح التدبيري بأرواح الموصلات بأسرار المركبات مما فصل بعد الإجمال فعاد يصور من الأشكال لإقامة الروح البرهاني على الروح الإحساني في الصور العنصرية والمساكن البشرية فحقق ما كان بما يكون فالحق في كل شيء موزون وروحه الوزان في كل ميزان ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] للرحمٰن فلا وزن لغيره في كل

الأعيان فأرواح التفصيل من روح الحق الجامع وسره المحيط الواسع فما من روح إلا وهي بروح حق من الله ولها روح وصل بالأرواح الإحسانية والأرواح الذاتية وصل في كل روح إحساني وأرواح فصل في كل روح شيطاني فلا يزال روح الأمر يدور على أفلاك مختلفة الدوران في كل نشأة بميزان فلك الدوران في كل الصلاة روح وصلة ينسخ من آيات الإعراض فيسقط روح الكبر بروح الركوع وروح العجب بروح السجود وروح العجز بروح التضرع وروح الشرك بروح التشهد وروح الكفر بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] وروح الحجاب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] وأرواح الغفلة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] وأرواح اليأس بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: ١] و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] هو روح ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦] فما من مالك في روح كل سالك إلا الله بروح التدبير في كل طور من الأطوار له روح إحساني وبسط رحماني فهو الرفيع الداني من كل روح بسره الجامع وروحه الكبير الواسع فلك الجهاد روح العظمة الظاهر بقوة الطبائع والعناصر فأرواح المجاهدين طالبة على العروج لا على سبيل العود إلى المساكن العنصرية والصور البشرية فإنها قاصدة إلى خرابه فالسالك بالعزلة الروحية مع بقاء المساكن العنصرية والصور البشرية أرقى درجة في المعارج الروحية ولذلك يعود ثم يعود الشهيد إذا طلب العود بعد معراجه لا يوزن له لأنه قد هدم المسكن العنصري والبيت البشري فلا صورة له على وجه الكمال لأنه لقي الله في نعت الجلال فهو في مقعد صدق عن العروج إلى مطلق الأرواح الرحمانية المفصلات بالأرواح الذاتية والسر الصمداني في الروح الإنساني بكمال العزلة في المساكن العنصرية والصور البشرية فروح السالك عارف بالمسالك الإلهية فله العود من المعارج الروحية والشهيد ليس له ذلك فهو الهالك في عين حياته ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩] من الثمرات لعدم السلوك بالأرواح التفصيلية في المراتب الروحية ولذلك لم تكن لهم أرواح غفران إلا بكمال الهلاك في الله فهم الهالكون الفائزون بكمال الهلاك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّساء: ٤٠] و﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: ٨] فلا تضع نفسك في الهلاك فإن الهلاك أمام كل شيء فأهل المعارج الروحية على سبيل الاستقامة إلى الله في كل روح قام فلكاً عنصرية أو مسكناً بشرياً للروح الإنساني والروح الإحساني من كمال الروح الإنساني في المساكن العنصرية والصور البشرية فلا وصول إلى الكمال إلا بأرواح الجمال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البُرُوج: ١٢] فاحذر بطشه فإنه في التوجه إليه بالقوة العنصرية واسلك في

سبيل الراحة بترك الحول والقوة لله ترحم بالأرواح الإشراقية في المساكن البشرية فتكون على نور من ربك ويكون الروح الأعظم من حزبك فإنه مع كل روح له منك روح وهب في درجات السلوك والترقي عن ظلمات العناصر والطبائع بالروح الإحساني في الأرواح العنصرية وكم للروح من الإحسانات في الصور البشرية والمساكن العنصرية والأرواح القدسية فالروح الأعظم له كل أرواح الإحسان على تفاصيل أرواحها ومجملات صورها في كل فلك وفي كل إنسان وملك وما ثم إلا أفلاك تدور بالسر الروحي والفتح السبوحي فلك العز روح روابط الجود بأرواح مراتب الوجود على مقدار كل ميزان في كل فلك من الأفلاك الروحية والأفلاك العنصرية والبشرية والفلك الشيطاني في العالم السفلاني من الروح الإنساني أرواح جود مفصلات بأرواح ظلمانية أفلاك قهرية بحركات روحية ميل الروح إلى الخيال هو الذي يدير فلك المحال فحال الفلك الشيطاني إلى ما صوره الروح الرجيم من الخذلان في صور الرب الرحيم فانظر في أرواح الجود ومراتب الوجود وكم ظهرت العزة في أرواح الجحود أرواح التفصيل سر التحويل قلم الجليل روح الأغطية أرواح الخذلان روح الشيطان فلك الأكوان أرواح الإحسان كرسي الأرواح فلك الروح الرحماني والفتح الميزاني بالروح الإحساني طي الفلك الشيطاني روح إفضال بروح من الجمال كل الوصال في رفع أفلاك المحال ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] بأرواح الكمال لشهود أرواح الوصلة بالتجريد الروحي وكمال العزلة في المساكن العنصرية والصور البشرية ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨] بأرواح الفتح في الروح الكريم ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] إلا بالروح الكبير الجامع والسر المحيط الواسع هذا روح الفصل ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الطُور: ١١] وسبحان الله وما أنا من المتكلفين روح رحماني وقلم إحساني والحمد لله رب العالمين.

وفتح الله علي بهذه الرسالة المباركة في المدرسة المشهورة بالجاولية في شهر شوال المبارك في سنة الحصر وكان الفراغ منها بعد العصر وأنا الفقير أحمد العلواني غفر الله لقارئها وكاتبها.

تمّت

رسالة

الستر والتجلي

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني

المتوفى سنة ١٠١٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبعد:

فليس الإنسان بإنسان في حالة الستر فيكون على درج النقصان في دائرة الإيمان ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان الصديق في مقام الستر في دائرة الإيمان والستر معدن الحزن كما هو معدن الخوف الذي منصبه دائرة الإيمان وكان الرسول ﷺ في دائرة التجلي ولذلك فتح لأبي بكر رضي الله عنه باباً من أبواب القرب بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] أي على ما فات من أوقات الأمن ولا تخف من عدو فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ومَن كان الله معه من حزبه فلا غالب له فكانت التسلية من رسول الله ﷺ لأبي بكر لكونه في مقام الستر وكان رسول الله ﷺ في يوم فراق إبراهيم في مقام الستر أي في مقام شهود الستر عند غيره فإن الموت ساتر للأرواح عن الأجساد بإخراجها منها فإذا شهد الشاهد هذا الستر بعد التجلي بكت العين وسال دمعها وحزن القلب لوجود الفراق وكل فراق ستر وكل جمع ولقاء كشف وتجلٍّ فلذلك قال: «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع**» أي يرق «**وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» أي على ما فاتنا من شهود كمالك وجمالك. والتجلي محل الفائدة فلذلك يكون الحزن على الستر سوآء كان في الآفاق أو الأنفس وسوآء كان في نفس الإنسان الكامل أو في نفس غيره يحصل عنده الحزن قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] لوجود الستر بعد التجلي اليوسفي بالجمع فغيبة يوسف في غيابة الجب وانتقاله منه إلى مصر ليتمتع بجماله من يراه فيكثره النفع به كالشمس والقمر في السير من برج إلى برج ومن أرض إلى أرض فيكون ستراً عند قوم وتجلي عند قوم. كانت سلف عند يعقوب ولم تزل تلك عادة الله في عالم خلقه بالستر والتجلي بوجوه مختلفة وعلى صور شتى يدرك ذلك أرباب التجلي وهم أصحاب الستر فإنه لا يعرف الستر إلا أصحاب التجلي كما أنه لا يعرف التجلي إلا أصحاب الستر فالمولود إذا وضعته أمه فرح به أبوه وأخوه لأنه ظهور بعد خفاء وتجلٍّ بعد ستر

وجمع شفع جديد. ومع كونه تجل لا يظهر إلا بصورة لبس وحجاب نفس ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] ثم إن أبا المولود وأمه ومن كان من أخوته لا يزالون يرقبون فيه التجلي حتى يبلغ أشده فيرقبون منه إفاضة الجود وهو تجلٍّ آخر كالأجير إذا فرغ من العمل يرجو الأجرة ويخاف المنع أو أن تدفع إليه أجرته على النقصان وكل ما كان لا يخرج من دائرة الستر والتجلي سواء كان في الغيبات أو الشهادات، فقوم نوح كان الأغلب منهم على حد الستر فلم يفتح على سرائرهم بنور من الأنوار الإلهية التي تشرح الصدر المطلسم بالاسم المضل مع الختم بخاتم الملك بأنه لا ينازعه اسم من الأسماء الفواتح فيصير الحكم له على الدوام وقد كان قوم نوح على هذا الأمر حتى أنهم كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم وثيابهم على رؤوسهم مبالغة في عدم قبول الأسماء الفواتح لقوة ربط الاسم المضل على قلوبهما ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ [يونس: ٨٨].

فنوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى طاعته لتنبعث الأنوار الإلهية في سرائرهم فيحصل في نفوسهم الكشف والتجلي الرحماني فيسر بهم حيث يصيرون في موازينه لأنه أبو وقتهم فلم يفتح إلا على القليل منهم وكان الحكم فيهم للاسم المضل فلما تحقق بذلك بإخبار من الله قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فالإعراض عن سماع الحق حجاب عن وصول السر إلى السر والتجلي الخاص بما يكون معراجاً إلى حضرة الرب ومنازل القرب ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤] أي بفتح أسراركم وتتمة أنواركم.

موسى لما كان في مقام الستر ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي نظر مستمر على وجه واحد وجلوة واحد وجلوة لم تُغَيّر ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي على هذا الوجه ولا بهذا الحد فإني لا أحد يجلوه ولا بوجه ولا باسم ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لتشهد جلوة من الجلوات ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي بدون تغير ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي بوجه واحد وجلوة واحدة لم تختلف وذلك لا يكون ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لم يستقر وتغير فإن لكل تجلٍّ حكماً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] لاختلاف التجلي فكان تجلي الحق لموسى عند الشجرة بالنور الذي ظن أنه نار ألطف من التجلي عند الجبل ولذلك لم يصعق عند النور والكلام. وعند تجلي السر في العصا حتى صارت حية تسعى فتجلٍّ خاف عنده وتجلٍّ أنس عنده وتجلٍّ صعق عنده فسبحان من لا يحد تجليه في مراتب علو درجاته وتدليه:

وإبراهيم كان في مقام من مقامات الستر حين قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] طلب مقام التجلي للبصر حتى يشهد سر الحياة وسريان السر في الأموات الذين فارقتهم الحياة فأمر بذبح أربعة من الطير وأن يجعل على كل جبل منهن جزء وعامله بضد قصده فلم يشهده سريان السر وكيفية الإحياء وإنما أشهده السعي بعد الموت ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] وقد كان للطير بقية آجال فأعادهن لاستيفاء ما بقي من تلك الآجال. ولما أن كان الأموات قد استوفوا آجالهم لم يأمره أن يدعوا أربعة من الأموات فيقومون وفي هذا أيضاً معاملة بضد القصد. إن إبراهيم إنما طلب أن يريه الله كيفية إحياء من مات وفات فإنه المتبادر في المنطوق ويدل لذلك أيضاً قوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] أي بالبعث فإني أعيدهم كما بدأتهم ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٤] أي نفعل ما نَعِد به وذلك من عادتنا فالتجر في الطلب ربما يكون سبباً في ضد ما يقصده القاصد «**فإذا سألتم فاسألوا الله العافية وإذا سألتم فاسألوا الله الفردوس الأعلى**»[1] فطلب الفتح بتجلي العافية من أعظم الطلب فإن العافية من جملتها عدم الستر والتغطية على السر فإن الرسول ﷺ إنما دلّ على طلب العافية من كل وجه لا من وجه واحد وأوجه فإن العبد لا يخلو من وجه من وجوه العافية أو أوجه ولذلك قال: «**وإذا سألتم فاسألوا الله الفردوس الأعلى**».

يونس لما كان في ظلمات البحر وبطن الحوت وذلك ستر طلب التجلي والكشف ﴿فَنَادَىٰ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] أي ربه ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] أي في ذلك الستر ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] أي فما لأحد حق في العبودية معك ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] أي بطلب الستر فإنه وعد قومه بالهلاك ونزول العذاب وذلك يدل على أنه كان طالباً لذلك من الله وإخراجهم من الوجود على نعت الجحود ستر وإن سَتَرَ فلم يطعه الله في قومه بل جعله إرسال العذاب فتحاً لأبواب أسرارهم فآمنوا لما رأوا منادي العذاب واستغاثوا واعتذروا فكشف عنهم بما كان فيه تسترهم وهلاكهم ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبيَاء: ٨٨] أي من شر الظلمات ومن كان في نفسه من الألم والحزن وكانت له فتوحات كثيرة ومنها إن عاد إلى قومه فوجدهم على الكشف والتجلي الرحماني في دائرة الغفور والتوّاب والمعافي والكافي والودود والرؤوف والمحسن.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٠٣٤).

الصوم ستر فيه جلوة سر. فإنه حجاب عن ذوق المطعوم والمشروب والملموس والمشموم في وجه الكمال والمنظور في وجه الكمال أو الواجب فهو ستر فيه تجلٍ ومعراج للدعوات. للصائم دعوة لا تُرد. أي لوجود التجلي والمعراج المنصوب في روح الصائم. ومنه ترقى دعوة الصائم فإن الصوم ستر له طلب من عبده إقامته فاستحق أن يعوضه عنه كشف من وجه آخر ومعراج وراحة روح وقبول شفاعة ولو في الغير. فدلّ على أن الصوم من أمر المقربين. فإنه لا تقبل إلا شفاعة مقرب. خصوصاً إذا كانت الشفاعة بدون حجاب. ولا يوقف قبولها على شرط «**الصوم لي وأنا أجزي به**» فلما كان هذا الستر له ومن أجله كان الجزاء رفع الأغطية عن الباطن وذلك راحة السر وتمتع الروح بالنور الإلهي. عالم الأمر دعوة مقبولة، وفرحة موصولة بفرحة اللقاء «**للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه**» وفي كل يوم للصائم لقاء لربه بالنية والعزم فله فرحة في أول الصيام بالدخول على الله بالنية والستر وله فرحة عند الفطر بإكمال ذلك العزم والنية وكمال الستر عن المذوق والملموس والمشموم. فليس فرحة الكامل إذا أيده الله إلا بما أيده به. ثم تكون فرحته بما أنعم به عليه من موائده. وفي التسحير لقاء الرب «**يتنزل ربكم كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فأعطيه**» فالمتسحر يفوز باليقظة وبالاستغفار والتوبة والمسألة ولا بد أن يصل إلى روحه من ذلك الخطاب نصيب. فيكون لقاء لله بذكر الله. وإحياء سنة من سنن رسول الله ﷺ وله فوز بصلاة الرب وصلاة الملائكة عليه إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين في رمضان وصلاة الرب رفع ستر وتنزل رحماني في عالم أمر وفي التسحر حصول تجلي المطعوم والمشروب في الذوق وقوته في الجسد وإذا كان من المشموم والملبوس حصل من كل تجلٍ خاص برحمة خاصة وفي الوضوء تجلٍ خاص ورحمة خاصة وفي إخراج الفضلات وإخراج القاذورات تجلٍ خاص ورحمة خاصة وفي صلاة ركعتين في الليل تجلٍ خاص ورحمة خاصة وكل ما كان من إقبال فهو من الله على بال وهو وصلة واتصال ونعمة وإفضال فتح باب ورفع حجاب فلا تنكر الوسائط والأسباب، في دوائر السراب، فإن لله في كل شيء قرب واقتراب، وستر وحجاب كشف غطاء وسبب عطاء.

﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧] فإن لكل باب جلوة خاصة ورحمة خاصة ووجه لله تجلى به في ذلك الباب. فلا تظنوا أن الله يتجلى بتجلٍ واحد ولا باسم واحد، فتعرفوا إليه بوجوه واعرفوه بوجوه. فإنه الذي لا

يُحد في تجليه ولا منتهى له في تدليه. وفي تفردهم ودخولهم كل واحد من باب فتح باب الالتجاء إلى الله. وفتح باب التوكل على الله والانكسار إلى الله وكل ذلك من التجلي الخاص في الأرواح في حال أسرها مع النفس والجسد ففي التفرقة من الأبواب الجمع مع الأحد ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي من جلوة الحق لهم يحبون. ومن دخل من الأبواب المتفرقة على الله كان من أهل الجمعية بالله **«إن لله تسعة وتسعين اسماً مَن أحصاها دخل الجنة»** أي من عرف الله في دائرة كل اسم واعترف له من كل دائرة بالربوبية وأنه صاحب الأبواب والوجوه والستر والتجلي والارتفاع والتدلي والمعية العامة والمعية الخاصة والسير في السر الأعظم القائم في الإنسان الكامل والسير في سراب الغير والسير في كل نشأة وفي كل عنصر وفي كل طبع وفي أرواح الأفهام والعقول والكشكول والظنون والأوهام وفي روح كل طاعة وعصيان وفي دائرة كل كفرٍ وإيمان وفي روح كل إحسان وعرفان فله السير المطلق والتصريف المحقق في عين كل عين وإنسان كل إنسان. وفي كل أرواح الأسرار وفي كل أسرار الأرواح وفي كل قفل ومفتاح وجاهد ومرتاح وفي كل مساء وصباح وسراج ومصباح فسبحان ذي الستر والتجلي والارتفاع في الدرجات والتدلي. لا إلا إله هو.

تمّت بحمد الله



رسالة

الموازين السبعة

تأليف

العارف بالله الشيخ أحمد بن عمر الحمامي العلواني

المتوفى ١٠١٧ هـ سنة

تحقيق

أحمد فريد المزيدي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على مُمَيِّزِ القَبْضَتَيْنِ النبي الأمين، وعلى آله، وصحبه، والتابعين، وعلى كل رسول ونبي، وملك، وولي، ومؤمن ومؤمنة، وسائر عباد الله الصالحين.

وبعد: فخير طريق سَلَكَ فيه سالك الوصية بالتحذير من سبل المهالك، ثم الوصية بالحث على سلوك سبيل طاعة الله، ثم الحث على سلوك سبيل التخلق بأخلاق رسول الله، ثم الحث على سلوك سبيل التخلق بأخلاق الله، ولا سبيل إلى التَخلُّقِ بها إلا بعد التحقق بمعاني الأسماء الإلهيّة، كما إنه لا سبيل إلى التخلق بالأخلاق المحمدية! إلا بعد معرفة سيرته التي كان عليها مع الله، ومع خلق الله، وسيرته الكريمة، وإن كانت لا تُحَدُّ على سبيل تعدد الوقائع والمناقب فلها موازين، وقوانين تجمعها؛ فتكون عند السالك ليزن بها ما يكون منه فيقع على سبيلٍ صحيح وصراط سوي، ثم إذا قوي نور السالك بترك السلوك في سُبُل المهالك، وازداد نوراً بطاعة الله، وكُسِيَ رُوحاً بالتخلق بأخلاق رسول الله، ورَقَى في المعارج! بالتخلق بأخلاق الله كان له الوهب من الله بالاسم الوهّاب، والفتح في سبيل القرب بالاسم الفتّاح، ذِكْرُ ميزانٍ في دائرةِ الإسلام يعرف به المهالك في دائرة حكم الأمّارة، ثم ذِكْرُ ميزان في دائرة الإيمان تعرف به الطاعات في لوم اللوامة، ثم ذِكْرُ ميزان في دائرة الإحسان تعرف به المعارف في دائرة إلهام الملهمة، ثم ذِكْرُ ميزان يعرف به المودة، والحب لله في دائرة المطمئنة، ثم ذِكْرُ ميزان تعرف به الأخلاق المحمديّة في دائرة المعراج الروحي، ثم ذِكْرُ ميزان تعرف به أخلاق الرب في دائرة الفتح، والإسم الفتّاح، ثم ذِكْرُ ميزان الترقي إلى كرسي الأرواح، والانصباغ بالأنوار الرحمانية، ثم يكون الفتح في دوائر السّر في الإنسان الكامل، بالمعراج الروحي، هذا على سبيل التأهيل والتأسيس، والإسم الفتّاح يأتي بالأرواح التي يكون بها الوصول إلى تكميل المباني بأرواح المعاني.

الميزان الأول: الذي تعرف به المهالك حتى يتركها السالك في دائرة الأمَّارة.

«المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه، ويده»، «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، «مَن غشّنا ليس منّا»، «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، استفتِ قلبك، وإن أفتاك الناس، وأفتوك»، «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات».

والميزان الأول من موازين المهالك كافٍ في بيان ما يظهر في كفتيه اللتين هما اللسان، واليد، البيان في كفّة اللسان الذي بيّن فيه الروح أنه الذي يكب الناس في النار على وجوههم بما يجني عليهم من الحجب الظلمانية: كشهادة زور، وقول فجور، ونَمٍّ، واغتياب، وإرشاد إلى بدعة مضلة، وتقوية ظالم على مظلوم، بتحسين ما هو عليه، ونحو ذلك من أوجه الباطل الساترة للحق، ومَن جملة المسلمين نفس المسلم فلا يجوز أن يفضحها بلسانه بعد أن أهلكها بارتكاب محرم؟ فيقول: فعلتُ وفعلت. فتكون نفسه في سترٍ من الله فيرفع ذلك الستر، وكل ذلك من الأغطية الظلمانية، فإذا تركها الإنسان فقد فاز من مهالكها.

الكفة الثانية اليد ومما يظهر فيها: ضرب مسلم بغير حق، وقتل النفس التي حرّم الله، والاغتصاب، والسرقة، والنهب، أو المعاونة على شيء من ذلك، وإجراء القلم بما لا يحل أن يجريه في حق مخلوق، مسلماً كان، أو غير مسلم، وإنما وقع النص على المسلم لشرف منصب الإسلام، وعظم حق أهله، وإلا فالكافر الذمي، والمعاهد، والمستأمن كذلك في حكم كف الأذى عنهم. فلا يجوز ظلمهم، ويجب منع مَن أراد بهم ظلماً! لإقامة حق الذمة. ثم إن العين، والرجل، والشم، والذوق، والسمع في حكم اليد، واللسان فاعرف هذا الميزان، وزن به على نفسك، فلعل أن يكون لك سلامة في إسلامك، فتكون كامل الإسلام فتفوز بشرح الصدر بنور روح الإسلام، ومن شرح صدره بنور الإسلام لا يكون على غش للمسلمين، ولا لغيرهم، ويكون تاركاً لما لا يعنيه من فضول الكلام، ومن فضول النظر، ومن فضول السمع، ومن سائر الفضول. فيكون ذلك من حسن إسلامه، وكل ذلك من الكشف عن الروح من الأغطية الظلمانية، والنورانية، الظلمانية أغطية المخالفات، النورانية أغطية الفضلات مما أباحه الروح الإلهي أو الروح المحمدي ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»** فهذه التتمة في هذا الحديث ميزان روحي رحماني عام في كل الأغطية الظلمانية، التي يكون بها الخسران، والنقصان. فالكمال في الميزان الهجران لما يكون ساتراً عن الوصول إلى ما يكون من باب المواهب فإن أهل

المخالفات لا يفتح عليهم بموهبة رحمانية، ولا بفتح روحي. فَزِنْ، واشهد على نفسك بظلمها بستر الحق بالميل إلى الباطل، وترك السير إلى الله بارتكاب الأغطية الظلمانية، والسعي، والاقتداء بإمام الضلالة، ورأس الجهالة ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٤، ٦] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]. فمَن اتخذه صديقاً بالميل إلى ما يلقي إليه من العلل، وما يحسنه من ارتكاب الزلل فقد مال إلى الشغل، والدركات، والأغطية، والمهالك فلا يكون له نور من الله لأنه لم يرق عن دوائر النفوس الظلمانية، والطبائع الشيطانية فهو في نار التفرقة عن الله في الدنيا، وفي النار الحامية في الآخرة.

الميزان الثاني: الذي تعرف به الطاعة في دائرة الإيمان، والنفس اللوامة «**ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداءِ ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»[1]. فهذا ميزان جامع يجمع فيه فريضة الصلاة إذا فرضت، فريضة الشهادتين، فريضة الزكاة إذا فرضت، فريضة الحج إذا فرضت، فريضة الصيام إذا فرضت، فريضة الجهاد، فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فريضة العلم الذي يقيم هذه الفرائض، فريضة الوضوء، فريضة الغسل من الجنابة، فريضة إزالة النجاسة، فريضة السعي إلى الجمعة، والنوافل معلومات فاعرف هذا الميزان. أيها الفقير إلى الله، واسلك سبيل طاعة الله بإقامة فريضة الله، وذلك سبيل القرب إلى الله في دائرة الإيمان، والنفس اللوّامة التي تلوم، على ترك الفرائض، والتقصير في أداء حقوق الله، وتلوم على ترك النوافل التي يكون بإقامتها حب الله لعبده؛ فيكمل سلوكه في المقام الإيماني والنفس اللوّامة. ولهذه العبادات أرواح عُلْوِيّة؛ وأسرار كَشْفيّة؛ فإن سَهّلَ الله فتحنا لها باباً في آخر هذا الكتاب الميزان، والروح الإحساني.

الميزان الثالث: في دائرة الإحسان والنفس الملهمة. يعرف به المعارف البرهانية ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. فمن عرف أصله أزال بأنوار المعرفة جهله، فَطَوْرُ النطفة سكون في دائرة العنصر المائي، وهو لا حِس، ولا حركة، على سبيل الاختيار، وكذلك طَوْرُ العلقة، والمضغة، وما ورائها من الأطوار التي تكون قبل نفخ الروح وبعد نفخها؛ فيظهر من ذلك أدلة على وجود الصانع، وعلى وجود نُعُوته

الكمالية، وصفاته العلية، وتعرُّفاته بأنواع تجلياته في كل نشأة بالتدبير، والتصوير، والإمداد الروحي، ثم يرتقي الإنسان في العِرفَانِ عن رؤية ما فيه إلى رؤية ما في الأكوان، فيستدل بما يظهر له من الآيات على أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] والناس، في المعارف البرهانية على مقدار سير الأفكار في العوالم الخَلْقِيَّة، ويكون الإحسان على حسب ما ظهر من البرهان، وهو العرفان، فإن العرفان إخراج البرهان بالميزان الموضوع لاستعمال الفكر المُوَصِّل إلى إدراك موجود مُتحجِّب، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

الميزان الرابع: الذي تعرف به المحبة والمودة في دائرة النفس المطمئنة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] فحب الله للعبد في متابعة رسوله بالنوافل، بعد متابعته في ترك المنهيات في الميزان الأول، وفعل المأمورات في الميزان الثاني، والقيام بالمعارف في الميزان الثالث، ثم يكون الوصول إلى حب الله في هذا الميزان الرابع «**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»، ومقام النافلة مقام مودّة فتكون في دائرة الإسم الودود الذي سكنت عنده المطمئنة.

وأما **الميزان الخامس**: الذي تعرف به الأخلاق المحمدية في دائرة الوَهْب ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فالرحمة المحمدية من الأنوار الرحمانية، والأرواح الرَّحِيمِيَّة، وقد نعتَهُ الله بأنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبَة: ١٢٨] ونعته بأنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: ٤] وما الخُلُقُ العظيم إلا روحُ المواهب، الخالي من المكاسب، فلذلك كان يَسَعُ برُوحِ الوَهْبِ البرّ، والفاجر، والمؤمن، والكافر، والقريب، والبعيد، والحيوان، والإنسان، والنبات، والجماد، والملائكة العُلْوِيّة، والملائكة السُفليّة، والعناصر، والطبائع، والعقول، والنفوس، لأن الروح الوَهْبِيّ الأعظم برؤية الغِنَا المطلق عن العلل بقلم التفصيل، الذي هو روح الخلوة في كل دائرة رَوْحيّة، وفي كل نشأة عنصرية. فلا يزال تُجْلى عليه الأرواح الوهبية من الأبحر الرحمانية، على وجه التفصيل في عين الوصلة بالأرواح الذاتية، فله حقائق وطرائق مفصلات بالرقائق السرية، فلا تخفى عليه خافية في سبيل الرحمانية بالأرواح الوهبية، والروح المفصل في روح الوهب في عوالم الكسب سر جامع بروح التفصيل في عين الإجمال السري، والوهب البحري ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ [الفُرقان: ٧] وما ذلك إلا لعموم رحمته الواصلة إلى الأخلاق، ومدارج التلاق فرحمة بالسلام، ورحمة بالكلام، ورحمة بالمصافحة، ورحمة بالنظر، ورحمة بالسمع بأن يلقيه لمتظلم أو سائل متعلم، وكل سوق دخل فيه عمته البركة، وروح

الأُنس، وروح الإنصاف، وروح القناعة باليسير من المكاسب، وكذلك يكون في جنس ذلك الطعام الذي أكل منه روح رحمة، وروح بركة، وروح حبٌ فتكون الأرواح مائلة إلى ذلك المطعوم الذي أكل منه، ويكون في ذلك روح شكر لله، وروح ذكر، وذوق طعم يرى فتحاً في الروح الذايقة، والنفس الفاتقة بالشهوة الصادقة.

فالأخلاق المحمدية أرواح وهبية مع الرقائق التفصيلية في الأنفس، والأخلاق يفتح بها في الخزائن الكونية على الأرواح المستورة بظلمات العناصر، والطبائع، والعقول، والنفوس، وما فيها من العلل، ويريها وجه الحق في روح الوهب، ومنازل الكسب في النشأة البشرية. فهو الفاتح في الخزائن الصورية على الأرواح المجلية في خلوة كل صورة ما يحملها على الصبر والرضا في مدة إقامتها في النشأة الطينية، والخلوة البشرية الجامعة للأرواح العنصرية، والروح المطهر بالوهب الكوثر من الحوض الأكبر، والنور الأحمر وهو النور المحمدي، والوهب الأوحدي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥] بالروح الأعظم، ﴿شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] على كل روح نزلت بالروح الأعظم، ﴿شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] على كل روح نزلت بالنور الوهبي في العالم الكسبي، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] بروح التجلي، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] من ظلمات السِتْر، ﴿وَدَاعِيًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] بأرواح الوصلة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] في الوجود يقتبس من أنواره، بأرواح المحبة ﴿مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] على كل روح بما يفتح به عليها من أرواح الأخلاق المحمدية الروحية الرحمانية فهو السراج المنير بأخلاقه الكريمة.

فإذا علمت الميزان بعموم الرحمة فمن رحمة أخلاقه: **«إنه ما خُيّر بين أمرين من أمور الدنيا إلا واختار أدناهما»**[(١)]. يعني إلى الله، لأن الأدنى من أمور الدنيا أقل ظلمة، وحساباً فلا يكون حجابه قوياً في النفوس، ويكون بذلك الاختيار قد أقرّ بما هو فوق الأدنى لمن له فيه روح تفصيل بقلم عطاء، وتكون النفوس ومن كان في ظلمات الطبائع والعناصر راضياً عنه بذلك.

ومن هذا الباب: ميل أرباب النفوس إلى أهل الزهد لأنهم يُؤثِرُونهم ببعض ظلمات الشهوات. **«وما خُيّر بين أمرين من أمور الآخرة إلا واختار الأعلى منهما»**[(٢)]. أي في درجات القرب إلى الله. ولذلك لم يكن لأحد روح قرب مثله. فكان سيد

(١) رواه الحميدي في مسنده (١/١٢٥).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٧/٤٣١).

الأولين والآخرين بروح القرب الخاصة به، وبالخُلُقِ العظيم الخاص به المتفرق في عموم رحمته، وهي روح الكمال الفائض من روح عموم التجلي الجمالي، فخلقه الجمال المطلق في دائرة الأرواح، وله تنزل بأخلاق تليق بكل نشأة وطبقة من طبقات الأطوار والتفصيل طويل؛ فكن رحمانياً تكن محمدياً والسلام «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرتهُ، وليرح ذبيحته**». وهذا من أخلاقه الرحمانية. فقد كان رحمة حتى في عين الجلال. فمَن كان أكثر رحمة كان أزكى في دائرة الأخلاق، وروح القرب من الله على مقدار روح الرحمة التي يكون منها روح الأخلاق المحمدية، فالخلق المحمدي روح وصلةٍ من الله.

الميزان السادس: الذي تعرف به أخلاق الرب ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النّحل: ٦١] تدب بروح منه فالمتخلّق بأخلاقه يكون فيه روح صبر، وروح عفو، وروح حلم، وروح ستر، وروح إحسانٍ، وروح توفيق بين الناس، وروح محبة، وروح ودٍّ، وروح وهب، وروح لطف، وروح كرم، وروح تعرف، وروح فراسة حتى يعامل بما يليق، والميزان الجامع ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعرَاف: ١٥٦] فمن كان له روح فتح في مراتب رحمة الله كان متخلقاً بأخلاق الله في خلق الله للقيام بحق الله.

الميزان السابع: ما يعرف به الترقي إلى كرسي الأرواح، ثم يكون الانصباغ بالأنوار الرحمانية ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] فالمفتاح الأعظم في الترقي ميل الروح إلى العالم العلوي فإذا مالت الروح، وحُبّب إليها الخلاء مالت إليها الأرواح العلوية، ووقع الفتح بالمشاهد الذاتية، وبه القِبْلَة المرضية، ثم يكون الانصباغ الروحي بأنوارها الرحمانية، ثم العود إلى الخلوة البشرية في الدائرة السرية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] فالسر المحيط في الوجود الإنسان الكامل يرى الأرواح الذاتية بالاسم الفتّاح بعد الوهب بالاسم الوهّاب للأنوار الإجمالية المفصلة في دوائر الفتح بالاسم الفتّاح، والروح الرحماني، والاسم الصمداني في السر الأعظم المحيط الطلسم فلا توجه إلا بنور، وهو الروح التفصيلي في الأرواح الذاتية بتكرار التجلي بالتلوين الروحي في السر الجامع في عين التفصيل، وسر التحويل فهذه الموازين السبعة.

والخاتمة الباب الذي وعدنا بذكره وعلى الله الفتح بسره.

سر التعبد بلا إله إلا الله اتصال روح القول بروح الفعل فإن الله قد أظهر بما نصب من الوجود روح الشهود. فإذا نظر في الأكوان ظهر البرهان بأن المعبود من أنشأ هذا الوجود فيكون الوجود شاهداً بالأفعال والنظر بحسن هذا المقال، وهذا القول خبرٌ عن روح الشهود الساكن في خزانة سر الإنسان الكامل والمريد القابل والمؤمن المصدّق العامل.

لا إله إلا الله روح فيصل من الله. لا إله إلا الله جلال وجمال. فالنفي سيف من الجلال، والإثبات روح من الجمال.

سر التعبد بالصلاة على رسول الله الإشارة إلى دوام روح العطاء، وكشف الغطاء، واستقامة العزلة بأرواح الوصلة.

سر التعبد بالصلاة روح وصل بشهود جمع على التفصيل، وشهود الأعلى في الأدنى مع سلطان الاسم الموفق بين العناصر والطبائع والنفوس والعقول والأرواح والشهود، والتوجه بالطاعة للحق الموجود مع وجود الاختلاء على روح التوفيق وبحر التحقيق.

سر التعبد بالزكاة التخلق بروح الحب. فإن الكرم والبذل يستخرج روح الحب من الصور البشرية فتكمل الألفة على الله بالتحابب والتباذل في الله فبذل من الباذل، وحبٌ من القابل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨] فالتباذل على الحبّ لاستخراج الحب، والنهاية رؤية الحق بلا حجاب فإن الباذل رافع بيدٍ له الأغطية عن سره.

سر التعبد بالصيام رفع أغطية الشراب، والطعام.

سر التعبد بالحج رفع أغطية التعلق بالأماكن وغيرها من الأصحاب والأحباب حتى يتم القصد إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروح النفع بما جرى به القلم من الله. اللهم روح عفو وعافية، وأرواح صلوات منك زاكية على الروح الأعظم سيد الأنام محمد المختار عليه الصلاة والسلام.

تمّت

وتمّت الرسائل بحمد الله

فهرس المحتويات